التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء
سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

دار الغرب الإسلامي

التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء

سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء الثالث

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير
في
أحاديث التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الربع الأول من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن
يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾
سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ
فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟
عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ
أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ

مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ
لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ
وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ
نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾
وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ
صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ
ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ
إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧
لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ
أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ
ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ
هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ
إِلَّآ أَن تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠

الربع الأول من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب الواحـد والعشرين في المصحف الكـريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَسْتَـٰذِنُونك وَهُمُ أَغْنِيَآءُ، رَضُواْ بِأَنْ يَّكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ، لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ الذِي بَنَواْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمُ إِلَّا أَن تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

في نهاية الربع الماضي تحدث كتاب الله عن الأعذار التي يسمح الإسلام من أجلها بالتخلُّف عن الجهاد، لأنه ينظر إليها بعين الاعتبار، وفي بداية هذا الربع الذي هو حصة اليوم تسلِّط الآيات الكريمة أضواءها على المعتذرين بأعذار واهية، حرصاً على السلامة والعافية، ومن بينهم طـائفة من أغنيـاء المنافقين فضَّلت القعود والركـود على الجهاد والجـلاد، تأميناً لمتعتها، وضماناً لراحتها، وبخلاً بالتنازل ولو موقـتاً عن مألوفاتها.

ولتعتمد هذه الطائفة المنحلَّة على مبـرر لعملها حتى لا يستنكره الناس، حاولت أن تحصل من رسول الله في شأن قعودها

المريب على إذن خاص، ورضيت في سبيل إرضاء شهواتها بالتنازل عن خصال الرجال الأقوياء، وبالبقاء قعيدة البيت بجانب العجزة من الأطفال والعواجز من النساء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَسْتَـئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ أي إنما الحرج والإثم على الذين لم يبادروا للخروج معك إلى غزوة تبوك لغزو الروم، كما بادر إلى ذلك المخلصون، أغنياء وغير أغنياء، بل توقفوا وتثاقلوا وجعلوا يطلبـون منك الإذن لهم في التخلف، بالرغم من أن عندهم جميع الوسائل التي تمكِّنهم من المساهمة في الجهاد مساهمة فعَّالة، لكنهم لم يجاهدوا بأنفسهم، ولم يساعدوا غيرهم من الفقراء على تكاليف الجهاد بأموالهم: ﴿ رَضُواْ بِأَنْ يَّكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ أي رضوا بأن يكـونوا مـع العواجز، بعيدين عن جبهة القتال ومتاعبه، آمنين على أنفسهم من مفاجآت الجهاد. ولا ينبغي أن يفهم من هذا السياق أن النساء المسلمات جميعاً كنَّ محرومات من شرف الجهاد والوقوف بجانب المجاهدين، بل إنهن على العكس من ذلك، فقد كان القادرات منهن على التطوع يتطوعن بـالجهاد، وإن لم يُفـرض عليهن، ويشاركن فيه مشاركة فعالة إلى جانب الرجال، وكان نصيبهن من الغنائم يقدَّم لهن في صورة هدايا وعطايا تعطى لهن تشجيعاً على التطوع للجهاد، وتقديراً لتضحياتهن في سبيل إعلاء كلمة الله.

ثم بيَّن كتاب الله السر في موقف هذا النوع من الأغنياء: الأغنياء مادة، والفقـراء روحاً، فقـال تعالى: ﴿ وَطَبَـعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾. ففي هذه الآية تنبيه إلى أن قلوبهم قد

ماتت، ولم تعد تنبض بأي احساس كريم أو شعور نبيل، فكيف يهبُّون لنصرة المثل الأعلى الذي يمثله الإسلام، وقد (طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ).

وفي نفس الآية تنبيه إلى أن عقولهم قد أناخ عليها كابوس الجهل، وعشَّش فيها بوم الوهم، فكيف يقدِّرون الرسالة السامية التي جاء بها الإسلام، وكيف يقدمون أنفسهم وأموالهم قرباناً لها وفداءً في سبيلها (وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

وقبل أن يعود كتاب الله إلى الحديث عما ينتظر أن يفعله أولئك الأغنياء المتخلفون، عندما يعود رسول الله سالماً من غزوة تبوك، ويعود معه المومنون أخبر الله رسوله بذلك، فقال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾. فقد كانوا يظنون بالله ورسوله الظنون، وكانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن غزوة تبوك مغامرة كبرى مآلها المحقق في نظرهم القاصر أن ينتصر الروم وينهزم المسلمون، وإذ ذاك يستريحون منهم، ويستأنفون حياة الشرك والنفاق، لكن الله سلم، وألقى الرعب في صفوف العدو، فانسحب إلى حصونه الخلفية، وتفادى كل اشتباك مع القوات الإسلامية، رغماً عن مرابطتها في «تبوك» على أهبة الاستعداد حوالي شهر كامل، وبذلك انقلب الوضع رأساً على عقب، وأصبح المتخلفون عن الجهاد الظانون بالله الظنون في مركز حرج، وتيقَّن الجميع أن رسول الله ﷺ عائد على رأس جيش الإسلام المظفر إلى قاعدته الرئيسية بالمدينة المنورة، وإلى أنه سيحاسب المقصِّرين على تقصيرهم.

ومن هنا أخذوا يعدُّون العدة لانتحال الأعذار، ولتقديم الإعتذار عن تخلفهم وقعودهم، فقد رد الله كيدهم في نحرهم، وعاملهم بنقيض قصدهم: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ لكن الحق سبحانه وتعالى لقَّن رسوله والمومنين أحسن جواب يردون به على هذا الصنف من المتخاذلين المخذولين، فقال تعالى: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّومِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدق اعتذاركم، فلم يبقَ مجال للاعتذار، بعد هتك الأستار.

ثم عقَّب كتاب الله على هذا الجواب المفحم والرد القاطع، فمضى يهدد المنافقين بمزيد الكشف عن نفاقهم، وتوجيه الأنظار إلى فضائحهم، قائلاً: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنَ اَخْبارِكُمْ﴾ فعن طريق الوحي اطلعنا على سرائركم وأسراركم، ومَنْ كشَفَ الله له السر بنور وحيه كيف يستره عنه الناس، بل كيف يقع ضحية التدليس والالتباس.

وخاطب الله المنافقين خطاب ترهيب فقال: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فمهما كتمتم وسترتم، ومهما تآمرتم وأخفيتم، ومهما تقلبتم في البلاد، فإن الله ورسوله لكم بالمرصاد. أما الرسول عليه الصلاة والسلام فيطَّلع على نواياكم وطواياكم بواسطة مشعل الوحي الذي ينير له الطريق، ويعرِّفه بعناصر التخذيل والتعويق، وبذلك يرى عملكم ويعرف مرماه ومغزاه. وأما الحق سبحانه وتعالى فلا يغيب عن علمه من أمركم شيء، كبيراً كان ذلك الأمر أو صغيراً، جليلاً أو حقيراً، بل هو يراكم على حقيقتكم، منافقين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، لا عقيدة

عندكم صحيحة، ولا نيَّة لكم صالحة.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. هذا وعيد جديد من الله تعالى للمنافقين بأنهم مهما كادوا ومكروا، ودبَّروا من السوء ما دبروا، فإن مصيرهم في النهاية إلى الله الذي يعلم سرَّهم ونجواهم، وإذ ذاك سيتولى حسابهم على النقير والقطمير، وجزاءهم على الصغير والكبير، وينظر إلى معنى هذه الآية الكريمة قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ، فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

وقوله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ توكيد وتجديد لما سبق أن وصف به كتاب الله من قبل طائفة المنافقين، فهم يكثرون من الْحَلِفِ باستمرار، ويلجأون إليه دون انقطاع، لتوكيد ادعاءاتهم، وإعطائها صبغة الصدق والحق، كلما أعوزهم الدليل والبرهان، وخانهم المنطق والبيان. ومن الآيات التي سبق فيها وصف المنافقين بالإكثار من الحلف الكاذب أو اليمين الغموس قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾، وقوله تعالى سابقاً في هذه السورة - سورة التوبة - ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾، ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾، ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾، ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ، وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾، وقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿ مَّا هُم

مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بهذا الوصف، الملازم للمنافقين، الأولين منهم والآخرين.

وقوله تعالى هنا: ﴿ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ معناه أن أغنياء المنافقين إنما يرمون من وراء حَلِفهم هذه المرة إلى التخلص من تأنيب المومنين ولومهم، فهم يخافون المَعَرَّة والتجريح لا غير، وهم يحاولون أن يخلعوا على عذرهم الباطل صبغة العذر الصحيح.

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله والمومنين: ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَيٰـهُمْ جَهَنَّمُ، جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ والأمر بالإعراض عن المنافقين هنا يقتضي مقاطعتهم واحتقارهم واعتبارهم منبوذين خارج الجماعة الإسلامية. ولخبث طويتهم، وفساد عقيدتهم، وصفهم كتاب الله بأنهم «رجس» أي قذَر وخبَث، كما وصف المشركين من قبل في هذه السورة نفسها بأنهم نَجَس: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾.

ثم عاد كتاب الله إلى تحليل دافع آخر من الدوافع التي حملتهم على استعمال سلاح الحلِف الباطل، فبيَّن أنهم يحاولون بذلك كسب رضا المومنين والحصول على ثقتهم من جديد، إلّا أن الحق سبحانه وتعالى حذّر المومنين من أن يقعوا في هذا الفخ، وذكَّرهم بأن الله لا يرضى عن المنافقين أبداً،

وإذن فلا يسوغ للمومنين أن يرضَوْا عنهم بحال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ، فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَـٰسِقِينَ ﴾. والفاسقون هم الخارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله، من «الفسق» وهو لغة الخروج، ومنه سُمِّيت الفأرة «فُوَيْسِقة» لأنها تخرج من جحرها للإفساد، ويقال: فَسَقت الرُّطَبَة إذا خرجت من أكمامها.

وتولى كتاب الله الحديث عما كان عليه الأعراب في فجر الإسلام قبل أن يستفحل أمره وتعم دعوته؛ والمراد «بالأعراب» سكان البادية الملازمون لسكناها، فلمَّح كتاب الله إلى أن هذا الصنف من الناس بحكم اشتغالهم بمعايشهم، وانهماكهم في تربية إبلهم ومواشيهم، وتغيّب كثير منهم عن كثير من المناسبات السعيدة التي كان يشهدها غيرهم من المسلمين المخالطين للرسول، والملازمين لمجلسه، والمترددين عليه لتلقّي الوحي وتعلُّم الدين، ظلوا بعيدين عن التأثير اليومي المباشر للوحي والرسالة، ولم يتيحوا لأنفسهم الفرص الكافية لتتبع الدعوة الإسلامية في مختلف مراحلها، والتشبع بتعاليمها ومبادئها، وبقي من أجل ذلك قسم كبير منهم عرضة لدعاية المشركين، ووساوس المنافقين، وذلك هو المعنى المراد بقوله تعالى في بداية هذا الموضوع: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ أي لأنهم لم يكونوا يخالطونه ويلازمونه كغيرهم من المومنين ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. قال ابن قتيبة: «الأعرابيّ لَزِيم البادية، والعربيُّ منسوب إلى العرب».

وقال القاضي عبد الجبار: «يحتمل أن يراد (بالأعراب) من امتنع عن المهاجرة، فقد كان يقال: مهاجر وأعرابي».

ثم شرع كتاب الله يفصِّل أحوال أولئك الأعراب من سكان البادية والملازمين لها غالباً، فصنَّفهم صنفين: الصنف الأول منهم من خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فكانوا داخلين في عداد المومنين، عقيدة ونيَّة، قولاً وعملاً، وفي هذا الصنف المومن الواعي ورد قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْاَعْرَابِ مَنْ يُّومِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْاَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أي يبتغون من نفقاتهم التقرب إلى الله تعالى والحصول على رضا رسوله ودعائه الصالح، وعقَّب كتاب الله على وصفهم ووصف عملهم، مبشراً إياهم بحسن العاقبة وجزيل الثواب، فقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرُبَةٌ لَّهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

والصنف الثاني من الأعراب من كان داخلاً إذ ذاك في عداد المنافقين محسوباً منهم، يُقوِّي سواد المنافقين المندسين بين المسلمين في نفس مدينة الرسول، ويتعاون معهم ضد الدعوة الإسلامية. وفي هذا الصنف المنافق الجاهل ورد قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْاَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ، وَمِنَ اَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أي منهم من صار لهم النفاق طبعاً وعادة حتى جاوزوا الحدود ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ، سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾. كما ورد في وصفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْاَعْرَابِ مَنْ يَّتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ﴾ أي يعتبر ما

ينفقه في سبيل الله غرامة وخسارة، لا قربة إلى الله وزلفى ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآئِرَ ﴾ أي ينتظر حلول الآفات بساحتكم ونزول المصائب عليكم ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ﴾ هذا دعاء عليهم بالسوء والشر، جزاء وفاقاً ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «ذم الله تعالى المنافقين والمقصرين في(هذه السورة) في آيات جملة، ثم طبقهم طبقات عموماً وخصوصاً، فقال: ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً ﴾ [الآية: ٩٧]. وقال: ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ﴾ [الآية: ٩٨]. وقال: ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَتٍ ﴾ [الآية: ٩٩]، وهذا مدح يتميز به الفاضل من الناقص، والمحق من المبطل».

وأخيراً عاد كتاب الله إلى الحديث عن المتخلفين الذين تخلَّفوا عن الجهاد والخروج مع رسول الله إلى غزوة تبوك، فبيَّن أن من بين المتخلفين صنفاً لم يتخلف عن نفاق، وإنما تخلَّف عن ميل إلى الكسل، وإيثار للراحة، وحرص على الظلال والثمار، إذ كانت غزوة تبوك في فصل حر وموسم غلَّة.

وهذا الصنف ينقسم بدوره إلى قسمين: قسم اعترف بذنبه، وقسم لم يعترف بذنبه. فالقسم الأول من هذا الصنف تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمُ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. والقسم الثاني من هذا الصنف تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي مؤخرون ليوم الحساب،

متروكون لحكم الله فيهم ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

ورغماً عن كون هاتين الآيتين وردتا في الأصل على هذا السبب الخاص وفي أناس معينين، فإن معناهما يعم كافة المذنبين من غير المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُومِنُونَ ﴾ يتوجه الخطاب فيه إلى هذا الصنف الخاص من المتخلفين غير المنافقين، الذين تخلفوا كسلاً لا نفاقاً، وهذا أمر يقتضي ترغيبهم في استيناف العمل الصالح والمواظبة عليه، وفيه تذكير لهم بأن الله من ورائهم محيط، وبأن رسوله سيراقب سلوكهم باستمرار، وبأن فراسة المومنين ستلاحقهم في كل مكان، فما أطلعهم الله عليه من خير أحبوه، أو شر أبغضوه، إذ الأعمال نفسها ليست إلا علامات تكشف عن حقيقة النيَّات، وأمارات تدل على صميم المعتقدات «ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر» كما جاء في الأثر.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمَّاء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله إلى الناس كائناً ما كان». وروى ابن القاسم عن الإمام مالك أنه كان يقال: «ابن آدم اعمل، وأغلق عليك سبعين باباً يخرج الله عملك إلى الناس»، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُومِنُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

إِنَّ
ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ
وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ
وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ
بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾
ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ
ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾
مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ
وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ
لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم
مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ
عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى
سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟
أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ
وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ
وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ

ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ
مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ
لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن
كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

بعدما وجَّه كتاب الله في هذه السورة ـ سورة التوبة ـ الخطاب تلو الخطاب إلى المومنين الصادقين يستنفرهم خفافاً وثقالاً للقيام بواجب الجهاد في سبيل الله، إعلاءً لكلمة الله، ونشراً لدينه بين الناس، حتى يدخلوا في دين الله أفواجاً، حَمَلَت أولُ آية في هذا الربع أعظم بشرى إلى المومنين، بشرى إلى من جاهد في سبيل الله، ثم قضى نحبه فداءً للإسلام، وبشرى إلى من جاهد في سبيل الله ولا يزال ينتظر لقاء الله في مستقبل الأيام، وهذه بشرى تقتضي أن الله تعالى ـ تفضلاً منه وكرماً ـ قد عامل المومنين معاملة خاصة لا تخطر على قلب بشر، فيها غُنْم كبير، وربح عظيم، لا يعدلهما غنم ولا ربح.

وتتلخص هذه المعاملة الرابحة في بيع المومن نفسه وماله لربه، مقابل عوض يتناسب مع كرم الله وسعة غناه، عوض لا يقدَّر بثمن، ولا يُحَدُّ بزمن، يناله المومن من ربه، ألا وهو دخول الجنة والخلود في دار النعيم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرِيٰةِ وَالِانجِيلِ وَالْقُرْءَانِ، وَمَنَ اَوْفىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الذِي بَايَعْتُم بِهِ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾. فهذه الآية الكريمة تتحدث عن اشتراء الله من عباده المومنين أنفسهم وأموالهم، وكأنهم مالكون حقيقيون لتلك الأنفس وتلك الأموال، وكأن أنفسهم وأموالهم ملك خالص لهم، وكأنه لا دخل لله لا في خلقهم ولا في رزقهم، بينما الحقيقة والواقع أن أنفُس المومنين وأموالهم كغيرها من الأنفس والأموال إنما هي مجرد عطاء من الله، ومحض هبة منه لعباده، إذ لو شاء الله لأبقاهم في حيِّز العدم ولم يخرجهم إلى حيِّز الوجود، ولو شاء الله لأوجدهم ثم حرمهم من الرزق، وجعلهم عالة يتكففون الناس، فهو سبحانه المنعم عليهم بنعمة الإيجاد أولاً، وبنعمة الإمداد ثانياً، ومع ذلك ها هو الحق سبحانه وتعالى يتكرم عليهم كرماً لا كرم فوقه، فيعاملهم أكرم معاملة، ويعاوضهم على ما أنعم به عليهم في الدنيا بنعمة أجلّ وأعظم، وأخلد وأبقى في الدار الآخرة، وذلك هو منتهى الكرم وغاية الاحسان، الذي يعجز عن تصوره الإنسان.

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما قرأ هذه الآية قال

معجباً بكرم الله: «ثَامَنهُم ـ واللَّهِ ـ وأغلى الثمَن» يريد أن الله تعالى أعطاهم أكثر مما يستحقون، وأن الربح لم يأتِ على مقدار الشراء، بل زاد عليه وأربى.

ومثل هذا القول يُروى عن قتادة والحسن البصري، وقال شِمْر بن عَطِية: «ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وَفَّى بها أو مات عليها» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ معناه أن الله تعالى تعهد لهم بالجنة، سواء قَتَلُوا وعادوا بالأجر والغنيمة، أو قُتِلُوا وفازوا بالأجر والشهادة، أو اجتمع لهم هذا وهذا فنالوا الحسنيين ما دام ذلك كله في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله.

وفيه أيضاً إشارة إلى أن المومن الذي يُقدِّم نفسه وماله للجهاد في سبيل الله يكون معنوياً ومادياً على كامل الاستعداد للتضحية والفداء، بحيث يجود بنفسه دون أدنى تحفظ ولا حساب، كيفما كانت النتيجة المرتقبة، وهذه الروح الفدائية العليا هي التي نوَّه بها كتاب الله ومدحها هنا إذ قال: ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾.

ومن أجل هذا المعنى وُصِف المومنُ المقتول في الجهاد في سبيل الله بأنه (شهيد)، لأن إقدامه على الجود بنفسه في سبيل الله هو أقوى دليل يدل على قوة إيمانه، وصدق يقينه، وأكبر شهادة تشهد له على اعتزازه بدينه، وحماسه لملَّته، ووفائه لربه

بالبيعة التي في عنقه. أضف إلى ذلك أن الله وملائكته والمومنين يشهدون له بالجنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرِيٰةِ وَالِانجِيلِ وَالْقُرْءَانِ ﴾ تأكيد لهذا الوعد الإلَهي الناجز، وإشارة إلى أنه وعد قديم كتبه الحق سبحانه وتعالى على نفسه تفضلاً وكرماً، وكلَّف النبيئين والمرسلين بتبليغ بشراه إلى كافة المومنين. والتنصيص على التوراة والانجيل والقرآن في هذا السياق إنما هو تخصيص بالذكر لأشهر الكتب المنزلة التي تضمنت هذا الوعد الإلَهي الكريم.

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الذِي بَايَعْتُم بِهِ ﴾ خطاب من الله تعالى لمن بذلوا النفس والنفيس في سبيله، واعتبروا إعلاء كلمته في الأرض هو أعلى مَثَل يكرسون له جهودهم، ويصرفون فيه حياتهم، وفحوى هذا الخطاب تبشيرهم من جانب الحق سبحانه وتعالى بتصديقه التام على معاملتهم معه، ورضاه عنها وعنهم كامل الرضا، وتهنئتهم بما نالوه من الكسب الذي لا كسب فوقه، والربح الذي لا ربح بعده ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ومن هذا السياق انتقل كتاب الله إلى وصف المومنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، والذين أعدَّتهم الأقدار ليكونوا جند الله وحزبه في كل جيل، فقال تعالى في وصفهم تمييزاً لهم عن غيرهم: ﴿ التَّٰئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ الْحَٰمِدُونَ السَّٰئِحُونَ الرَّٰكِعُونَ

السَّـٰجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾.

فوصف (التائبين) يقتضي أنهم متمسكون بطاعة الله لا يقربون معصيته، وأنهم إذا فَرَط منهم ذنب عن غفلة وجهالة ذَكروا الله في الحين فاستغفروا لذنوبهم.

ووصف (العابدين) يقتضي أنهم قائمون بعبادة الله محافظون عليها قولاً وفعلاً، وأنهم لا يقصدون من ورائها إلا وجه الله وابتغاء مرضاته.

ووصف (الحامدين) يقتضي أنهم يَصرِفون نعمة الله التي ينعم بها عليهم في طاعته، وأنهم لا يسخَطون أبداً ولا يتبرَّمون بقضائه كيفما كان.

ووصف (السائحين) يقتضي أنهم محافظون على فريضة الصيام، لا يهملون القيام بها، وإن تغيرت الفصول والأعوام. رُوي عن ابن عباس أنه قال: «كلما ذكر الله السياحة في القرآن فالمراد بها الصوم والصائمون». وقالت عائشة: «سياحة هذه الأمة الصيام». وقال الحسن البصري: «السائحون هم الصائمون شهر رمضان». وبهذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿ سَـٰئِحَـٰتٍ ﴾ أي صائمات في قوله تعالى في سورة التحريم المدنية أيضاً: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّومِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰئِحَـٰتٍ ﴾[الآية: ٥].

قال الحافظ ابن كثير: «وليس المراد من السياحة ما قد

يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرُّدِ في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا العمل ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خيرَ مال الرجل غنمٌ يتبع بها شَعَف الجبال ـ أي أعاليها وقممها ـ ومواقع القَطر، يفِرُّ بدينه من الفتن».

وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «والسائحون هم الصائمون في هذه الملَّة، حتى فسد الزمان، فصارت السياحة هي الخروج من الأرض عن الخلق، لعموم الفساد، وغلبة الحرام، وظهور المنكر، ولو وسعتني الأرض لخرجت فيها، لكن الفساد قد غلب عليها، ففي كل وادٍ بنو نحس» هكذا يقول ابن العربي بالحرف الواحد.

ووصف (الراكعين الساجدين) يقتضي أنهم يقيمون الصلاة ويحافظون عليها دون أي كسل أو تهاون أو إهمال.

ووصف (الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر) يقتضي أنهم هداة مرشدون، يجهرون بالحق ولا يخافون لومة لائم، ويقفون في وجه العصاة والفاسقين، حماية للأمَّة والملَّة من انتشار المعاصي والفواحش، وحذراً مما يتبعها من غضب الله على العباد والبلاد.

ووصف (الحافظين لحدود الله) يقتضي أنهم كما قاموا بعبادة الحق، ولم يهملوا نصيحة الخلق، امتثلوا الأوامر واجتنبوا

النواهي، ولم يتعدوا حدود الله، فأدّوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق الإنسان، ولم يخلُّوا بشيء منها، وهذا الوصف العام الجامع المانع هو وسام الشرف وخاتمة البيان.

وبعد ما عدد كتاب الله الأوصاف الرئيسية والمميزة للمومنين في أجمل صورهم، وأكمل أحوالهم، عقب على ذلك بتجديد البشرى لهم مرة أخرى، هبة من الله وإكراماً، فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ ﴾ ويا سعْدَ من حلَّت بساحته البشرى من الله، وأحلَّ عليه رضوان الله. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وقوله ﴿ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ ﴾ أي بشِّرهم بثوابي إذا كانوا على هذه الصفة... فأما نفسٌ لا تكون هكذا ولا تتحَلَّى بهذه الحُلَى، فلا يُبذَل فيها فَلْس، فكيف الجنة؟».

وفي هذا الربع نفسه تولى كتاب الله الحديث عن قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، وعن توبتهم التي سارت بذكرها الركبان، وسجَّلها الوحي بأحرف من نور في سور القرآن، حتى سميت بها هذه السورة الكريمة (سورة التوبة).

وإلى هذه القصة يشير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلَٰثَةِ الذِينَ خُلِّفُواْ، حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

وخلاصة هذه القصة أن رسول الله ﷺ ذهب إلى غزوة تبوك حين طابت الثمار، وَبَردت الظلال، وخرج في حر شديد، وهي

«العُسْرَة» التي افتضح فيها الناس، وكان ممن تخلف عنه ثلاثة: كعب بن مالك، ومُرارة بن الرَّبيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فلما قفل رسول الله من غزوة تبوك دخل إلى المسجد، فجاء من تخلف عنه يعتذرون إليه وهم ثمانون رجلاً، فقبل النبي ظاهر حالهم ووكل سرائرهم إلى الله، إلا هؤلاء الثلاثة فإنهم لم يعتذروا، وصدقوا رسول الله ﷺ حقيقة أمرهم، وكان مما قاله له أحدهم، وهو كعب بن مالك: «يا رسول الله لو جلست عند غيرك لرأيت أن أخرج من سَخَطه بعذر، لكني والله لقد علمتُ لئن حدثتك بحديث كذب ترضى به عني لَيُوشكَنَّ اللَّهُ أن يُسخِطك عليَّ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو عُقْبَى ذلك من الله عز وجل، والله يا رسول الله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك». فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». قال كعب بن مالك وهو يروي تمام القصة كما وردت في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنَّة: «فنهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنا الناسُ، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشدَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أشهدُ الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمُني منهم أحد، وآتي رسولَ الله وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأسلّم عليه وأقول في نفسي: أَحرَّكَ رسول الله شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقُه النظر، فإذا أقبلت

على صلاتي (وهو جالس) نظر إليَّ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ هَجرُ المسلمين.. ومضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسولِ رسولِ الله يأتيني يقول: «يأمرك رسول الله أن تعتزل امرأتك» فقلت له: «أُطلِّقُها أم ماذا أفعل؟» فقال: «بل اعتزلها ولا تقربها». وأرسل رسول الله إلى صاحبيَّ بمثل ذلك... فلبثنا على هذا الحال عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نَهَى عن كلامنا، ثم صلَّيت صلاة الصبح صباح الخمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى (في هذه الآية) قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: «أبشِرْ يا كعب بن مالك، أبشر» فخررت ساجداً لله، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فأعلن رسول الله ﷺ توبة الله علينا، وأعلم بها المسلمين حين صلَّى الفجر، فأقبل الناس يبشروننا، ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبَيَّ، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤمُّ رسول الله -أي أقصده- وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤنني بتوبة الله، يقولون: ليَهْنِكِ توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله جالس في المسجد والناس حوله، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، واللّهِ ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره -وكان كعب لا ينساها لطلحة- فلما سلَّمت على رسول الله قال وهو يبرُق وجهُه من السرور: «أبشر يَا كَعب بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتْك أُمُّك». فقلت: أمِن عندك

يَا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: «لا بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قِطعة قَمر، حتى يُعرَف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: «إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله». فقال عليه السلام: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». فقلت يا رسول الله: «إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت، والله ما تعمدت كَذبة منذ قلت ذلك لرسول الله إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي».

فهذه هي قصة «الثلاثة الذين خُلِّفُوا» كما حكاها كعب بن مالك أحد الثلاثة، ورواها البخاري ومسلم في الصحيحين وغيرهما من أئمة الحديث، وهي أحسن تفسير لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَعَلَى الثَّلَـٰثَةِ الذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ أي خلفوا عن بقية المعتذرين الذين حلفوا واعتذروا، لأن هؤلاء الثلاثة فضلوا الصدق على الحلِف، فلم يحلفوا ولم يعتذروا وصدَقوا الله ورسوله، وقضوا خمسين ليلة مهجورين من الرسول والمومنين وهم صابرون ينتظرون فرج الله، وعفوه عنهم، وقبول توبتهم، إلى أن نزل بقبول توبتهم الوحيُ من عند الله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي مع سعتها ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ والظن هنا بمعنى اليقين ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾. قال القاضي أبوبكر (ابن العربي): «وفيه دليل على أنَّ للإمام أن يعاقب

المذنب بتحريم كلامه على الناس أدباً له».

وتنويهاً بصدق الثلاثة الذين خلفوا، والتزامهم للصدق دون انحراف ولا تراجع ختم كتاب الله الحديث عن قصتهم بقوله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّـٰدِقِينَ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ
ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن
يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ
وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ
فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ
إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ
صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ اَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اَللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ اُلْعَرْشِ اِلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ

أَلَٓرۜ تِلْكَ ءَايَٰتُ اُلْكِتَٰبِ اِلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
اَنَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمُۥٓ أَنَ اَنذِرِ اِلنَّاسَ وَبَشِّرِ اِلذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ اَلْكَٰفِرُونَ إِنَّ
هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اُللَّهُ اُلذِے خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ
فِے سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اَسْتَوَىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ يُدَبِّرُ اُلَامْرَ مَا مِن
شَفِيعٍ اِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ اُللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
تَذَّكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اَللَّهِ حَقًّا اِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ
اُلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اُلصَّٰلِحَٰتِ
بِالْقِسْطِ وَالذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ اَلِيمٌ
بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ اَلذِے جَعَلَ اَلشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ
نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ اَلسِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا

خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا
وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا
غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم
بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾
دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ
وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة التوبة المدنية: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة يونس المكية: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ، تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الاَنْهَـٰرُ فِي جَنَّـٰتِ النَّعِيمِ، دَعْوَيٰـهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ، وَءَاخِرُ دَعْوَيٰـهُمُ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

في هذا الربع تنتهي سورة التوبة المدنية، وتبتدىء سورة يونس المكية، والجزء الأخير من سورة التوبة يخص بالذكر موضوع الجهاد في سبيل الله مرة أخرى، ويتعرض بالتدقيق والتفصيل لوصف الحالة التي يكون عليها المنافقون من الانفعال والقلق والاضطراب، كلما نزلت أمامهم سورة من سور القرآن، ويلقي بالخصوص الأضواء على (الخُلُق العظيم) الذي كان عليه الرسول الكريم، مما أعطاه مكانة خاصة بين الأنبياء والرسل

ـ فضلاً عمن دونهم ـ وجعله أهلاً لكل إجلال وتكريم.

أما الجزء الأول من سورة يونس فهو يتضمن تنويهاً بآيات الذكر الحكيم، وتنبيهاً إلى أن إرسال الرسل إلى الناس من نفس البشر، لا من بين الملائكة، أمر لا غرابة فيه، بل هو الأمر المعقول والمنتظر، كما يتضمن تبشيراً للمومنين بمكانتهم الخاصة عند الله، وتفصيلاً لنشأة الكون الواسع، وما يتعاقب عليه من مظاهر وأطوار، وتوجيهاً إلى التدبر في آيات الله، ومن بينها تعاقب الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار، ووصفاً لما ينتهي إليه من يرجو لقاء الله من حسن المآب، وما ينتهي إليه من لا يرجو ذلك اللقاء ولا يحسب له أي حساب.

ولنقف الآن وقفة قصيرة عند بعض الآيات الواردة في هذا الربع بقدر ما يسمح به الوقت المخصص لهذه الحصة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الكُفَّـارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وهذه الآية سبقتها آية أخرى في نفس الموضوع، وفي نفس هذه السورة سورة التوبة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيٓءُ جَـٰهِـدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾.

غير أنه يوجد بين هاتين الآيتين فرق فهم، ذلك أن الآية السابقة أمرت بجهاد الكفار عموماً القريب منهم والبعيد، بينما الآية الواردة في هذا الربع ترشد المومنين إلى نوع خاص من الكفار الذين يجب البدء بقتالهم بالخصوص، وهؤلاء الكفار الذين

تتوجه إليهم الأنظار هم الذين توجد مراكز نفوذهم السياسي وقواعدهم العسكرية قريبة كل القرب من عاصمة الإسلام وقاعدته الأولى (المدينة المنورة)، ممن يتربصون بالإسلام الدوائر، إذ في وجودهم بالقرب من عاصمة الإسلام خطر مباشر لا يمكن تجاهله بحال، وفيه نوع من الحصار المضروب على الإسلام، حتى لا يتسرب إلى خارج الجزيرة العربية، وينتشر فيما وراءها. وبما أن رسالة الإسلام رسالة عامة إلى كافة البشر، كان من أوجب الواجبات عليه أن يهدم السدود، ويخترق الحدود، ليشق طريقه إلى الشعوب والأمم، آمناً من الفتنة والاضطهاد، داعياً إلى إقامة دعائم الصلاح والرشاد، عاملاً على دكّ حصون الظلم والفساد، وذلك ما دشّنه رسول الله ﷺ بنفسه في غزوة تبوك آخر حياته قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة ما خلاصته بإيجاز: «أمر الله المومنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب، إلى حوزة الإسلام. ولهذا بدأ رسول الله بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام، لأنهم أهل كتاب، فبلغ تبوك ثم رجع سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق... فوطّد

القواعد، وثبَّت الدعائم، وردَّ شارد الدين وهو راغم... ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد... وكان تمام الأمر على يديْ وصيه من بعده وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب... أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكَفَرة الملحدين، وقَمَع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً.. ثم لما مات شهيداً، وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المومنين عثمان بن عفان... شهيد الدار، فكسى الإسلام حلَّة سابغة، وأمدَّ في سائر الأقاليم حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها... وبلغت الملَّة الحنيفية مَن أعداء الله غاية مآربها، وكلما عَلَوا أمة انتقلوا إلى مَن بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجَّار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ الذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الكُفَّارِ ﴾».

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أمر للمومنين الذين يشتبكون مع أعدائهم بأن يواجهوا المعركة بما يلزم لها من قوة القلب، وضبط النفس، وتقدير المصلحة العليا، وأن يقوموا بواجب الجهاد كاملاً غير منقوص، حتى يُمكِّنوا بجهادهم للإسلام، ويفرضوا هيبته على الأنام، ويرفعوا عنه الحصار المضروب من حوله، ويشقُّوا له طريق العيش في سلام. وبنفس المعنى سبق قوله تعالى في هذه السورة وكما سيأتي في سورة التحريم: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيٓءُ جَـٰهِدِ الكُفَّـارَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ وَاغْلُظْ

عَلَيْهِمْ ﴾[التوبة : ٧٣ ـ التحريم : ٩].

وكلمة (الغلظة) إذن لا تعني القسوة، ومجاوزة الحدود، بقدر ما تعني الشجاعة في القتال، وضبط الأعصاب عند مواجهة العدو، فالجهاد الإسلامي كان ولا يزال هو المثل الأعلى للحرب الإنسانية في أهدافها، والأخلاقية في تصرفاتها، فلا تمثيل بالقتلى، ولا قتل للجرحى، ولا تعذيب للأسرى، ولا تحريق للزرع، ولا تضييع للضَّرْع، ولا اعتداء على الأطفال والنساء والعَجَزة، ولا إهانة للرهبان في دياراتهم وصوامعهم، ولا حرب مع البعيد عن ميدان المعركة من المدنيين، وإنما الحرب منحصرة كلها في جبهة القتال، ومع حاملي السلاح المقاتلين، وأعوانهم المساعدين، فهذا هو الجهاد الإسلامي الصحيح.

وقوله تعالى في نفس هذا السياق ﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى أن جهاد المسلمين لا يؤتِي ثمرته المرجوة إلا إذا كان القائمون به من الجند، والمشرفون عليه من القادة، معتصمين بتقوى الله قولاً وعملاً، سراً وجهراً. أما العصاة المذنبون فإنهم يفقدون أهم سلاح في المعركة، وهو سلاح التقوى المنبثقة من الإيمان، وما تستتبعه من رضا الله ومدده القوي ولطفه الخفي. قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسب ذلك، وبقدر ما فيه من وَلَاية لله».

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ انفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ

مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ امتنان من الله تعالى على عباده المومنين، وتذكير لهم بخصائص الدعوة الإسلامية التي أوحى الله بها إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وما جاءت به هذه الدعوة السماوية من يسر وسماحة وبُعد عن الحَرَج والعَنَت، وحرص شديد على هداية الخَلْقِ، والأخذ بيدهم إلى طريق الفوز والسعادة دنيا وأخرى، ونوَّه كتاب الله بما امتلأ به قلب الرسول الأعظم من العطف على أمته والاهتمام بمصيرها، وبما تحمَّلَه من المتاعب في سبيل تبليغ الرسالة إليها وخفض جناحه لها.

ثم عقَّب على ذلك بما يفيد أنه إذا ضلَّ المسلمون طريقهم، وهجروا كتابهم، وأهملوا شريعتهم، وعادوا إلى الجاهلية الأولى، مُولِّين الأدبار، فإن رسول الله ﷺ يتبرأ من أعمالهم، ويكِلُهم إلى أنفسهم، ولا يغني عنهم من الله شيئاً، وذلك قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ - أي أدبروا ورجعوا عن التمسك بالإسلام وشريعته - ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية ثانية ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان: ٣٠]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ، فَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧].

وخُتمت سورة التوبة بتمجيد الله والثناء عليه والالتجاء إليه، تلقيناً لرسول الله والمومنين: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾.

وهنا نقف أمام سورة يونس المكية، وأُطلق عليها هذا الاسم، بمناسبة ورود آية فيها عن قوم يونس إذ قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

وسبق ذكر يونس عليه السلام في سورة النساء ﴿ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ﴾.

وفي سورة الانعام ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

ومن المناسبات الطريفة الموجودة بين نهاية سورة التوبة وبداية سورة يونس أنهما يشتركان معاً في الحديث عن خاتم الأنبياء والمرسلين، وتوجيه الأنظار إلى الرسالة التي فضَّله الله بها على العالمين.

فمن قوله تعالى في خاتمة سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ انفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُومِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[الآية: ١٢٨]، ننتقل إلى قوله تعالى في فاتحة سورة يونس: ﴿ الر، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ الْحَكِيمِ ، أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً اَنَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمُ أَنَ انذِرِ النَّاسَ ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ

الذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾. ومضى الحديث في بقية هذا الربع يقارن بين الكافرين والمومنين، وما يكونون عليه من أحوال في الدنيا، وما ينتهون إليه من مآل في الآخرة، إلى أن جاء الوحي بتفصيل هذه البشرى التي ابتدأت بها السورة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ، تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الاَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ، دَعْوَيٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ، وَءَاخِرُ دَعْوَيٰهُمُ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

وَلَوْ
يُعَجِّلُ اُ۬للَّهُ لِلنَّاسِ اِ۬لشَّرَّ اَ۪سْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمُۥٓ
أَجَلُهُمْۖ فَنَذَرُ اُ۬لذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِے طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَۖ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ اَ۬لْإِنسَٰنَ اَ۬لضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا
اَوْ قَآئِمًاۖ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ
مَّسَّهُۥۖ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَۖ ﴿١٢﴾ وَلَقَدَ
اَهْلَكْنَا اَ۬لْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَٰتِۖ وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْۖ كَذَٰلِكَ نَجْزِے اِ۬لْقَوْمَ اَ۬لْمُجْرِمِينَۖ ﴿١٣﴾
ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِے اِ۬لْاَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَۖ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُۥٓ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ اَ۬لذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا اَ۪يتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۖ قُلْ مَا
يَكُونُ لِيَ أَنُ اُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآءِے نَفْسِيَۖ إِنَ اَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ

إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ
شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ
عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾
وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ
وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾
وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ
سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾
وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا
ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم
مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا
تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ
فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ
عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ

دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ
ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ
أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ
دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دارِ السَّلَـٰمِ وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ الَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

من شأن الإنسان العادي وغير المهذب، إذا أصابه الضجر وأثاره الغضب، أن يدعو على نفسه وأهله وولده وماله بدعاء الشر، ومن شأنه أيضاً إذا هدأت أعصابه واطمأن قلبه أن يدعو لنفسه وأهله وولده بدعاء الخير، غير أن الله تعالى الذي هو مجيب الدعاء، والذي يرتبط بإرادته المطلقة مصير دعاء الداعين، إن شاء أجابه، وإن شاء لم يجبه، تكرم على خلقه، رحمة بهم، وإحساناً إليهم، في فترات ضعفهم، وهيجان غضبهم، بأن لا يجيب دعاءهم إذا كان ذلك الدعاء يتضمن شراً، وصادراً عن مجرد الغضب والضجر، لأن في إجابَـةِ هذا النوع من الدعاء هلاكاً لهم محققاً.

وهذه المنَّة الربانية التي مَنَّ الله بها على عباده، بعدم إجابته دعاء الشر، هي التي تتضمنها أول آية في هذا الربـع، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ أي لو أن الله استجاب للناس كلما دعوا دعاء الشر لأهلكهم. قال مجاهد في تفسير هذه الآية: «دعاء الشر هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضـب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنـه» فلو يعجل الله لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم. قال ﷺ: «لا يدعُوَنَّ أحدُكم على نفسه، فربما صادف ساعة لا يَسأل اللَّهَ فيها أحدٌ إلا أعطاه إياها». وروى البزار في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدْعُوا على أنفسكم. لا تدْعُوا على أولادكم. لا تدْعُوا على أموالكم. لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » وإلى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَـٰنُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الإِنْسَـٰنُ عَجُولاً ﴾. [الاسراء: ١١].

أما دعوة المظلوم على ظالمه ولو كـانت دعوة شـر على الظالم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، كما جـاء في الحديث الشريف.

وانتقل كتاب الله إلى وصف الحالة النفسية التي يكون عليها الإنسان عندما يصاب بمرض أو نكبة أو كربة، وما يبدو عليه من القلق والاضـطراب، والضعف والاستكـانـة، والالتجـاء إلى الله التجاء العاجز المضطر، حتى إذا ما استرجع صحته، وزالت عنه آثار النكبة، وانكشفت عن ساحته الكربة، نسيَ ربه نسياناً تاماً،

وعاد إلى طغيانه وإسرافه على أقوى وأشد ما يكون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَـٰنَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِۦ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ أي أنه يُلحُّ في الدعاء ويكثر منه في جميع الأحوال وجميع الأوضاع التي يكون عليها جسمه، ليلاً ونهاراً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١] أي دعاء كثير لا ينتهي. ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ أي أعرض عن الله وانصرف عن بابه، وقطع التعلق بجميع أسبابه. ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

والمراد بالإسراف هنا الإسراف في ارتكاب الذنوب، والإقبالُ على المعاصي بنَهَم وشهية وضَراوة، حتى يصبح المذنب متبلد الاحساس، فاقداً للشعور، مطبوعاً على قلبه، مغضوباً عليه من ربه.

وفي نفس هذا الربع وصَفَ كتابُ الله صورة ثانية من صور الضعف البشري والروح الانتهازية الهزيلة عند توقع النكبة أو عند حلولها، ثم ما يتلوها بعد النجاة منها من بغي وعدوان، وإعراض وطغيان، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّـٰكِرِينَ، فَلَمَّآ أَنجَيٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾. ومثل هذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا

مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّيٰكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الإِنسَـٰنُ كَفُوراً ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهذه الصور التي وصفها كتاب الله تنطبق كل الانطباق على كثير من الناس في القديم والحديث، ولا سيما أولئك المذبذبين الذين لا إيمان لهم، ولا صبر عندهم، من ضعفاء النفوس الغافلين، والحيارى التائهين.

أما الذين رزقهم الله الإيمان والصبر فَصِلَتُهم بالله قائمة على الدوام، لا فرق عندهم بين السرّاء والضرّاء، والشدة والرخاء، وقد عبَّر عن حالتهم أصدق تعبير نصُّ الحديث النبوي الشريف المَرويّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَجَباً للمومن، لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته ضرّاء فصبر، كان خيراً له، وإن أصابته سرّاء فشكر، كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمومن».

ومن أهم ما تناوله هذا الربع موضوع القرآن الكريم، وما أثاره المشركون حوله من شبهات باطلة، وقاموا به من تحديات شاملة، مما تصدى له كتاب الله بالرد والإبطال، ولم يبقَ بعده لقائل أيّ مقال، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ايتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنُ ابَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِيَ، إِنَ اَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ، إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قُل لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرِيكُم بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ، أَفَلَا

تَعْقِلُونَ، فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً اَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

وهكـذا بينت الآيات الكـريمة أن الـذكرالحكيم والقـرآن الكريم إنما هو كتابُ الله المطابق لما في اللوح المحفوظ، منه بدأ وإليه يعود، وليس كتابَ رسوله حتى يكون للرسول فيه دخل من قريب أو بعيد، كما بينت الآيات الكريمة أن الرسول إنما يتلقى الوحي عن الله في الوقت الذي يريد الله أن يوحِيَ إليه، وأن الوحي الذي يتلقاه من عند الله لا يملك له الرسول تبديلاً ولا تغييراً، وأن دَوْر الرسول الوحيد هو أن يبلِّغه إلى الناس كما أُنزل، وأن تلاوة الرسول للقرآن على الناس إنما هي بأمر الله وتيسيره، ولـولا اصطفـاؤه للرسالـة وتيسيره لهـا لما استـطاع أن يتخطى المستوى الذي كان عليه قبلها، فقد قضى الرسول بين ظهراني قومه أربعين سنة، دون أن يَنِبس من هذا النوع المعجز ببنت شفة، حتى جاءه الله بالرسـالة، وأكـرمه بـالوحي، وأنـزل عليه القرآن، وكلَّفه بالتبليغ والبيان، فكان ما كان، مما تناقلته الركبان، واستدار له الزمان، ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ، خَلَقَ الِانسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاَكْرَمُ، الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الِانسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١، ٢، ٣، ٤، ٥]، ﴿ وَرَتِّـلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤].

وتحدث كتاب الله في هذا الربع عن استخلافه لخلقه في هذه الأرض، ابتلاءً لهم واختباراً، حتى يتجلَّى في تصرفاتهم ما

هم عليه من رُشْد أو سَفَه، وحتى يبرز في أعمالهم ما هم عليه من شكر لله على نعمة الاستخلاف، أو كفر بها وتجنٍّ عليها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ، وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ، ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِي الاَرْضِ مِـنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وبيَّن كتاب الله عاقبة الانحراف والخيانة إذا لم يحسن الإنسان التصرف فيما استُخلِف فيه وخان الأمانة، وذلك في عدة آيات من هذا الربع، منبهاً إلى أن سنَّة الله في المستخلَفين الظالمين جرت على أن يستدرجهم ويمهلهم، ويفتح أبواب نعمه على مصاريعها في وجوههم، حتى إذا ما ظنوا أن قوتهم لَا تعادلها قوة، وأن قدرتهم لا تعجزها قدرة، وأنهم ليسوا بمؤاخذين ولا معذَّبين، فوجئوا بعذاب الله فأُخذوا على غِرَّة، في الوقت الذي لم يكونوا ينتظرون العذاب بالمَرة، وهكذا يأخذهم الله بعدله أخذاً وبيلاً، ولا يظلمون فتيلاً، فقال تعالى: ﴿فَنَـذَرُ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمُ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ أي أنه سبحانه يقابل مكرهم بما يبطل مفعوله، ويمحو أثره ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَآ أَخَذَتِ الاَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتيـٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا اَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالاَمْسِ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الاَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وختم هذا الربع بالدعوة إلى دار السلام، التي لا باب لها ولا مفتاح إلا التمسك بمبادىء الإسلام، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دارِ السَّلَـٰمِ وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ الَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ
قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا
مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ
أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ
إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا
عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ
وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾
قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ

وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ
وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾
كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ
لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ

أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً
مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللَّهِ وَمَا
كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم يتناول الـربع الأول من الحـزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي وجه كتاب الله دعوة عامة إلى كافة الأنام، لاستقبالهم في دار السلام، وهي جنة النعيم، التي لا لغو فيها ولا تأثيم، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ السَّلَـٰمِ ﴾. والمغزى الذي يرمي إليه كتاب الله من وراء هذه الدعوة العامة الكريمة أن يكفي الناسُ أنفسَهم مؤونةَ التكلف في البحث عن منهج نافع وصالح للحياة دون جَدْوى، وأن يتقبلوا بكلتا اليدين، منهج ربهم الذي وضعه لحياتهم، ورسمه لسعادتهم، عن علم تام بمصالحهم وحاجياتهم، وفي انسجام تام مع طاقاتهم وملَكاتهم، وبذلك يختصرون الطريق إلى الحياة السعيدة في الدنيا، والحياة السعيدة في الآخرة.

وبعدما وجه كتاب الله هذه الدعوة العامة التي لم يميز فيها طائفة عن أخرى، ولا جيلاً عن جيل، ولا سلالة عن سلالة، بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلبُّونها ويستجيبون لها، ويلتزمون السير بمقتضى صراط الله، ومنهجه في الحياة، هم الذين يهتدون ولا يضلُّون، ويسيرون سَيْراً حثيثاً إلى دار السلام، ثم يصلون إليها في أمن وسلام، فقال تعالى ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ الَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وفي بداية هذا الربع مضى كتاب الله في نفس السياق يتمم الحديث عن الذين لبوا دعوة الله، واستجابوا لما يحييهم حياة باقية، فقال تعالى: ﴿لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، اوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. والذين أحسنوا هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، نية واعتقاداً، قولاً وعملاً، فكانت نياتهم حسنة، ومعتقداتهم حسنة، وأعمالهم حسنة، وأقوالهم حسنة، وهم قدوة حسنة في الهداية والاهتداء، وعنصر خير وصلاح في الظاهر والباطن. (والحُسْنَى) التي بشَّرهم الله بها هي أحسن الجزاء وأعلاه درجة عند الله. (والزيادة) هي مضاعفة ثواب الحسنة من عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ورضوانُ الله الأكبر. (والقَتَر) هو ما يعلو وجوه الفَجَرة والكَفَرة من اكفهرار الوجه وكدَرَ اللون في عرصات المحشر، من شدة هول الموقف، وما فيه من كرب وحزن وضيق. (والذلة) هي ما يلحق الفجار والكفار من هوان وصَغار في تلك الدار، جزاء ما كانوا عليه من الطغيان والاستكبار في هذه الدار. وكما تعهَّد

كتاب الله للذين أحسنوا بأن لا يَرهقَ وجوهَهم قترٌ ولا ذلة، تعهد لهم في آيات أخرى بنضارة الوجوه وفرح القلوب، فقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ فَوَقَـٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان: ١١].

وأشار كتاب الله إلى ما سيكون يوم القيامة من مناقشة وحوار بين المشركين وشركائهم يوم القيامة، حيث يتبرأ أولئك الشركاء من الذين أشركوهم بالله فعبدوهم، وينفُضون أيديهم منهم، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدَاً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ الْحَقِّ ﴾ تنبيه لجميع عباده إلى أنهم مهما فرّوا وهربوا، وتحايلوا وتلاعبوا، فلا ملجأ لهم في نهاية المطاف إلا إليه سبحانه، فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يحاسب ويعاقب، والخلق كلهم حيثما كانوا في قبضته، ورَهْن مشيئته وقدرته، ولذلك يجب عليهم أن يعبدوه ويطيعوه، وأن يحسُبوا لسخطه ورضاه كل حساب ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَـٰلُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ إشارة إلى ما عليه أكثر الخلق من الكسل والتهاون في البحث عن الحق، إذ تمر بهم مَرَّ السحاب الأعوامُ والسنون، وهم غارقون في أوحال الأوهام والظنون، دون أن

يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة: الحقيقة الدينية، والحقيقة الكونية، والحقيقة النفسية، وكل هذه الحقائق مفصلة مبينة في آيات الذكرالحكيم، بأسلوب واضح ميسر للفهم والإدراك لكل ذي عقل سليم.

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى الحديث مرة أخرى عن القرآن الكريم وما احتوى عليه من حِكَم وأسرار، وتحدَّى بلغاءَ العرب من المشركين للمرةالثالثة والأخيرة أن يأتوا ولو بسورة مثله، بعدما تحدّاهم قبل ذلك للمرة الثانية أن يأتوا بعشر سور مثله ﴿ قُلْ فَاتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣] وبعد ما تحدّاهم في المرة الأولى أن يأتوا بمثله كاملاً ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الاِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَّاتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الاسراء: ٨٨] فعجزوا أمام جميع هذه التحديات، لا في المقام الأول، ولا في المقام الثاني، ولا في المقام الأخير، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُّفْتَرىٰ مِن دُونِ اللَّهِ، وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي تصديق ما سبقه من الكتب المنزلة في أصل عقيدة التوحيد والدعوة إلى الخير والبر. ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَـٰبِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي تفصيل الحلال والحرام، وتبيين وسائل الخير ومناهج البر، بما يناسب سن الرُّشْد الذي بلغت إليه البشرية، وبما يتفق مع ما أصبحت عليه من نضج واستعداد لتلقّي آخر رسالة إلَهية أرسلها الله إلى الناس. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرِيٰهُ، قُلْ فَاتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ، وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن

دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ، بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾، إذ جاءهم كتاب الله بما لم يعتادوه من الحقائق والمعاني والأساليب، وبما لم يسمعوا به من العقائد والشعائر والشرائع، فتنكروا له في بداية الأمر، جهلاً منهم، ونفوراً عن غير المألوف ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَـأْوِيلُهُ﴾ أي أن كثيراً من الحقـائق والبشائـر والانذارات التـي تضمنها كتاب الله كانت وقتئذ لم تبرز بعد إلى حيـز الوجـود، فاستعجلوا ظهورها، وطال عليهم أمد انتظارها، وداخلهم الشك في صحتها، فظنوا بالله الظنون ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

وها نحن في هذا القرن الرابع عشر الهجري قد رأينا من تأويل آياته البينات الشيء الكثير، وستحمل القرون القادمة في طياتها من تأويل آياته وتفسير معجزاته ما هو أكثر وأكبر وأبهر، ﴿كَـذَٰلِكَ كَـذَّبَ الـذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَـانـظُرْ كَيْفَ كَـانَ عَـٰقِبَـةُ الظَّـٰلِمِينَ﴾.

وختم هذا الربع بتذكيرٍ ما بعده تذكير، وتحذيرٍ ما فوقه تحذير، فَحْوَاه أن كل أمة ستُعرض أمام الله بمحضر رسـولها، ليكون شاهداً لها بما بلَّغ إليها من رسالة، وشاهداً عليها فيما قامت به حِيال تلك الرسالة، من طاعة أو عصيان، وتطبيق أو نسيان، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُـمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾
قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ
مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ
كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾
وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ
وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ
وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ
أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ

يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم
مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟
هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن
رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ
عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن
قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ
تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾
أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ

إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ
وَلَدًا سُبْحَٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ اَجَلٌ، اِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُل اِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ، مَتَـٰعٌ فِي الدُّنْيا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَـا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي وصفت الآيات الكـريمة مشهـد الخليقة بكافة أممها وشعوبها، وهي تُعرَض أمام الله، الواحدة تلو الأخرى، كل أمة بمحضر رسولها، شاهداً لها أو عليها، ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّـةٍ رَّسُولٌ، فَـإِذَا جَـآءَ رَسُـولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِـالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

وفي بداية هذا الربع تذكير من الله لرسـوله، وتلقين لـه وللمومنين، أن الرسول على جلالة قدره عند الله، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن يملك لغيره من أفراد أمته نفعاً أو

ضراً، وأن الرسول على شدة قربه من الله خاضع كل الخضوع لمشيئة الله المطلقة، لا يفلت منها في شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾. ومغزى هذه الآية الكريمة تذكير المومنين بأنه لا ينبغي لهم أن يتركوا «الوسيلة» الشرعية إلى رضا الله والقرب منه، وهي اتِّباع الأوامر واجتناب النواهي، والتزام التقوى، والتمسك بالاستقامة سراً وعلناً، وأنه لا ينبغي لهم أن يتكاسلوا عن الأعمال الصالحة، ويتكلوا كل الاتكال على مجرد رحمة الله وعفوه، وما يتفرع عنهما من شفاعة في العصاة والمذنبين بعد التعذيب والتأديب، وإنه لأكرمُ للمومن، وأوفقُ بإيمانه ومحبته لله والرسول ـ إن كان صادق المحبة لهما ـ أن يكون من أهل الحُسْنى وزيادة، لا من أهل السُّوأى، أو من أهل السُّوأى وزيادة، فشعار هذا الدين: «اعملوا ولا تتكلوا».

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة دينية وكونية طالما قررها وكررها، ألا وهي أن الأمم نفسها لها أعمار وآجال كالأفراد، وأن كل أمة لها أجلها الذي تستوفيه إذا لم تبقَ صالحة للحياة، وأنه إذا حلَّ هذا الأجل لم تبقَ أمامها أية فرصة للنجاة والخلاص، فما على كل أمة تريد البقاء إلا أن تحسن التصرف فيما آتاها الله، وأن تبتعد كل البعد عن موجبات سخط الله، وفقاً للرسالة الإلٓهية التي تلقتها من رسول الله، أما إذا خانت العهد، وأخلفت الوعد، وتصرفت تصرف السفهاء الخائنين، فإنها لا بد أن تقضي نَحْبَها، وتدخل في عداد الغابرين.

ودخولُها في عداد الغابرين إما أن يكون باستئصالها وإبادتها بالمرة من خريطة العالم كعاد وثمود، وغيرهما من شعوب العالم القديم، وإما أن يكون بالادالة منها وإنزالها إلى درجة العبودية لغيرها، والتبعية الدائمة لسواها، فتصبح ذَنَباً من الأذناب، ولا يُحسَب لها بين الأمم أيّ حساب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ اَجَلٌ، اِذَا جَآءَ اَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. أخرج أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال: «توشك الأممُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأكَلَة إلى قَصْعتها، فقال قائل: مِن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: لا بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعَن اللَّهُ من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذِفَنَّ في قلوبكم الوَهْن. قيل وما الوَهْن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

ومضى كتاب الله يذكّر الغافلين بمصير الأمم التي تمردت قبلهم على حكم الله، فقال تعالى: ﴿قُلَ اَرَيْتُمُ إِنَ اَتـٰيكُمْ عَذَابُهُ بَيَـٰتاً اَوْ نَهَاراً مَّاذَايَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ، أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ، ءَالَـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ، ثُمَّ قِيلَ لِلذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى ما يُداخِل الشاكين من شك وريب في صدق الدعوة وصدق الداعي، ولا سيما في يوم القيامة بما يستلزمه من بعث ومعاد، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟﴾ أي يستخبرونك هل يوم القيامة حق، وهل الدِّين الذي جئت به هو دين الحق؟ ثم لقن الحق

سبحانه وتعالى لرسوله ما يقول: ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾. قال ابن كثير: «وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، وهما قوله تعالى في سورة سبإ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [الآية: ٣]، وقوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [الآية: ٧]. وقوله تعالى هنا: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ مثل قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧]، وتأكيداً لنفس المعنى قال تعالى في نفس السياق: ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾.

ثم عادَ كتاب الله إلى وصف خصائص القرآن العظيم، وما جاء به من هدىً للضالين والغافلين، ورحمة للمحرومين والمظلومين، وشفاء للمرضى والمكلومين، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً من جميع السلالات والألوان، فكان نعمة الله الكبرى على بني الإنسان، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ، قُلْ: بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ، هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. وفي نفس هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ ﴾ [الاسراء: ٨٢]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولا شك أن كتاب الله شفاء لما في النفوس والأرواح من الأمراض الباطنة، وشفاء لما في العقول والأفكار من الشكوك

الكامنة، فهو التّرياق المجرب في الخلَوات والجلَوات، وهو الاكسير الذي لا يماثله إكسير لعلاج جميع الأزمات.

ومن جملة آيات هذا الربع آيات بيِّنات تولى فيها كتاب الله التنويه «بأوليائه» والتعريف بهم وبصفاتهم، حتى يكونوا قدوة صالحة لبقية الناس، فيسلك من يأتي بعدهم نفس الطريق الذي سلكوه، ويبتغي إلى الله نفس الوسيلة التي اختارها الله لهم فاختاروها لأنفسهم، وهي شريعته المنزلة، وحكمته المفصلة، مع التزامهما كل الالتزام واتّباعهما كامل الاتباع، وتفادي كل زيادة عليهما أو ابتداع، منبهاً إلى أن باب الولاية مفتوح في وجه جميع المومنين، وأن مفتاحه الوحيد قريب غير بعيد، ألا وهو الإيمان والتقوى، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وكأن سائلاً بادر بالسؤال عن أولياء الله مَن هم؟ فقال تعالى: ﴿ الذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

ثم بيَّن كتاب الله ما ينتظِر كلَّ مومن اتقى الله وتولاه، وأصبح من أولياء الله، من البُشْرَيات والهبات، فقال تعالى: ﴿ لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا وَفِي الاَخِرَةِ ﴾. أما البشرى في الحياة الدنيا فهي أن يحييهم الله حياة طيبة، وأن يجعل لهم ودّاً ومحبة في قلوب خلقه، وأن يعيشوا في كَنَف رعايته وفي حمى لطفه الخفي. وأما البشرى في الآخرة فهي النعيم المقيم، ورضوان الله الذي لا سخط بعده ولا تأثيم. روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر أنه قال: «يا رسول الله، الرجلُ يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويُثنون عليه به. فقال رسول الله ﷺ: «تلك

عاجلُ بشرى المومن».

وأخيراً طبعَ كتابُ الله بخاتم القدرة الأزلية على وعد الله لأوليائه، بأنه وعد نافذ لا يلحقه إخلاف ولا تغيير، فقال تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ اللَّهِ ﴾ أي أن هذا الوعد مُقَـرَّرٌ وثابت وكائن لا محالة، بفضل الله وكرمه.

ووعدٌ له هذه القوة وهذا التأكيد من الله تعالى هو أحق الوعود بأن يقال فيه بدءًا وختاماً ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثاني والعشرين
في المصحف الكريم

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ
عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ
فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً
ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ
وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمُۥٓ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الْاَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ ﴿٧٨﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ايتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ
السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ
أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ
خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمُۥٓ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
فِي الْاَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمُۥٓ
ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ
عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾
وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ
وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ

إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ
قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَـذْكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَـوَكَّلْتُ، فَـأَجْمِعُـوٓاْ أَمْـرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنَ اَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ اقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ءَالَـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنَ ـ ايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾.

فـي هذا الربع تناول كتـاب الله من بين قصص الأنبياء السابقين قصة نوح وقصة موسى عليهما السلام، تذكيراً لمشركي قريش ومن في معناهم من الغافلين الضالين، بما آل إليه أمر قوم نوح، وأمر فرعون وملائه، من جـرّاء إصرارهم على البـاطل، ورفضهم لقبول الرسالة الإلّهية رفضاً باتاً، وتحذيراً لهم من أن ينالهم من العذاب ما نال الأمم الغابرة، إذا أصرّوا على رفض الدعوة الإلّهية ولم يستجيبوا لله وللرسول.

فعن قصة نوح عليه السلام نبه كتاب الله إلى أن نوحاً بعدما طالت إقامته بين قومه، وطال تذكيره لهم دون جدوى دعاهم إلى اتخاذ موقف صريح وحاسم تجاه الدعوة التي جاءهم بها، وأشعرهم بأنه لا ينبغي لهم الاستمرار على التردد والغموض، فإما أن يعلنوا قبول دعوته نهائياً، على أساس أن دعوته حق وصدق، وإما أن يعلنوا رفضها بالمرة، ويتحملوا جميع النتائج الناشئة عن وقوفهم في وجهها، وأخبرهم نوح عليه السلام أنه لا يتهيَّب أي موقف يتخذونه ضده، فهو متوكل على الله، معتصم بحبله، ممتثل لأمره، وأكد لهم أنه لا يرمي من وراء دعوتهم إلى الله إلى أي مَغنَم مادي أو فائدة شخصية، بل إن كل همه منحصر في هدايتهم إلى الله تعالى، وكلُّ أمله معلق على ثواب الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ﴾ أي إقامتي بين أظهركم ﴿ وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي لا تتركوا أمركم في التباس وغموض، بل افصلوا حالكم معي ﴿ثُمَّ اقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي رفضتم دعوة الله ولم تقبلوا طاعته ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أي انني لم أطلب منكم مقابل نصحي أيّ عوض من أيّ نوع كان، بل هو نصح خالص لله ولكم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾.

وقوله تعالى هنا على لسان نوح ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يؤكد الحقيقة الدينية والتاريخية الثابتة، وهي أن جميع الأنبياء والرسل قد بعثهم الله إلى عباده بنفس الدعوة،

وبنفس العقيدة، والمراد «بالدعوة» الدعوة إلى الخير، و«بالعقيدة» عقيدة التوحيد، وهذه الدعوة وهذه العقيدة تتضمنهما معاً كلمة «الإسلام» التي هي شعار دين الحق الوحيد المنزل من عند الله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَـٰمُ ﴾ [ءال عمران: ١٩]. ومصداقاً لهذه الحقيقة ها هو كتاب الله يحكي لنا على لسان نوح: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.

ويحكي لنا على لسان إبراهيم الخليل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، وَأَوْصَىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ، وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢].

ويحكي لنا على لسان يوسف: ﴿ رَبِّ قَدْ ءاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَاوِيلِ الْاَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْاَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

ويحكي لنا على لسان موسى: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس: ٨٤].

ويحكي لنا عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرِيٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيئُونَ الذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾[المائدة: ٤٤].

ويحكي لنا على لسان حواريي عيسى: ﴿ وَإِذَ اَوْحَيْتُ إِلَى الْحَـوَارِيِّينَ أَنَ ـ امِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي، قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[المائدة: ١١١].

ويحكي لنا على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين المسلم الأول في هذه الأمة: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِيَ لِلهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الانعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولعل من البديهي أن تكون عقيدة الإسلام واحدة ودعوته واحدة، رغماً عن تباعد الأيام وتطاول القرون، وتعدد الأنبياء وكثرة الرسل، ما دام منبع الإسلام الأول والأخير منبعاً وحيداً وواحداً، لا يتعدد ولا يتبدل، ألا وهو الوحي الإلٰهي الصادر عن الله تعالى الواحد الأحد، خالق الكون ومدبّر الأمر، الذي لا تبديل لكلماته، وكلماته كلها صدق وعدل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَـٰتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾[الانعام: ١١٥].

وبيَّن كتاب الله للتذكير والتحذير مصير المصِرّين على الباطل من قوم نوح، حيث أغرقهم وأبادهم بالمرة، ومصير الذين استجابوا لله ولرسوله، حيث نجّاهم مع نبيهم نوح من الغرق، فكانت نجاتهم مزدوجة: نجَّاهم من الغرق في بحر الضلال في البداية، ونجَّاهم من الغرق في بحر الوبال في النهاية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي نجَّينا نوحاً ونجَّينا من آمن به وأصبح على دينه «والمرء في ميزانه أتباعه»، ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰئِفَ ﴾ أي جعلنا الذين آمنوا بنوح مستخلفين في الأرض، بدلاً ممن كذبوه فلم يعودوا أهلاً للاستخلاف ﴿ وَأَغْرَقْنَا الذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن الحكمة في ذكر قصة نوح وما ماثلها

إنما هي استخلاص العبرة، وضرب المثل بالواقع المحسوس، فقال تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾. والخطاب هنا وإن كان مُـوَجَّهاً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليطمئن إلى وعد الله، وإلى أن الله سينجّي المومنين، وسيهلك المكذبين، هو مُـوَجَّه أيضاً إلى مشركي قريش، وإلى كل من يسلك مسلكهم في التكذيب والعناد، والغفلة عن سلوك طريق الرشاد، ليوقنوا بأن مصيرهم - إذا أصرّوا على ما هم عليه - هو الهلاك المحقق والعذاب الأليم، إذ (ما جرى على المِثْل يجري على المُماثِل).

وتحدث كتاب الله عن أفواج الرسل التي جاءت بعد نوح عليه السلام، وما جاء به أولئك الرسل إلى أقوامهم من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، إلا أن أقوامهم بادروا إلى تكذيبهم، وأصرّوا على موقفهم، ورغماً عن مرور الأيام واستمرار الدعوة دون انقطاع، فإنهم لم يتراجعوا عن موقفهم قُلامَـة ظُفْر، عنـاداً وإصراراً، وتعصباً واستكباراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِـنۢ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نوح ﴿ رُسُلًا اِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ، فَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي رفضوا أن يومنوا أخيراً بما كذبوا به أولاً، فأهلكهم الله، عقاباً لهم، وتحذيراً لمن بعدهم، ﴿ وَكَمَ اَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ [الاسراء: ١٧]. ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي وهكذا يقع للمكذبين الذين يأتون من بعـدهم، إذ يسلكون نفس السبيـل الذي سلكـه أسـلافهم من المكذِّبين الأولين، فهم في الحقيقة حزب واحد، ويجمعهم رأي واحد، هو الاِعتقاد الفاسد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة موسى مع فرعون، وهذه القصة تأتي بصفة خاصة في عدة سور من القرآن الكريم، لِحِكَمٍ إلٓهية في ذلك، ولعل من جملة هذه الْحِكَمِ تذكيرَ المسلمين باستمرار، بما مر به بنو إسرائيل من التقلبات والأطوار، وما أوقعوا فيه العالم من فساد وإباحية واستهتار، وتوجيهَ أنظار المسلمين وغيرهم، إلى وجوب الحَذَر من هذا العنصر الناقم على غيره، لما فيه من الأضرار والأخطار.

والمهم من قصة موسى مع فرعون في هذا السياق هو تعريف المسلمين بأن السر في هلاك فرعون وقومه هو ما كان عليه فرعون من كِبْرٍ واستعلاء، وما كان عليه هو وقومه من ظلم وإجرام، وما حاولوه من إخفاء الحق عن طريق السحر والشعوذة، مما جعلهم في عداد الهالكين الخاسرين، وأبقى قصتهم عبرة للأولين والآخرين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ بِـَٔايَـٰتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ، فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ، قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا ﴾؟. كما يشير إلى نفس المعنى قوله تعالى في نفس هذا الربع: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

وبيَّن كتاب الله ما أدلى به فرعون وقومه من الأعذار المنتحلة، والمبررات المفتعلة، لرفض الدعو الإلٓهية، وهذه الأعذار والمبررات تتلخص في أن الدعوة التي جاء بها موسى من عند الله إنما ترمي إلى قلب نظام الدولة، والاستيلاء على مقاليد

الحكم في مصر الفرعونية، وإذن فهي دعوة تدمير وتخريب، لا تستحق سوى الرفض والمقاومة، ولا يستحق أصحابها سوى الاضطهاد والتعذيب، وهذا الموقف الفرعوني هو نفس الموقف الذي يقفه الطغاة المتفرعنون، تجاه جميع الدعوات الصالحة في كل جيل. وكم رأينا لهذا الموقف في العصر الذي نعيش فيه من مثيل، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عن فرعون وملائه: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ أي لتصرفنا عن معتقداتنا ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لتكون لكما الرياسة والسلطان في هذا البلد ـ والخطاب هنا لموسى وهارون ـ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ ﴾ أي لن نصدق دعوتكما أبداً.

ولا بد من التنبيه في هذا السياق إلى معنى من أهم المعاني الواردة في هذا الربع، وهذا المعنى هو أن الساحرين لا يفلحون، وأن المفسدين لا يُصلِحون، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾، فالساحر المأجور الذي يباشر عملية السحر، والساحر الذي يستأجره على ذلك للاستعانة بسحره على بلوغ غرض من أغراضه السافلة كلاهما محكوم عليه مُسْبَقاً من الله تعالى بالخيبة والخسران، ديناً ودنياً، عاجلاً أو آجلاً: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩]. والمفسد الذي يتظاهر بالإصلاح، أو يدَّعي أن الفساد هو عين الصلاح، لا يستقيم له من الأمر شيء، بل لا بد أن ينقلب به

الحال من سيء إلى أسوأ، اللَّهمَّ إلا إذا عاد إلى طريق الصلاح الحقيقي، فيصلح الله عمله، ويحقق أمله ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

وخُتم هذا الربع بوصف الحالة التي آل إليها فرعون عند الغرق حتى تظل ماثلة في الأذهان، وعبرة لبني الإنسان، فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓاْ إِسْرَآءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ءَالْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي لا تذهب بعد غرقك مع التيار وتأكلك الحيتان، وإنما تبقى جثتك حجة ناطقة عليك لمن يأتي بعدك في مستقبل الزمان.

والراجح أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة، الذي لا تزال جثته محفوظة حتى الآن، وهي معروضة في متحف الآثار بالقاهرة يشاهدها الزائرون ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنَ ـ ايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين
في المصحف الكريم

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِےٓ
إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ اَلطَّيِّبَٰتِ فَمَا اَخْتَلَفُواْ
حَتَّيٰ جَآءَهُمُ اُلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِے بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِے شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
فَسْـَٔلِ اِلذِينَ يَقْرَءُونَ اَلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ
اَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ اَلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ اَلذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اِللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ اَلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾
إِنَّ اَلذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَٰتُ رَبِّكَ لَا يُومِنُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّيٰ يَرَوُاْ اُلْعَذَابَ اَلَالِيمَ ﴿٩٧﴾
فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ـ امَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ اَلْخِزْيِ فِے اِلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَٰهُمُۥٓ إِلَيٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِے اِلَارْضِ

كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾
وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ
يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ
فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا
لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا
رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ

مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

١١ سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّةٌ وَءَايَاتُهَا ١٢٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ
إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة يونس المكية: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيَ إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ، فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة هود المكية أيضاً ﴿ أَلَآ إِنَّهُم يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّـهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

عند تحليل أغلب الآيات الكريمة الواردة في هذا الربع ضِمْن القسم الأخير من سورة يونس المكية نجدها دائرة حول موضوع واحد هو موضوع الإيمان، وما يعترض طريقَه من شك وتردد، وتعصب وجهل، وغفلة واستهتار، ونجد كتاب الله يوجه الخطاب إلى كل إنسان يشك في صدق الرسالة الإلّهية، الموكول تبليغُها إلى خاتم النبيئين والمرسلين، يدعوه إلى استفسار أهل العلم المطَّلعين على تاريخ الرسالات السابقة، فإنه إذا اطَّلع على تاريخها ومضمونها لم يجد أدنى صعوبـة في تصديق «الرسالة

الخاتمة» التي ختم الله بها جميع الرسالات، بل إنه ليقتنع بأنها لب اللباب من الرسالات كلها، وبأنها آخر مرحلة وأعلى قِمة انتهى إليها الوحي الإلهي، لهداية البشرية في سيرها الحاضر والمستقبل، نحو الرقي الحقيقي، والتطور الشامل، والسعادة الكاملة.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي إن كنت أيها الإنسان لا تزال في شك مما أنزلنا من القرآن لهدايتك وإرشادك ﴿ فَسْئَلِ الذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ، لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي الشاكين، من «الامتراء» وهو الشك ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَـٰسِرِينَ ﴾.

فالخطاب في هذه الآية ليس موجهاً إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، ولو على وجه الفرض والتقدير، إذْ لَا يُتصور في حق الرسول أي شك أو امتراء أو تكذيب، ولذلك لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لا أشُكُّ ولا أسأل» كما روى ذلك قتادة بن دعامة، أي أنه عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت هذا الخطاب مطلقاً، وإنما الخطاب موجَّه إلى من يُتصوَّر فيه الشك والامتراء والتكذيب، من المشركين والمنافقين وضعفاء الإيمان، وموجَّه كذلك إلى عامة اليهود والنصارى من أهل الكتاب الذين يجد أحبارهم ورهبانهم وصف الرسالة والرسول مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل.

وهؤلاء إمَّا أن يكون شكُّهم تلقائياً صادراً عن مجرد الجهل،

فهم مدعوُّون بهذا الخطاب إلى سؤال أهل العلم واستفسارهم، حتى يزول شكهم، على حد قوله تعالى في آية أخرى ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وبذلك يرتفع شكهم، ويتأكد إيمانهم.

وإمَّا أن يكون شكهم صادراً عن تعمد الإنكار والإصرار، فيكون الخطاب موجهاً إليهم على وجه الزجر والتقريع، لأنهم يجادلون في أمر ثابت لا محل فيه للجدل والمراوغة ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩].

وقوله تعالى في هذا السياق ﴿إِنَّ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُومِنُونَ، وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ليس المراد منه أن الله سبحانه وتعالى يحول بين فريق من الناس وبين الإيمان، فالله تعالى قد هدَى الإنسان النجدَيْن، وعرَّفه طريق الخير من طريق الشر، ومكَّنه من جميع الوسائل لتمييز الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وأعطاه من القدرة والإرادة ما يستطيع بواسطتهما أن يُرجِّح كفة على أخرى، وأن يختار الطريق الذي يريد سلوكه، وأن يفضِّل من الأعمال والتصرفات ما يرغب في تفضيله، وذلك هو محور التكليف، ومناط الثواب والعقاب.

وإنما المراد بهذه الآية وما ماثلها أن هناك طائفة من الناس قد رَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم ينفع فيهم ترغيب ولا ترهيب، واختاروا عن عمد وإصرار طريق الهلاك والبوار، فلم يبقَ

في قلوبهم ـ بعدما خيَّم عليها الظلام ـ أيّ منفذ للنـور، وأصبحت الموعظة بالنسبة إليهم كالضرب في حديد بارد لا أثر لها ولا نفع، فهؤلاء ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ لأنهم يكذِّبون بالآيات جميعها، ويسْخَرون منها كلها، وإنما يومنون في حالة واحدة وعن اضطرار، لا عن اقتناع، وذلـك عندمـا يرون عـذاب الله نازلاً بساحتهم، وهو منهم قابَ قوسين أو أدنى، فهم لا يومنون ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾. غير أن هذا النوع من الإيمان الاِضطراري في آخر لحظة لا ينفع أصحابـه، ومثلُه التوبـة عند الاحتضـار وغرغرة الموت لا تنفع صاحبها، كما لم ينفع فرعونَ إيمانُه عندما أدركه الغرق: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

ومضى كتاب الله في نفس السياق يتحدث عن الأمم الغابرة التي كذَّبت بآيات الله، فأخذها الله أخذاً وبيلاً، ولم ينفعها إيمانها الاِضطراري في آخر لحظة، عند نزول العقاب، وحلول العذاب، اللّهم إلا قوم يونس، فـإنهم ـ بمجرد مـا فقدوا نبيهم ـ إذ ذهب مغاضباً لهم ـ أحسُّوا بأن عذاب الله قد أخذ يقترب من ساحتهم، فبادروا بالتوبة إلى الله توبة نصوحاً، بصدق وندم، قبل أن يدركهم العذاب، والتجأوا إلى الله أربعين ليلة يرتجون عفوه، ويسألون لطفه، خاشعين مُهطِعين، فلم يصبهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم يونس من قبل، لأنهم تداركوا أمره بالتوبة دون تأخير، وما كاد يونس يعود إليهم حتى وجدهم قد تابوا وآمنوا ﴿ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٨] وذلك قوله تعالى في هذا الربع ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ـ امَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ ﴾ أي

لما آمنوا في الوقت المناسب قبل نزول العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا﴾ أي حلنا بينهم وبين العذاب، بسبب إيمانهم وتوبتهم قبل حلول العذاب، وذلك على خلاف ما فعله غيرهم، حيث لم يومنوا إلا عند حلول العذاب لا قبله، فلم ينفعهم إيمانهم في اللحظة الأخيرة، لأنه إيمان مطعون فيه صادر عن اضطرار وإجبار، لا عن اقتناع واختيار ﴿وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي متّعنا قوم يونس إلى حين انتهاء آجالهم.

وبهذا التفسير يتضح أن الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ قَوْمَ يُونُسَ﴾ هو من باب الاستثناء المنقطع بمعنى: (ولكن قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم العذاب).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ معناه أن الله تعالى لو أراد لحمل الناس على الإيمان واضطرهم إليه غاية الاضطرار، ولم يترك لهم في شأنه أي اختيار، ولجعل الإنسان كباقي الحيوانات العجماء مسوقاً من ورائه بسوط القهر والإجبار، وحينئذ يصبح الإنسان مجبراً على الطاعة، مكرهاً على الإيمان، فاقداً لأخص خصائص الإنسان، لكن الله تعالى أراد أن يخلق الإنسان على خلاف غيره من الحيوانات، فخلقه حراً مختاراً، وأعطاه من الأجهزة والملكات الخاصة به ما يمكّنه من النظر والاختيار، ولا ينزل به إلى مستوى القهر والاضطرار، حتى يكون له في نظره الخاص ميزة، وفي اختياره الخاص فضل، وحتى يكون للتكليف والمسؤولية أساس مفهوم، ومبرر معقول، ومن أجل هذه الملَكة الإنسانية ـ ملكة التقدير

الشخصي والاختيار الحر، التي ميَّز الله بها الإنسان عن باقي الحيوان ـ اختار بعض الناس الإيمان دون الكفر، واختار بعضهم العكس، ومن أجل ذلك كان جزاء حسن الاختيار الثواب العظيم، وجزاء سوء الاختيار العذاب الأليم.

وبهذا التفسير يتضح أيضاً معنى قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨] وذلك لاختلاف أفكارهم، وحسن أو سوء اختيارهم.

وقولُه تعالى: ﴿ اَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾ خطاب من الله إلى رسوله، القصدُ منه تهدئة رُوعِه وطُمَأْنِينَةُ نفسه، فقد كان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، إلى حَدٍّ أنه كان يحزن أشد الحزن إذا لم تنفع في بعضهم الموعظة الحسنة، ولم تؤثر فيهم الحجة البالغة ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣].

وليس المراد أن رسول الله ﷺ كان يحاول فعلاً إكراه غير المومنين على الإيمان، فهو أعلم الناس عن ربه بأنه ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

نعم في هذه الآية تلقين من الله لعباده المومنين أن يبيِّنوا للناس ما نزِّل إليهم، ويمكِّنوهم من وسائل الإيمان حتى تقوم الحجة عليهم، ثم يتركوا لهم بعد ذلك الخيار، فإن أرادوا الإيمان أقبلوا عليه عن طواعية واختيار.

وتأكيداً لهذا المعنى وتركيزاً له في الأذهان قال تعالى مخاطباً لرسوله الأعظم ﷺ ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فهو من جهة أولى يمتنع من أن يعبد آلهة لا يومن بوجودها، فضلاً عن أن يومن بأحقيتها للعبادة، وهو من جهة ثانية لا يترك دينه الذي وثق به كل الثقة واطمأن إليه كل الاطمئنان، من أجل أن الآخرين لا يزالون يشكُّون في صحته، فشكُّ الشاك لا يبطل إيمان المومن ولا يؤثر عليه، لكنه من جهة ثالثة لم يَفرِض على الشاكين أن يومنوا بدينه قهراً وجبراً، وإنما لفت أنظارهم إلى أن الله الذي يعبده هو وحده الذي بيده أرواحهم، وهو الذي يتوفاهم متى شاء ﴿ وَلَكِنَ اَعْبُدُ اللَّهَ الذِي يَتَوَفَّيكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ ﴾.

وزيادة في تأكيد مبدأ حرية الإعتقاد، وضمان هذه الحرية، بعد القيام بواجب الدعوة، وعِلاوة على مضمون الآيات السابقة، وجَّه الحق سبحانه وتعالى في ختام هذه السورة ـ سورة يونس المكية ـ خطابه إلى نبيه ملقِّناً ومعلماً له ولأمته ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾.

ويتفق مع هذا المعنى قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ فَذَكِّرِ اِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ وعد سابق من الله لرسوله وهو لا يزال بمكة يكافح الشرك والمشركين، بما سيناله دينه من الظهور على بقية الأديان، وبما سيناله أتْباعه من نصر مؤزر وفتح قريب في مختلف الأقطار والبلدان. وقد حقق الله وعده، وهزم الأحزاب وحده، ومكَّن من مقاليد العالم جنده ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

غير أن هذا الوعد الإلٓهي في أصله مشروط بثلاثة شروط:

الشرط الأول: اتباع الوحي الإلٓهي، وعدم التنكب عن طريقه أو الخروج عن هدايته ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾.

والشرط الثاني: الصبر على تحمل متاعب الأمانة الإلٓهية والقيام بتكاليفها وأعبائها الثقيلة، عن وعي ويقظة، ودون هوادة ولا تهاون ﴿ وَاصْبِرْ ﴾.

والشرط الثالث: التأهب لاغتنام الفرصة المواتية ،وعدم تضييعها متى حان أوان انتهازها ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

فلكل غلَّة موسمُها، ولكل معركة موعدُها، وإذا عاد المسلمون إلى الله بعدما فرّوا منه في هذا العصر، والتزموا بتنفيذ شروطه التي اشترطها عليهم دون أي إهمال أو إخلال، بدَّلهم الله حالاً أحسن من هذا الحال، وعاد إليهم بالنصر والتأييد، والتوفيق والتسديد، وما ذلك على قدرته ببعيد.

الربع الأول من الحزب الثالث والعشرين
في المصحف الكريم

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن
بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا
يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا
رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ
ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ

صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ
كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ
صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ
مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾
أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ
وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ
فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا
نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ
فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن
رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ
ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ
ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ

عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ
رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾
أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ
ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ
هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

الربع الأول من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الـربع الأول من الحـزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّـةٍ فِي الْاَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَـا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَـرَّهَـا وَمُسْتَـوْدَعَهَا ﴾ إلى قـوله تعـالى: ﴿ إِنَّ الـذِينَ ءَامَنُـواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمُ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بعون الله وتوفيقه سورة يونس المكية، التي تليها في ترتيب المصحف الكريم سورة هود المكية أيضاً. و«سورة هود» أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من الآيـات الكريمة التي وردت أثناءها في الحديث عن هود عليه السلام وقومه عاد، كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ اَخَاهُمْ هُوداً، قَالَ يَـٰقَوْمِ اِعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الآية: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ ﴾ [الآية: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ اَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِـرَحْمَةٍ مِّنَّـا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ

غَلِيظٍ ﴾ [الآية: ٥٨]. وقوله تعالى: ﴿ أَلَا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [الآية: ٦٠].

وفي هذه السورة الكريمة قال رسول الله ﷺ: «شيَّبتني هود وأخواتها» جواباً لأبي بكر الصديق عندما قال له: «يا رسول الله قد شبت» كما روى ذلك الترمذي في سننه، وأخواتها هي: سورة الواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت، كما ورد في رواية أخرى عند الترمذي.

وسورة هود لها شبه كبير بسورة يونس قبلها، وتستغرق أخبارُ الأنبياء السابقين وقصصهم مع أقوامهم أكبرَ قسم من هذه السورة، فبالإضافة إلى قصة هود مع قومه تتناول سورةُ هود جوانب جديدة من قصص نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى.

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المقام أن كتاب الله لا يتناول الموضوع الواحد، ولا سيما قِصص الأنبياء، عدة مرات لمجرد التكرار، بل إن عودته ما بين الحين والحين إلى تناول تلك القصص تتضمن عرض جانب جديد من جوانبها لم يسبق عرضه من قبل، مما يتناسب مع السياق والموضوع الجديد الذي وردت فيه القصة.

قال أبو القاسم ابن جزى صاحب «القوانين الفقهية» في كتابه (التسهيل لعلوم التنزيل): «فإن قيل ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن، فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه ربما ذَكَرَ في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يَذْكُره

في سورة أخرى، ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى.

الثاني: أنه ذُكِرَتْ أخبارُ الأنبياء في مواضع على طريقة الأطناب، وفي مواضع على طريقة الايجاز، لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين.

الثالث: أن أخبار الأنبياء قُصِد بذكرها مقاصد، فتعددَ ذكرُها بتعدد تلك المقاصد، فلما كانت أخبار الأنبياء تفيد فوائد كثيرة ذكرت في مواضع كثيرة، ولكل مقام مقال» انتهى.

وفي مطلع سورة هود يبتدىء الحديث بالتنويه بكتاب الله، وما تتضمنه آياته من حِكْمة وإحكام، ﴿ أَلَر، كِتَـٰبٌ احْكِمَتْ ـ ايَـٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾، كما اختتم الحديث في سورة يونس قبلها بوجوب اتّباع كتاب الله، والثبات على تبليغه، والصبر على تحمُّل تَبِعاته ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ ﴾.

وبيَّن كتاب الله الاختصاص الأساسي والجوهري لمنصب الرسالة، وأنه ينحصر في النِّذارة والبِشارة ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ ودعا المومنين إذا أرادوا أن يمتِّعهم الله متاعاً حسناً بالنعم والأرزاق والخيرات، وأن يُحييهم حياة طيبة، إلى استغفار ربهم، والتوبة إلى الله من ذنوبهم، بالندم عليها ندماً صادقاً، والإقلاع عنها إقـلاعاً تاماً، حتى يفتح الله في وجوههم طريق العمل الصالح، ويعينهم على سلوكه بنجاح في جميع مجالات الحياة، وذلك قوله

تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمّىً ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى أنَّ من زاد في الإحسان زيد له في الثواب بقدر ما زاد من الحسنات والأعمال الصالحة، فقال تعالى: ﴿ وَيُؤتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ وكما يصدق هذا على الثواب في الآخرة يصدق على الجزاء في الدنيا.

وأنذر كتاب الله على لسان رسوله كافة المخالفين، والعصاة المتعنتين، فالتفت إلى خطابهم قائلاً: ﴿ وَإِن تَوَلَّواْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وأكد كتاب الله أن كل محاولة يحاولها الإنسان للاستخفاء والتستر عن الله، بالنسبة إلى أيّ عمل من الأعمال، ولا سيما عمل السيئات والفواحش، إنما هي محاولة فاشلة، لأن عِلْمَ الله يستوعب السر والعلن، وعينَ الله تراقب ما ظهر وما بطن، فلا ثَنْيُ الصدور، ولا سِتار الأغطية، ولا أيُّ وضع من الأوضاع التي يختفي بها الناس عن الناس لها أدنى فائدة بالنسبة لعالِم الغيب والشهادة، اللطيف الخبير ﴿ أَلَآ إِنَّهُم يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي يجعلونها أغشية وأغطية ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وتعهد كتاب الله بأنه ما من كائن حيّ يتوالد في الأرض، صغر شأنه أو كبر، إلا وقد تكفَّل الله برزقه، فهيَّأ له إما في البر

وإما في البحر ما يقتات به من المنتوجات والثمرات على اختلاف الأجناس والأنواع والأصناف، مما هو صالح ومناسب لحياة كل نوع من أنواع الأحياء، حشرةً كان أو حيواناً أو إنساناً، وما على المسترزق إلا أن يبحث عن رزقه، ويسلك الطريق المؤدي إلى العثور عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْاَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾. قال أبو القاسم ابن جزى: «فإن قيل كيف قال ـ على الله ـ بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل، لأن الله لا يجب عليه شيء؟ فالجواب: أنه ذكره كذلك تأكيداً في الضمان، لأنه لما وعد به صار واقعاً لا محالة، إذ أنه لا يُخلف الميعاد». ولا يقولنَّ أحد: إن الله قد تكفل برزقي فلأترك تناول الأسباب، ولأنتظر من يَطرق الباب، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال عمر بن الخطاب.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إشارة إلى أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه يعلم على العموم والخصوص، وعلى الجملة والتفصيل، في أي أرض تعيش الأحياء وفي أي أرض تموت، زرافاتٍ ووِحدانا، وبأوسع من هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَّرَقَةٍ اِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـٰتِ الْاَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ اِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الانعام: ٥٩].

والمراد «بالكتاب المبين» في هاتين الآيتين هو نفس المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْاَرْضِ وَلَا طَـٰئِرٍ يَطِيرُ

بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم، مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الانعام: ٣٨] أي كتابٌ خاصّ محفوظ عند الله، فيه بيان مفصل عن شؤون الخليقة من بدايتها إلى نهايتها.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِيَبْلُوَكُمُ أَيُّكُمُ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ المتعلّق من جهة الإعراب بفعل ـ خَلَقَ ـ الواردِ في قوله تعالى قبله ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ ﴾ تنبيهٌ من الله لعباده إلى أن الحكمة في التفضل بخلقهم والتكفل برزقهم إنما هي اختبار أحوالهم، وإبراز آثارهم، والكشف عن اختياراتهم، لتقوم الحجة عليهم، فالدنيا إنما خلقها الله لتكون حَلْبة سباق وتنافس بين الناس في العمل الصالح، الذي ينشأ عنه صلاح البشرية وسعادتها، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمُ أَيُّكُمُ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الملك: ٢].

و (العمل الأحسن) المعبَّر به في هاتين الآيتين هو نفس المعنى المراد من «العبادة» التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذّاريات: ٥٦]. فكل عمل صالح هو عبادة لله وامتثال لأمره، من جهة، وكل عبادة هي في حد ذاتها عمل صالح، من جهة أخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

وقوله تعالى في هذا الربع ﴿ وَلَئِنَ اَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾. المراد بالأمة هنا الأمد والأجل، أي إن أخَّرنا عنهم العذاب إلى وقت محدود تساءلوا ما الذي يحبِس ذلك العذاب، وبنفس هذا المعنى استُعمِل لفظ «أمة» في

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] أي استذكر بعد مدة.

ولإتمام الفائدة في هذا المقام ينبغي التنبيه إلى أن لفظ (أمة) في كتاب الله يستعمل أيضاً بمعنى «الإمام المقتدى به» كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠]، وبمعنى «الفرقة والطائفة» كما في قوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ [ءال عمران: ١١٣] وبمعنى «الجماعة» كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص: ٢٣]، وبمعنى «الملة» كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وبمعنى «أمة الإجابة المصدقة للرسالة» كما في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [ءال عمران: ١١٠] وبمعنى «أمة الدعوة» الشاملة لكل من بُعِث إليه الرسول ممن آمنوا أو بقوا على الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٤٧].

وتناول كتاب الله بالوصف والتحليل نفسية الأشخاص القلقين، من ضعفاء الإيمان وضعفاء النفس، في حالتي الشدة والرخاء، مبيِّناً أن هذا الرهط من الناس إذا أصابته شدة بعد الرخاء لا يلبث أن تنهار أعصابه، ويبلغ به اليأس والقنوط من رحمة الله إلى أقصى حد، حتى كأنه لم ينل في سابق حياته من ربه أيَّ عطاء أو احسان، فهو عاجز كل العجز عن تحمل

الصدمات، ضعيف كل الضعف عن مواجهة الأزمات، وكلما طال به أمد الشدة تضاءل أمام نفسه وأمام الناس، فيصبح قَزَماً بعدما كان عِملاقاً، ويعود حَماماً وديعاً بعدما كان سبُعاً ضارياً، كما أنه إذا أصابه رخاء بعد الشدة عاجله البَطَر بالنعمة، وأصابه نوع من الإغماء والذهول من شدة الفرح الزائد عن الحد المعتاد، فلم يعد يضبط نفسه ولا عواطفه، واعتقد أن الرخاء الذي نزل بساحته سوف لا يفارقه إلى الأبد، فأمن مكر الله، ونسي نعمة الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّيَ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أي شديد الفرح والغرور بنفسه، كثير الفخر والتطاول على غيره.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ المراد به استثناء الصنف المومن بالله المتمسك بالإيمان والصبر، من هذا الحكم العام، وهو استثناء متصل، من جنس الإنسان، ذلك أن إيمان المومن بقضاء الله، وصبرَه على ضيق الشدة، وعلى سعة الرخاء ـ وكلاهما يحتاج إلى صبر ـ كلها أدوية فعالة تجعل المومن الصابر في حَصانة ومَناعة، من أن يصبح في وقت الشدة يؤوساً كفوراً، وفي وقت الرخاء فرِحاً فخوراً. وبذلك استحق هذا الصنف المومن رضا الله وثوابه الجزيل، فقال تعالى في شأنه ﴿ أُوْلَـٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

ونبَّه الحق سبحانه وتعالى إلى أنه إذا اختار فريق من الناس

ـ عن عمد واصرار ـ مجرد العمل لدنياهم وحدها، وأعـدُّوا العدة المناسبة لاجتياز مرحلة حياتهم المادية الصرفة، دون أن يهتموا بالعمل لآخرتهم كما يعملون لدنياهم، فإن الله تعالى يستدرجهم ويمهلهم في الدنيا، لكنه يُلغي كل مـا عملوه في الدنيـا عند حسابهم في الآخرة، وذلك قوله تعالِى هنا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَـوٰةَ الدُّنْيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمُ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ، أُوْلَـٰئِكَ الذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الاَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾، والضمير هنا يعود على الآخرة، ﴿ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي في الدنيا.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «هذه الآية عامة في كل من ينوِي غير الله بعمله، كان معه أصل الإيمان أو لم يكن. وفي الحديث القدسي: «إني لا أقبل عملاً أُشْرَكُ فيه مَعَ غيري، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك».

وبنفس المعنى ورد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الاَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُوتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الاَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠] وقولُه تعالى في آية ثالثة: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَـا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَيْـهَـا مَـذْمُـومـاً مَّـدْحُـوراً ﴾ [الاسراء: ١٨].

ولا يستغربن المومن ما قد يرى عليه بعض الدول والأفراد، رغماً عن ماديتهم وكفرهم، من القوة المادية والرفاهية الظاهرة في

العيش، بعدما كشف الله في كتابه عن هذه الحقيقة الحجاب، ورفع عنها النقاب، فذلك كله مندرج تحت هذا الباب: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّـٰلِمِينَ، الذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ، أُوْلَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ - ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي لا بد ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾.

وعلى العكس من ذلك المومنون الذين عملوا لدنياهم كما عملوا لآخرتهم، فأعطوا للمادة حظها، وللروح حقها، ونفخوا في أعمالهم روح النية الصالحة فكانت أعمالهم لوجه الله ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي وهم خاشعون ﴿ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيَ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا
نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمُۥٓ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا
نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمُۥٓ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ
عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمُۥٓ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ

قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ
وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ
تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ
أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا
فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ
إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾
وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ
مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالاَعْمىٰ وَالاَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، هَلْ يَسْتَوِيَـٰنِ مَثَلاً، اَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ اَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنَ ـ امَنَ، وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾.

في بداية هذا الربع ضرب كتاب الله المثل لفريق الذين كفروا وعملوا السيئات، ولفريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فأما الفريق الأول فهو كالأعمى بالنسبة للبصير، وكالأصم بالنسبة للسميع، وذلك لأنه لا ينتفع ببصره وسمعه الانتفاع المطلوب، فكأنه فاقد لهما بالمرة، إذ يسمع كلام الله ولا يتأثر به، ويرى صنع الله ولا يتأمل فيه.

وأما الفريق الثاني فهو سميع بصير، لأنه ينتفع بحاستي السمع والبصر انتفاعاً تاماً، ويستعملهما استعمالاً لائقاً، السمع: في سماع الدعوة إلى الحق، والبصر: في مشاهدة بدائع الخلق،

وذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالاَعْمىٰ وَالاَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَـنِ مَثَلاً، اَفَلَا تَذَّكَّرُونَ ﴾.

ويحكي كتاب الله قصة نوح عليه السلام مع قومه، وأنه لم يتهاون في إنذارهم، وبيان الحق والحقيقة لهم، فدعاهم إلى الإيمان بالله وعبادته دون غيره، وإلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَىٰ قَوْمِهِ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، اَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اللَّهَ، إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ اَلِيمٍ ﴾.

وسجَّل كتاب الله أجوبة كبار قوم نوح المتعنتين المتكبرين، وهذه الأجوبة تتلخص في أنه لا شيء يبرِّر في نظرهم أن يكون نوح بالخصوص رسولاً إليهم من عند الله، فهو في نظرهم بَشَر مثلهم، لا يمتاز عنهم بأي شيء، وإلَّا فيجب أن يكونوا جميعاً رسلاً مثله بحكم «قياس الشَّبَه»، أو يجب أن يكون الرسول من غيرهم جميعاً بما فيهم نوح عليه السلام، كأن يكون الرسول ملَكاً لا بشراً. ثم إن الذين اتَّبعوه في نظرهم لا قيمة لهم في المجتمع، فهم ليسوا من طبقة الملأ وكبار القوم، بل هم من ضعفاء الناس.

يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الضعفاء الذين اتَّبعوه لم تكن عندهم ـ فيما زعم كبار قوم نوح ـ قدرةٌ على التروّي والبحث في الدعوة التي دعاهم نوح إليها، بل أقبلوا عليها دون بحث ولا تحقيق، واتَّبعوها بمجرد سماعها دون تأمل ولا تمحيص، وإذن فهم مخدوعون مغرورون. وهذه المعاني التي تضمنتها أجوبة كبار

قوم نوح هي التي يشير إليها قوله تعالى هنا: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ، مَا نَرِيٰكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرِيٰكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا، بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي واتبعوك دون بحث ولا نظر، بل لأول وهلة ﴿وَمَا نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي لا ميزة تميِّزكم علينا بسبب الدين الذي اعتنقتموه، فأنتم لا زلتم كما كنتم لا تَفضُلوننا بشيء ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ أي نعتقدكم كاذبين، والظن هنا بمعنى اليقين.

وحكى كتاب الله ما ردَّ به نوح على قومه، وأنه إذا عَمِيت عليهم حجة الله التي آتاه الله إياها، ولم يقْدُروا رحمة الله التي أرسله بها، فإنه لا يستطيع إكراههم عليها وإلزامهم باتِّباعها، إذ المبدأ العام الذي ألزم الله باتباعه جميع الأنبياء والمرسلين، هو أنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وذلك ما يصرح به قوله تعالى هنا حكاية عن نوح مجيباً لقومه: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَيـٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ﴾؟.

وواصل كتاب الله حكاية قصة نوح، فذكر ما رد به على استِهْزَاء كبار قومه، الذين استهزأوا بأتباعه، وعيَّروهم بضعف الحال وقلة ذات اليد. وما دام الأمر في شأن الدعوة ليس أمر قوي وضعيف، وغني وفقير، وشريف ومشروف، وإنما هو أمر عقيدة واقتناع وإيمان، فإن من عرف الحق وتجلَّى له واضحاً أقبل عليه واعتنقه، ومن عميَ عنه أو تعامى استمر على الباطل والضلال ـ وهذا هو عين ما وقع لضعفاء قوم نوح، حيث رأوا

دعوته جلية واضحة كفَلَق الصبح، فأسرعوا إلى الإيمان به وأصبحوا من جلسائه وصحبه ـ فلن يحتقرهم نوح كما يريد كبار قومه أن يكون، إذ هم أهل للتوقير لا للتحقير، ولن يطردهم نوح من مجلسه كما لوَّح إلى ذلك كبار قومه المتكبرون، إذ هم أهل للتقريب لا للإبعاد، بعدما آمنوا برب العباد، وعقَّب نوح على ادعاءات كبار قومه السخيفة بما يَدمَغهم «بالجهل» المنافي للعلم والمعرفة، و «بالجهالة» المنافية للمروءة وحسن الأدب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذِينَ ءَامَنُوٓاْ، إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ، وَلَـٰكِنِّيَ أُرَيٰكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ، وَيَـٰقَوْمِ مَنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ، أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ﴾ ـ ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُّوتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمُ، إِنِّيَ إِذاً﴾ أي لو طردتهم واحتقرتهم ﴿لَّمِنَ الظَّـٰلِمِينَ﴾.

وفي هذا السياق نبه كتاب الله إلى أن نوحاً حاول بكل الوسائل أن يزيل من أذهان كبار قومه ما تخيلوه، من أن غرضه من الدعوة التي يقوم بها غرض مادي صرف، وذلك ما حكاه عنه كتاب الله إذ قال لقومه: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً، اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

والملاحَظ أن مثل هذه القولة تتكرر في قصة كل نبي أو رسول، إما لأن أعداء الرسل يظنون أن في إمكانهم شراء كل الضمائر بثمن بَخْس، حتى يتنازل الرسل عن دعواتهم، وينصرفوا لحال سبيلهم، وإما لأن أعداء الرسل ينظرون إلى ما يكون عليه

الرسل غالباً من الفقر والخصاصة والزهد، فيظنون بهم الظنون، ويخيَّل إليهم أنهم طلاب مال وغنى، وعشاق رفاهية ونفوذ، ولذلك يضطر الأنبياء والرسل إلى الرد على المترفين من قومهم بمثل هذا الرد القاطع الصريح، حفظاً للدعوة من تسرب الأعداء إليها، وقطعاً لكل أمل في قطع الطريق عليها.

ومما رد به نوح على كبار قومه حيث اعتبروه غير أهل للرسالة، لكونه بشراً مثلهم، أنه برغم بشريته مرسل إليهم من عند الله، فهو (بشر رسول)، لأن الرسالة لا تتنافى مع البشرية مطلقاً، بل هي تشريف لها، وتكريم للمنتمين إليها، وهي أعلى درجة يمنحها الله للبشر. ونفَى لهم نفياً قاطعاً أن يكون ملَكاً، أو أن يشارك الله في علم الغيب، فعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، كما نفى نفياً باتاً أن يتصرف في مُلْك الله وخزائنه الواسعة تصرفاً خاصاً، لا من قريب ولا من بعيد، لأن المتصرف في خزائن الكون هو الله وحده لا شريك له، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾. وبهذه الردود الصريحة الواضحة اتضحت طبيعة الرسالة على حقيقتها منذ أقدم العهود، واتضحت خصائصها دون مبالغة ولا غلو ولا إغراق في الخيال، وإذا كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يتبرأون من علم الغيب، ومن التصرف في الكون، ويفردون الله بهما دون سواه، فأولى بغيرهم من بقية الناس أن لا يَدَّعوا ذلك لأنفسهم، وأن لا يُدَّعَى لهم.

ولما ضاق كبار قوم نوح ذَرْعاً بدعوة نوح، ورده المفحِم، وجداله القوي، أخذوا يتحدَّونه ويطالبونه بتعجيل ما أنذرهم به من عذاب الله، كدليل محسوس على صدقه في دعوته إن كان صادقاً، فأجابهم بأن أمر ذلك موكول إلى الله يأتي بهِ إن شاء ومتى شاء، مبيِّناً لهم في نفس الوقت أنهم ما داموا قد أقفلوا جميع منافذ النور الإلَهي إلى قلوبهم لم تبقَ فائدة في نصحهم، ولا أمل في إيمانهم، وذلك قوله تعالى حكاية عن كبار قوم نوح: ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِـدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا يَاتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ، وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيَ إِنَ اَرَدتُّ أَنَ اَنصَحَ لَكُمُ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُّغْوِيَكُمْ ﴾ أي إن لم تنتفعوا بما وهبكم الله من وسائل الفهم وطرق الهداية: ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وتحدث كتاب الله عن المرحلة الأخيرة من حياة نوح مع قومه، وأن الله أوحَى إليه أنه لن يومن من قومه إلا من قد آمن. فلا أمل في إيمان الباقين، وأنه سيعذب كفار قومه بالغرق، ويسلط عليهم الطوفان، وأن عليه أن يصنع سفينةً ينجو فيها بنفسه وأهله، وبمن آمن معه، وكان عددهم قليلاً. وأمر الله نوحاً أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين ذكراً وأنثى، وتقول الأخبار: أنه حمل في سفينته نماذج من الحيوانات والحشرات والنباتات، وظن نوح أن ابنه داخل في عداد أهله، فنزل عليه الوحي باستثنائه منهم لكفره، إذ بقي مصرّاً على دين قومه، مثل أمه، فلم ينفع امرأةَ نوح كونُ الرسولِ زوجاً لها، ولم ينفع ابنَ نوح كونُه

ابناً للرسول، إذ ﴿ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ـ امَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ، وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي بمرأى منا وبإرشادنا ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ ـ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ أمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ ﴾ أي فُتِحت أبوابُ السماء بالأمطار الطوفانية، وفُجِّرت طبقات الأرض بالعيون الجارية، كما فسر ذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَبَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقى الْمَآءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١١، ١٢] والاستثناء هنا لابنه وامرأته اللذين عاقبهما الله بالغرق، جزاء إصرارهما على الكفر ﴿ وَمَنَ ـ امَنَ ﴾ أي احمل معك من آمن من قومك، ثم عقب كتاب الله على ذلك فقال: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى عن أصحاب الميمنة ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾[الواقعة: ١٣، ١٤].

الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا
بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾
وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى
وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى
مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا
تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ
وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ
مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا
قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ
عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ
أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ
مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ
بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾
إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ
ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن

دَآبَّةٍ اِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۖ إِنَّ رَبِّے عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖۖ ٥٦
فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدَ اَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۖ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّے قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۖ اِنَّ رَبِّے عَلَىٰ كُلِّ شَےْءٍ حَفِيظٞۖ ٥٧ وَلَمَّا
جَآءَ اَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ
عَذَابٍ غَلِيظٖۖ ٥٨ وَتِلْكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ
وَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖۖ ٥٩ وَأُتْبِعُواْ فِے هَٰذِهِ اِلدُّنْيَا لَعْنَةٗ
وَيَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِۖ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمُۥٓۖ أَلَا بُعْدٗا لِّعَادٖ قَوْمِ
هُودٖۖ ٦٠ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۖ قَالَ يَٰقَوْمِ اِعْبُدُواْ اُ۬للَّهَ
مَا لَكُم مِّنِ اِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ اَلْاَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۖ إِنَّ رَبِّے قَرِيبٞ مُّجِيبٞۖ ٦١

الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيٰهَا وَمُرْسِيٰهَآ، إِنَّ رَبِّي لَغفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هُـوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الاَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن المرحلة الأخيرة من قصة نوح عليه السلام. ويحكي لنا أن نوحاً عندما أراد أن يركب السفينة التي صنعها بوحي من ربه لم ينسَ ما عليه من واجب الشكر لله، والتوكل على الله، فأمر المتأهبين للركوب معه عند ركوبهم «سفينة النجاة» أن يذكروا عند ركوبهم اسم الله عليها، وأن يحصِّنوها باسمه الأقدس من كل سوء ينزل بها، حتى يتم جَرْيُ سفينة نوح ورَسْوها في أحسن الأحوال، ولا ينالها أي أذى من الأمواج المتلاطمة والشامخة كالجبال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيٰهَا وَمُرْسِيٰهَآ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾.

ثم وصف كتاب الله نداء نوح لابنه الذي أصرَّ على الكفر، وما دار بينهما من حوار مؤثر في تلك الفترة العصيبة. ومنه يبدو الصراع الداخلي الذي كان قائماً بين عاطفة نوح بصفته مجرد (أب عادي)، وواجبه بصفته (رسولاً عن الله). فقد ظن نوح عليه السلام أن الاستثناء الذي ورد في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ إنما هو منصّب على ما أُمِر بحمله معه من أصناف الأحياء المختلفة، بمعنى أن منهـا ما أذِن اللَّهُ بحمله معـه في السفينة ليستمر بقاؤه في العالم، ومنها ما سبق عليه القضاء بالغرق والانقراض نهائياً، ولم يعتقد نوح عليه السلام أن الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منصبٌّ حتى على أهله أنفسهم، فمنهم من أذِن له بأخـذه في السفينة، كـأبنائـه الثلاثة: (سام وحام ويافث)، ومنهم من لاحظَّ له فيها كامرأة نوح وابنه الرابع (يام).

وبمقتضى هذ التأويل أخذ نوح ينادي ابنه ليفارق الكافرين من قومه، ويلتحق به في «سفينة النجاة»، فما كان من ابنه المصرّ على الكفر إلا أن فضَّل البقاء حيث هو، ظانّاً أن في إمكانه النجاة من الطوفان إذا اعتصم بالجبل.

ولم يسَعْ نوحاً ـ وهو الناصح الأمين الذي طالما أسدى النصح للبعيد والقريب ـ إلا أن يجدد النصح لابنه، ويؤكد له أنه لا عاصم يعصمه من عذاب الله، وأن الطوفـان سيدرك الجميع لَا محالة، ولا تنجو منه إلاّ سفينة النجاة التي صنعها نوح بوحي من

ربه، وركبها ومن معه، متحصنين باسمه الأقدس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَـٰبُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَـٰفِرِينَ، قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ، قَالَ لَا عَـٰصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْـدَكَ الْحَقُّ، وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَـٰكِمِينَ، قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ، فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَـٰهِلِينَ، قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ الْخَـٰسِرِينَ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قال علماؤنا: إنما سأل نوح ربه، لأجل قول الله: احمل فيها من كل زوجين - إلى - وأهلَك. وترك نوح قوله - إلا من سبق عليه القول - لأنه رآه استثناءً عائداً إلى قوله: «من كل زوجين اثنين»، وحمله الرجاء على ذلك، فأعلمه الله أن الاستثناء عائد إلى الكل، وأنه قد سَبَق القول على بعض أهله، كما سبق على بعض من الزوجين (أي من كل زوجين اثنين) وأن الذي سبق عليه القول من أهله (أي علاوة على امرأته) هو ابنه، تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كان آباؤهم صالحين».

وقال ابن العربي: «قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرَىٰـهَا وَمُرْسَىٰـهَآ﴾ نصٌّ في ذكر الله في كل حال وعلى كل أمر، وقد روى الدارقطني وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمر ذي بال لم يُبدأ فيه بذكر الله فهو أبتر». وقال ابن كثير: «ولهذا

تستحب التسمية في ابتداء الأمور، وجاءت السنَّة بالحثِّ على ذلك والندب إليه».

أما الدعاء الذي دعا به نوح عليه السلام، عندما استوى على السفينة، بتلقين من ربه، فقد نص عليه كتاب الله في آية أخرى إذ يقول مخاطباً لنبيه نوح: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي نَجَّينَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ، وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَـٰرَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾[المومنون: ٢٨، ٢٩].

ووصف كتاب الله كيف أن القدرة الإلٓهية بمجرد ما أغرقت الظالمين المفسدين في الأرض، الذين جعلوها حَلْبة للفساد لا للإصلاح، وللظلم لا للعدل، وللكفر لا للإيمان، وأبادتهم عن آخرهم في لحظات معدودة، وجَّهت في الحين نداءها المسموع المطاع للأرض ببَلْع مياهها، وللسماء بقَطْع أمطارها، ولسفينة النجاة بوقوفها وإرسائها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بمنتهى الإيجاز والإعجاز: ﴿ وَقِيلَ يَـٰأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ اقْلِعِي، وَغِيضَ الْمَآءُ ﴾ أي ابتلعته الأرض في جوفها وغار من سطحها ﴿ وَقُضِيَ الاَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي هلاكاً لهم وخساراً، وبعداً من رحمة الله وطرداً، فقد هلك الظالمون على عهد نوح عن آخرهم بالطوفان، كما سيهلِك خَلَفُهم بوسائل أخرى يختارها القاهر فوق عباده في مستقبل الزمان.

وقد نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال: «قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجوديّ من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى

رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها، فهلكت وصارت رماداً».

ثم تحدث كتاب الله عما أوحى الله به إلى نوح عليه السلام عندما أرست سفينته على الجوديّ، وما صدر إليه من الإذن بالنزول من السفينة إلى الأرض، مصحوباً فيها بسلام الله، مع البشارة بحلول بركات الله عليه وعلى أمم المومنين من ذريته، والإنذار لأمم أخرى ستكفر بالله، فتنال حظها من المتاع في الدنيا ثم يلحقها العذاب الأليم في الآخرة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾. قال محمد بن كعب: «دخل في هذا السلام كل مومن ومومنة إلى يوم القيامة، وكذلك دخل في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة».

وعقّب كتاب الله على تفاصيل هذه القصة المثيرة، مبيِّناً أنها قد ظلت مطوية تحت أستار الغيب قروناً وقروناً، حتى كشف الوحي الإلٰهي عنها النقاب، ونزلت في شأنها آيات الكتاب، منبِّهاً خاتم الأنبياء والمرسلين إلى العبرة المقصودة، من عرض قصة نوح، بالنسبة للمشركين والمومنين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنَ اَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا، فَاصْبِرِ، إِنَّ الْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وفي هذه القصة نقطة لا بد من الوقوف عندها وقفة خاصة،

فقد رأينا كيف مَنَّ الله على نوح بنجاة أهله، وأمَره بحمل أهله معه في «سفينة النجاة». قائلاً: ﴿ احمِلْ فيها مِن كلٍّ زوجيْنِ اثنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، وقد رأينا كيف دعا نوح ابنه الذي لم يومن بالله إلى مفارقة كفار قومه، واللحاق به في السفينة، باعتباره داخلاً في (أهله)، وقد رأينا كيف نادى نوح ربه قائلاً ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنَ اَهْلِي ﴾، إلا أن الحق سبحانه وتعالى رد على نبيه نوح عليه السلام رداً قاطعاً وصارماً، ﴿ قَـالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ اَهْلِكَ ﴾. ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى حيثية ذلك الحكم الإلٓهي الذي لا معقِّب له، وأوضح الحكمة المتوخاة منه، حتى لا يبقى حكماً غامضاً، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ مما ألقى الأضواء على نوع العلاقة التي لها اعتبار في نظر الشارع، والعلاقة التي لا اعتبار لها، أو لها اعتبار ثانوي جداً.

فهذه الآية تنص صراحة على أن قرابة العقيدة والإيمان هي القرابة الحقيقية والوحيدة، التي لها الاعتبار الأول بين الأقرباء في تكافلهم وتعاونهم، وتحديدِ مصيرهم المشترك، فإذا انتفت هذه القرابة الروحية والدينية بينهم كانت قرابةُ الدم المادية في الدرجة الأخيرة من الاعتبار، أو لا اعتبار لها بالمرة، لأن طابعَ البنـوة الصحيح هو أن يكون الابن وارثاً سرّ أبيه، يرث منه خير خصاله، وأفضل خلاّله، والروحية منها قبل الماديـة، فتتصل بـه سلسلة الصلاح ولا تنقطع، وتنتقل الأمانة عن طريقه من جيل إلى جيل. وهكذا يصبح ابنك الروحي في العقيدة أو أخوك الـروحي في الإيمان هو ابنك الحقيقي وأخوك الحق الذي تعتمد عليه بعد الله

تعالى كل الاعتماد، في إدراك المنى وبلوغ المراد.

ولهذا طالب كتاب الله المسلمين بأن يكون الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما، وحذر من موالاة العشيرة ومن التودد إلى الأقرباء متى كانوا غير اخوان في العقيدة والدين، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوَ اَبْنَآءَهُمْ أَوِ اِخْوَنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] فالبغض في الله والحب في الله من الإيمان كما جاء في الأثر.

ومن قصة نوح عادت الآيات الكريمة للحديث عن قصة هود مع قومه عاد، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ اَخَاهُمْ هُوداً، قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَٰهٍ غَيْرُهُ، إِنَ اَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ، يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً، اِنَ اَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الذِي فَطَرَنِيَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وأشارت نفس الآيات إلى جواب عاد لهود ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ، إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَيٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾.

وبيَّن كتاب الله مصير عاد بعد إصرارهم على الكفر بالله، والتكذيب برسالة هود، وما أكرم الله به هوداً والذين آمنوا معه من النجاة والرحمات، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ اَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا، وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ، وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَواْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ،

وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ، أَلَآ إِنَّ عَـاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

وهكذا رأينا مرة أخرى أن الدعوة التي يدعو إليها الأنبياء والرسل دعوة واحدة، يجددها الواحد بعد الآخر، وأن موقف خصوم الأنبياء والرسل موقف واحد يقلِّد فيه بعضُهم بعضاً، ويتوارثونه خلَفاً عن سلَف، كما رأينا أن مصير أهل الفسق والكفر مصير واحد هو الخسران المبين والعذاب الأليم، ومصير أهل التقوى والإيمان مصير واحد هو الرضوان الأكبر والفوز العظيم.

الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ
مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ
قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ
أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ

إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا لِّثَمُودَ ٦٨ وَلَقَدْ
جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ
سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ
لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةٗۚ قَالُواْ
لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ٧١
قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَيْءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ
ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ
لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ
جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٖ ٧٦ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعٗا وَقَالَ
هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن
قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٞ

رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ
مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾
قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ
مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـٰذَآ، أَتَنْهَيـٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا، وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَـا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيـلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَـوَّمَةً عِنـدَ رَبِّـكَ، وَمَـا هِيَ مِنَ الـظَّـٰـلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

بعدما تناولت عدة آيات كريمة في الربع الماضي قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وبيَّنت ما بذله من جهد بالغ ونصح مستمر، في سبيل هدايتهم إلى الإيمان بالله، وحضِّهم على التوبة إلى الله، وتعريفِهم بما يستتبعه الإيمان والتقوى من الحياة الطيبة والمَنَعة والقوة: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً اِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ وتعريفِهم بمـا يؤدي إليـه الإصرار على الكفـر والضلال، من تعـذيب وإبـادة واستئصال، واستخلاف للغير واستبدال ﴿ فَإِن تَوَلَّواْ فَقَدَ اَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِـهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمـاً غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُـرُّونَـهُ

شَيْئاً ﴾، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة صالح مع قومه ثمود، ونظراً لأن بداية هذه القصة صادفت نهاية الربع الماضي أجّلنا الشروع فيها إلى هذا الربع، حتى نقدِّم تفسيرها في صعيد واحد.

وأول ما يواجهنا من قصة صالح أن الدعوة التي وجهها إلى قومه ثمود هي صورة طبق الأصل من دعوة من سبقه من الأنبياء والمرسلين، وخلاصتها الأمر بعبادة الله دون سواه، والتعريف بأنه لا إله في الحقيقة إلا الله، فهذا هو مفتاح الدعوة ومدخلها الوحيد إلى تحرير الإنسان من كل عبودية لأخيه الإنسان، سواء كانت تلك العبودية عبودية جسمية للطغاة المتجبِّرين، أو عبودية وهمية للدجاجلة المشعوذين ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحاً، قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾.

ثم بيَّن صالح لقومه ثمود أن الله تعالى هو وحده الذي يستحق أن يُرجَى ويُخاف، وأن يُطاع أمره، ويُتجنب نهيه، فهو الذي بيده الإعطاء والمنع، وعلى يده الضر والنفع، وهو مصدر كل النعم التي يتمتع بها الإنسان بدءًا واستمراراً، وما دام الإنسان مديناً بوجوده أولاً، وبرزقه ثانياً للحق سبحانه وتعالى، فالمنطق السليم يقضي على الإنسان بأن يتوجه إليه، ويعتمد عليه، وما دامت أقرب وسيلة للتحلّي بالفضائل هي التخلي عن الرذائل، فما على الإنسان إلا أن يستغفر الله ويُقبل عليه، فيجده أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الاَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي خلقكم لعمارتها وجعل لكم فيها معايش ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ

إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾. وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، اجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فما كان من قوم صالح إلا أن أجابوا نبيهم بنفس الجواب التقليدي الذي اعتاد خصوم الرسالات أن يجيبوا بمثله كافة الأنبياء والرسل، وهذا الجواب يكون عادة عبارة عن مزيج من التكذيب والتجريح والاستهزاء، ومهما اختلفت ألفاظه فإن المعنى الذي يعبر عنه واحد في نهاية الأمر.

ويتضمن جوابُ ثمود لنبيهم صالح خيبةَ أملهم فيه، وسوءَ ظنهم بسلامة عقله، وشكَّهم البالغ في كل ما دعاهم إليه، واستنكارَهم التام لتهجمه على معبوداتهم ومقدساتهم المتوارثة: ﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـٰذَآ، أَتَنْهَـٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا، وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

ويقبل، على الإيمان بصالح، المستضعفون من قومه، بينما المترفون وكبار القوم يواصلون حياتهم على ما ألفوه من الشرك والوثنية.

ولَمَّا تخوَّفوا من استفحال دعوته وغلبتها، أخذوا يتحدَّونه ويطالبونه مرة بعد أخرى، بآية محسوسة تراها العين، تكون دالَّة على صدق رسالته، فكانت تلك الآية التي طلبوها، هي ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس: ١٣]، وإنما أضيفت إلى اسم الله لكونها

جاءت على خلاف ما هو معتاد في جنسها، لا شكلاً، ولا حجماً، ولا غذاءً، فأمرهم صالح بتركها تأكل في أرض الله، وبأن يكون لها وحدها شِرْبُ يوم معلوم، كما يكون لمواشيهم شِرْبُ اليوم الذي يليه، بحيث تقاسمُ (ناقة الله) مواشيَهم مياهَ الشرب مناصفة، يوم لها ويوم لهم.

غير أن كبار القوم وأصحاب المصالح، لم يصبروا طويلاً على امتثال أمر صالح، ولعلهم وجدوا في هذا الأمر حداً لاحتكارهم، وقيداً لاستغلالهم واستثمارهم، ولعل ألبان (ناقة صالح) أصبحت عوناً لصالح على الدعوة إلى الله، وغذاءً للفقراء المستضعفين الذين آمنوا بالله، فلم يَسَعْ كبارَ قوم صالح وكفارَهم إلا أن يحرضوا على قتل (ناقة الله)، تحدياً صارخاً لصالح الذي انتشرت دعوته إلى الله ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ائتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: ٧٧]. وحدد صالح لمصرعهم بعد عَقْرهم للناقة ثلاثة أيام، كل يوم منها يرون فيه لوناً من ألوان العذاب، قبل أن يَهلِكوا ويبيدوا بالمرة، وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى هنا بإيجاز وإعجاز ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً، فَذَرُوهَا تَأكُلْ فِيٓ أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، فَعَقَرُوهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ، ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، فَلَمَّا جَآءَ أمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحاً وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا، وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَأَخَذَ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَواْ فِيهَآ، أَلَآ إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْداً لِّثَمُودَ﴾.

وانتقل كتاب الله من الحديث عن قصة صالح وما انتهت به من عذاب لكفار ثمود إلى قصة لوط مع قومه.

ولهذه القصة علاقة بإبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان بينه وبين لوط قرابة روح وقرابة نَسَب، فقد أرسل الله ملائكته إلى لوط عليه السلام ليخبروه بأن موعد هلاك المفسدين الضالين من قومه قد أصبح على الأبواب. وفي طريقهم إلى لوط عرَّجوا على إبراهيم الخليل واستضافوه، فأحسن ضيافتهم ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾. والحنيذ هو المشوي على الحجارة المحمَّاة، وبشَّروا امرأته بولادة اسحاق ويعقوب رغماً عن فواتها سن الحمل، وبالرغم من شيخوخة زوجها إبراهيم ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ، وَمِنْ وَرَآءِ اسْحَـٰقَ يَعْقُوبُ، قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَالِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخاً، اِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنَ اَمْرِ اللَّهِ ﴾. ودار الحديث بينهم حول قوم لوط وما ينتظرهم من عذاب الله ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ امْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمُ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.

ولما وصل أولئك الملائكة إلى مقر لوط ونزلوا عنده أقبل عليه الفَسَقة المفسدون من قومه يريدون اغتصاب ضيوفه من الملائكة، فجدد عليهم لوط أمر الله إليهم بالتوبة من جريمة الشذوذ الجنسي، ودعاهم إلى الاكتفاء بما أحلَّ الله من العلاقات الزوجية المشروعة ﴿ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِي ﴾ أي بنات قومي ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنكُمْ

رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾. لكنهم أصروا على انحرافهم كل الإصرار ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً، جزاء قلبهم للأوضاع، وما ارتكبوه بفاحشتهم من سوء الابتداع.

وتلقى لوط من الملائكة الرسالة التي جاؤوه بها من عند الله ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْـلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾، لكنهم استثنوا من أهله امرأة لوط كما استثنى الله من أهل نوح ابنه وامرأته معاً، فكانا من المُغرقَين، وهذا الاستثناء هو قولهم فيما حكاه عنهم كتاب الله ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ، إِنَّـهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَـوْعِدَهُمُ الصُّبْـحُ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، فَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا جَعَلْنَا عَـلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾.

وبعدما أُسدِل الستار، على قوم لوط بما فعلوه من الفواحش والأوزار، عقَّب كتاب الله على ذلك بما يفيد أن كل من عمل عملهم، وسلك مسلكهم، من الفَسَقة الظالمين. سيكون مهدداً بعذاب الله، وسيف العقاب مُصْلَت على رأسه دائماً، إن لم يكن على الصورة التي عوقب بها قوم لوط، فعلى صورة أخرى لَا يعلمها إلا الله، فللعذاب ألوان شتى، كما أن للزهر ألواناً شتى، فقال تعالى ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أي نقمة الله ﴿ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ
يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ
وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾
قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ
وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ
نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾
قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ
فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ
ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ
رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟
فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ

فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾
يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ اَ۬لْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ اُ۬لنَّارَ وَبِيسَ اَ۬لْوِرْدُ
اُ۬لْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِے هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ اَ۬لْقِيَٰمَةِ بِيسَ
اَ۬لرِّفْدُ اُ۬لْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنَ اَنۢبَآءِ اِ۬لْقُر۪يٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمُۥٓ ءَالِهَتُهُمُ اُ۬لتِے يَدْعُونَ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ مِن
شَےْءٍ لَّمَّا جَآءَ اَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ اَ۬لْقُر۪يٰ وَهْيَ ظَٰلِمَةٌ اِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾
اِنَّ فِے ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ اَ۬لَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ
لَّهُ اُ۬لنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا
لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الـربع الأول من الحـزب الرابـع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً، قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَـٰهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيـزَانَ، إِنِّيَ أَرَيٰـكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَـافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ اِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الَاخِرَةِ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ، وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ، وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾.

تتناول الآيات الكريمة في أكبر قسم من هذا الربع قصة شعيب عليه السلام مع قومه مدين، وفي هذه القصة نواجه نوعاً جديداً من المخالفات ارتكبه قوم شعيب وأسرفوا فيه إسرافاً بالغاً.

فبالإضافة إلى شركهم بالله، وما يترتب على الشرك وحده، وما ينبثق عنه من آفات وعاهات وتقاليد فاسدة، نجد أهل مدين قد بالغوا في استغلال الخلق وأكل أموال الناس بالباطل، فهم يطففون الكيل، ويطففون الوزن، ويبخسون الناس أشياءهم، وهم مثل فاضح للاستغلال المادي الفاحش الذي لا يـرحم ولا يخجل،

ولا يتعفف ولا ينصف أحداً، الأمر الذي جعل شعيباً عليه السلام يرفع عقيرته ضد قومه، عملاً بأمر الله الذي لا يرضى عن الاستغلال والمستغلين، من أي جنس أو دين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً، قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَـٰهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنِّيَ أَرِيٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم، وأخشى عليكم زوال هذا الخير ﴿ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ، وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَواْ فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمُ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ ﴾ أي ما يَفضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أكل أموال الناس بالباطل ﴿ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

غير أن المستغِلين الشَّرِهين من قوم شعيب لم يتمالكوا أنفسهم من الغضب والاستعلاء، وأخذوا يتبجحون بأن المال الذي يكتسبونه من تجارتهم هو مالهم الخاص، ولذلك فهم فيه أحرار يفعلون به ما يشاؤون، ويتصرفون فيه كيف يريدون، ورفضوا تقييد حريتهم بأي قيد في معاملاتهم التجارية التي اعتادوها، فهم حريصون على اكتساب أكبر ربح ممكن، بأقل عوض ممكن، وهم يعتبرون هذا الأسلوب في التجارة هو أسلوب التجار العقلاء الراشدين في معاملاتهم، وما دونه سَفَه وبَلَه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَامُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ، أَوَ اَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ﴾، ثم يختمون ردَّهم عليه بقولٍ ظاهرُه المَدح وباطنه القَدح، فيقولون: ﴿ اِنَّكَ

لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، ومرادهم منه أن من يدعو إلى العدل والانصاف في البيع والشراء مثل دعوته يعدُّ في نظرهم جاهلاً وسفيهاً، لا حليماً ورشيداً، فالرشد في نظر المستغِلين، تجاراً أو غير تجار، هو ابتزاز أموال الناس بأدنى مقابل، أو بدون مقابل بتاتاً، وهذه سنَّتهم المتوارثة في كل عصر وجيل.

وقول أهل مدين لنبيهم شعيب ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [الآية: ٨٧] تتضمن نوعاً من الاستهزاء والتعيير، إذ كانوا متضايقين مما رأوه عليه من المواظبة على عبادة الله، والتضرع بين يديه، شأنهم في ذلك شأن خصوم الرسالات الإلّهية في جميع العصور، الذين يتطيرون بأهل الصلاح والتقوى، ويتضايقون من استقامتهم وثباتهم على الحق.

لكن شعيباً لا يسلك في الرد على قومه مسلكهم في المِراء والاستهزاء، بل يرد عليهم الرد اللائق بمقام الأنبياء والمصلحين، مؤكداً لهم أن التعليمات التي بلَّغها إليهم عن ربهم ليست موجهة إليهم دونه، بل هو أول من ينفذها، وأنه ليس ممن يأمر بالبِرِّ غيره، ثم ينسى نفسه ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾.

ثم عقَّب شعيب على ما دار بينه وبين كفار قومه بما يوضِّح الهدف الأساسي من كل رسالة إلّهية بعث الله بها إلى الناس، وهذه الرسالة تتلخص أولاً وأخيراً في إصلاح أحوال الناس إصلاحاً شاملاً، تصَلُح معه عقيدتهم، وتَصلُح معه شريعتهم، ويَصلُح معه سلوكهم، ويَصلُح معه مجتمعهم، وتَصلُح معه

معايشهم، وتَصلُح معه علاقاتهم. وهكذا يتسرب الإصلاح إلى كل زاوية من زوايا حياتهم الظاهرة والباطنة، فيصبحون أمة فاضلة وصالحة، ويصبح مجتمعهم مجتمعاً فاضلاً وصالحاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا على لسان شعيب عليه السلام ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَـٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وها هنا كلمتان في غاية الأهمية لا بد من الوقوف عندهما ولو قليلاً، ألا وهما كلمة (الاصلاح) وكلمة (التوفيق). فكلمة الاصلاح تعني على العموم الإتيان بما هو صالح ونافع ومناسب، من الصلاح، ضد الفساد، وأصل معنى «الفساد» في لغة العرب زوال منفعة الشيء وتعذر المقصود منه، وأطلق الفساد في لسان الشرع على الشرك بالله الذي هو منبع جميع الضلالات والبدع، وعلى إذاية الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] سواء كانت تلك الإذاية عامة لمجموعهم، أو خاصة ببعضهم، فيكون الصلاح الذي هو ضد الفساد عبارة عن سلوك طريق الهدى والاستقامة، والعمل على نفع الخلق نفعاً عاماً أو خاصاً، ويكون (الصالح) هو الذي قام بما يلزمه من حقوق الله وحقوق العباد.

والمراد بكلمة (التوفيق) هنا ضد الخذلان، من «الوَفْق بين الشيئين»، بمعنى التحامهما، ولم تَرِد كلمة التوفيق بمعنى عدم الخذلان في آية أخرى من كتاب الله. ونعمة التوفيق بهذا المعنى من أجلّ النعم التي أنعم الله بها على الخواص من عباده، فَمَن

رُزق نعمة التوفيق فقد رُزق خيراً كثيراً. قال حجة الإسلام الغزالي: «وإنما الاعتبار بقلب العالِم الموفَّق، المراقِب لدقائق الأحوال، وهو المِحَكّ الذي يمتحن به خفايا الأمور، وما أعز هذا القلب في القلوب».

وبيَّن كتاب الله أن شعيباً عليه السلام لم يتقهقر عن دعوته إلى الله، بل استمر ثابتاً عليها، داعياً إليها دون انقطاع، وقد حاول أن يستخلص العبرة لقومه مما أصاب الأقوام السابقة قبلهم، فهم يعرفون مصارعهم حق المعرفة، وعندهم من خبرها الشيء الكثير ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيَ ﴾ أي لا يحملنكم بغضي وعداوتي على الإصرار والعناد، وكأنه يريد أن يقول لهم إني أخاف عليكم ﴿ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ، وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾.

إلا أنه بالرغم من جميع الجهود التي بذلها في سبيل هدايتهم واقناعهم بالحق أصروا على ما هم فيه، ولم يكتفوا بإصرارهم على الباطل، بل أطلقوا لألسنتهم العِنان في الطعن على شعيب والطعن في دعوته، والتهديد له بالرجم إلى أن يموت، وذلك ما تشير إليه الآيات التالية: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ﴾ أي أن دعوتك لا يستسيغها عقل ولا يقبلها منطق ﴿ وَإِنَّا لَنَرَيـٰكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ أي لا عصبة لك من كبار القوم ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ﴾ أي لولا أن لعشيرتك معزة عندنا، ومكانةً خاصةً بيننا، لَقمنا برجمك، و«الرجم» أشق العقوبات

وأكثرها تعذيباً ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾.

وما كان من شعيب عليه السلام إلا أن رد عليهم في حدود الأدب المعهود من الأنبياء ، وفي نطاق الدعوة المأمور بتبليغها عن الله ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيَ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ أي رفضتم دعوته وعصيتم أمره ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾.

ولما انقطع كل أمل في قبولهم للإصلاح الذي جاءهم به شعيب عن الله تبرَّأ منهم ومن أعمالهم، ووكلهم إلى عذاب الله المرتقب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن شعيب يحذرهم وينذرهم: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـٰمِلٌ ﴾ أي اِعمَلوا على طريقتكم فأنا عامل على طريقتي، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] وقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ثم مضى ينذرهم قائلاً: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ﴾ أي ستعلمون من الكاذب فينا ومن المعذَّب؟ هل أنا أم أنتم، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّآ أَوِ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبإ: ٢٤]، ﴿ وَارْتَقِبُوٓاْ، إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾.

ثم انتهت قصة شعيب مع كفار أهل مدين بعذابهم وعقابهم، واستئصالهم وإبادتهم، ونجاة شعيب والذين آمنوا معه، كما ينتهي كل صراع بين الخير والشر، والحق والباطل، باندحار الشر والباطل، وانتصار الخير والحق، وذلك ما يشير إليه قوله

تعالى هنا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا، وَأَخَذَتِ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيٰرِهِمْ جٰثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَواْ فِيهَآ ﴾ أي كأن لم يعيشوا فيها من قبل ﴿ أَلَا بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى قصة موسى مع فرعون، فأوجز الإشارة إليها في هذا المقام دون تفصيل ﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسىٰ بِـَٔايٰتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ، اِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾.

وعقّب كتاب الله على هذه القصص كلها بما يبرز العبرة من وقوعها أولاً، والتذكيرَ بها ثانياً، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنَ اَنۢبَآءِ الْقُرىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي منها ما لا تزال أطلاله قائمة تشير إلى نقمة الله وعذابه، ومنها ما حلَّ به الخراب والدمار فلم يبقَ منه عين ولا أثر ﴿ وَمَا ظَلَمْنٰهُمْ وَلٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، اِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

يَوْمَ يَاتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ اِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ
شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا اَ۬لذِينَ شَقُواْ فَفِے اِ۬لنَّارِ لَهُمْ فِيهَا
زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ اِ۬لسَّمَٰوَٰتُ
وَالَارْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا
اَ۬لذِينَ سَعِدُواْ فَفِے اِ۬لْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ اِ۬لسَّمَٰوَٰتُ
وَالَارْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾
فَلَا تَكُ فِے مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم
مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدَ اٰتَيْنَا
مُوسَى اَ۬لْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِے شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِن كُلًّا لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ
رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمُۥٓ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ

وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا
إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾
وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ
مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ
رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ
مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ الْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾
قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا
إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ
إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَّقَدْ كَانَ فِي
يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ
أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾
اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا
مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة هود المكيـة: ﴿يَوْمَ يَـاتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ اِلَّا بِإِذْنِـهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ونهايته قولـه تعالى في سـورة يوسف المكيـة أيضاً: ﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِ قَوْماً صَـٰلِحِينَ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحـديث عن يوم القيامة، وقد بدأ الحديث عن هذا اليوم الموعود في نهاية الربع الماضي بقوله تعالى: ﴿اِنَّ فِي ذَٰلِـكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَـافَ عَذَابَ الْاَخِرَةِ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ، وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُـودٌ، وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾. ثم تلا ذلك قوله تعالى هنا: ﴿يَوْمَ يَاتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ اِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[الآية: ١٠٥]. وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة مرتبطاً بعضهاببعض، لأنها في موضوع واحد.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ يماثله في

المعنى قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩]. وهذا المعنى الذي تتضمنه كلتا الآيتين تؤكده عدة آيات أخرى في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ [التغابن: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [ءال عمران: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعاً ﴾ [الكهف: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [ءال عمران: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء: ٨٧].

وقولُه تعالى: ﴿ فَأَمَّا الذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ يظهر أن فيه وصفاً لكيفية تنفس الأشقياء في جهنم، وأنه على خلاف ما هو معتاد في تنفس الكائنات الحية، كأن تنفس الأشقياء في جهنم يسبق فيه «الزفير» الذي هو دفع النَّفَس إلى الخارج، على «الشهيق» الذي هو أخذ النفَس إلى الداخل، بينما التنفس العادي للكائنات الحية يسبق فيه «الشهيق» الذي يأخذ به الكائن الحيُّ حظه من الهواء المنعش إلى داخل الجسم، على «الزفير» الذي يدفعه الكائن الحيّ من الداخل إلى الخارج بعد أخذ حاجته منه. وفي هذا الوصف لتنفس الأشقياء في جهنم

إشارة إلى ما يعانونه من ضيق واختناق، حتى كأن صدورهم تغلي غليان المِرْجَل، وعلى العكس من ذلك يكون حال السعداء في الجنة ﴿ وَأَمَّا الذِينَ سَعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي دون أن يتعرضوا لأي شيء من هذه الأعراض الغريبة.

وقوله تعالى: ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَٰتُ وَالأَرْضُ ﴾ الوارد في سياق كل من السعداء والأشقياء، في تفسيره تأويلان مختلفان:

التأويل الأول: أن المراد (خالدين في الجنة أو في النار ما دامت سماوات الآخرة وأرضها) لأن الآخرة هي دار الخلود. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وإلى هذا التأويل ذهب ابن عباس حيث قال: «لكل جنة سماء وأرض»، والحسن البصري حيث قال: «سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، والخلود في الجنة أو في النار ما دامت تلك السماء وتلك الأرض». وإلى هذا التأويل مال ابن كثير في تفسيره حيث قال: «قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السماوات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ ﴾» [إبراهيم: ٤٨] وبه أخذ القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) إذ قال: «وجوابنا أن للنار سماء وأرضاً، وكذلك الجنة، ولا يفنيان، فهذا هو المراد».

التأويل الثاني: أن المراد هو مجرد التأبيد والدوام، على حد قول العرب: «هذا دائم دوام السماوات والأرض أو باقٍ ما

لاح كوكب، وما ناح الحَمام». وإلى هذاالتأويل ذهب ابن جرير وابن جُزَيّ في تفسيريهما.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في سياق الكلام على الذين شَقُوا وارد مورد الاستثناء من قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَيكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ﴾[الأنعام: ١٢٨] ويشبهه قولُه تعالى في آية ثالثة: ﴿فَفَزِعَ مَن فِـي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وقولُه تعالى في آية رابعة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقال ابن كثير ما خلاصته: «اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه (زاد المسير)، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه. واختار ابن جرير ما نقله عن خالد بن معدان والضحـاك وقتادة، وابن سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً أن الاستثناء (يَعْنِـي «إلاّ ما شاء رَبُّكَ»، الوارد في سياق الحديث عن الأشقياء) عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيئين والمومنين، ولا يبقى بعد ذلك في النارَ إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها». قال ابن كثير: «وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة».

ويمكن حمل الاستثناء الوارد في هذا السياق على طريق التأدب مع الله، كقولك «إن شاء الله» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً، إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ [الآية: ١٨٨]، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ [الآية: ٤٩]، وقوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ، إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ [الآيتان: ٦، ٧].

وقولُه تعالى تعقيباً على حكمه في شأن الأشقياء: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ إشارةٌ إلى أن الإرادة الإلّهية نافذة لا يلحقها أيّ خلل أو أيّ تعطيل، فقد بعث الله إلى الناس الرسل، وأقام عليهم الحجج، وأنذرهم سوء العاقبة، وها هو يثبت لهم أن الأمر جد لا هزل، وأن قوله قول فصل، ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] وبذلك يكون عذابهم مطابقاً لمقتضى العدل، ومنسجماً مع روح الحكمة.

وقولُه تعالى تعقيباً على وصفه لحال السعداء: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي عطاء غير مقطوع، فيه طُمْأْنِينَةٌ لقلوبهم، وتطييب لخواطرهم، ورفع لأثر التَّوهُّم الذي يُشعِر به الاستثناء الوارد أيضاً في سياق الحديث عنهم ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ إذ أن ظاهره يوهم احتمال انقطاع العطاء الإلّهي عنهم، حيث أن ذلك العطاء ليس أمراً واجباً على الله، وإنما هو موكول إلى مجرد مشيئته، ومحض منَّته، ولا يبعد أن تكون الحكمة في هذا الاستثناء بالنسبة للسعداء،

هي أن تبقى قلوبهم معلقة بين جناحي الخوف والرجاء.

وذهب الضحاك والحسن البصري إلى أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ الوارد في سياق السعداء هو منصَبٌّ على عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها بعد العذاب، إذ أن هؤلاء لا يصدق عليهم ما يصدق على السعداء الأصليين الذين لم يروا العذاب أصلاً، من أنهم في الجنة خالدون، لأن عصاة الموحدين يمرون بالعذاب الأليم أولاً، ولا ينالهم عفو الله إلا أخيراً.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰؤُلَآءِ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ تعريف من الله تعالى لرسوله بأنه سيوفيهم جزاءهم، طبقاً لما يقع عليه اختيارهم، وتكسبه أيديهم من الهدى أو الضلال.

و «المِرْية» هي الشك، والنهي عن الشك الوارد هنا في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰؤُلَآءِ ﴾ وإن كان في ظاهره موجهاً للرسول عليه الصلاة والسلام، فإنه موجه في الحقيقة إلى غيره من أفراد المدعوين والمكلفين، الذين يُتصَّور في حقهم وجود الشك، والمطلوبُ منهم الوصول إلى اليقين، لتمييز الحق من الباطل، نظير قوله تعالى في آية سابقة وجَّه فيها الخطاب إلى الرسول، والخطاب في الحقيقة موجَّه إلى بقية الناس ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[يونس: ٩٤] والنبي لم يشك ولم يسأل.

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ أمر من الله لرسوله والمومنين بالثبات على الصراط المستقيم، ونهي من الله للمومنين عن البغي والطغيان، والظلم والعدوان، ولو كان من يقع عليه البغي والظلم مشركاً. وللتحذير من الإقدام على الظلم والتورط في نتائجه قال تعالى عقب النهي عنه: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ بمعنى أنه يراقبكم ويراقب أعمالكم.

ثم وجَّه الحق سبحانه وتعالى خطابه لرسوله والمومنين من جديد، يأمرهم بالابتعاد عن موالاة الظَّلَمَة، وبالحذر من إعانتهم على الظلم بأي وجه من الوجوه، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى الذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ ولا يدخل في (الركون) مجرد المخالطة والمعاشرة دون عون ولا تأييد، كما نص عليه القاضي عبد الجبار.

وبيَّن كتاب الله أن الله وحده هو الذي يجب أن يكون وليّ الذين آمنوا، يوالونه وينصرونه، ويقفون بجانب أوامره دائماً، لأن غير الله وإن تولّوه فلن يكون لهم وليّاً، إذ ليس بيده ضر ولا نفع، ولا عطاء ولا منع، وإذا اعتمدوا على غير الله وَكَلهم الله إلى أنفسهم، وخذلهم خذلاناً مبيناً ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ، ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِّنَ الَّيْلِ ﴾ ذكر ابن كثير أن هذه الآية يحتمل أن تكون نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، حيث لم يكن يجب من الصلوات

إلا صلاتان في النهار وقيام الليل.. وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «لا خلاف أن هذه الآية تضمنت الصلوات الخمس، والذي نختاره أنه ليس في النهار من الصلوات إلا الظهر والعصر، وباقيها في الليل، فزُلَف الليل ثلاثة: في ابتدائه، وهي المغرب، وفي اعتدال فَحْمته، وهي العشاء، وعند انتهائه، وهي الصبح».

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ عقب الأمر بالصلاة مباشرة، شبيه بقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فالصلاة إذا أقيمت على الوجه الأكمل هي أحسن الحسنات، وهي أكبر مطهر ومكفر للسيئات، بما تعين عليه من محاسبة النفس على الأوزار، وما تدفع إليه باستمرار من التوبة والاستغفار. جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقِي من دَرَنه شيئاً؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا» رواه مالك في الموطأ، والبخاري في الصحيح، والترمذي في السنن، وأحمد في المسند. وروى الإمام أحمد من حديث أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقِ الله حيثما كنت، وأَتبِع السيئة الحسنة تَمحُها، وخالق الناس بخلق حسن». والمراد «بالنهر الغَمْر» في حديث أبي هريرة: كثير الماء.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى قادر على أن يضطر الناس جميعاً إلى

الإيمان بعقيدة واحدة، والسير في طريق واحد، لو كان يريد أن يخلق الناس على نمط الطبيعة الآلية المجردة، ولو كان يريد أن يَحرمهم من أخص خصائص الإنسان، التي هي خَصِيصَةُ التمتع بالإرادة والحرية، وبملكة التفكير والتقدير والاختيار، لكنه سبحانه خلقهم أناسيَّ مجهَّزين بعقل وتفكير، وإرادة واختيار. والنتيجة الطبيعية لخلقهم على هذه الصورة هي اختلاف منازعهم، واختلاف مشاربهم، واختلاف اختياراتهم، وتبعاً لذلك اختلاف عقائدهم ومذاهبهم، وتعدد مللهم وأديانهم، وبهذا التفسير يتضح معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ أي خلقهم على صورة خاصة ميَّزهم بها عن بقية الحيوانات، وهذه الصورة تقتضي بطبيعتها أن تختلف آراؤهم، فالخلاف مآلها، لأنه أثر من آثارها، ومن هنالك كان في الناس شقي وسعيد، ومومن وكافر ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء متصل، أي إلا من رحم ربك فإنه لا يختلف، والمراد به من التزم دعوة الأنبياء والرسل، وآمن بها دون أن يَشُوبها بأية بدعة أو ضلالة، ولا أن يُدخِل عليها أي تغيير أو تبديل. وبعبارة أدق: من اختار لنفسه سيرة الرسول وأصحابه، فتمسك بها دون أن يحيد عنها وكان من حزب الله، الموعود بالفلاح والفوز والنجاة.

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ خطاب من الله لرسوله يتضمن بيان حكمته فيما يقصه

عليه من أخبار الأنبياء والرسل السابقين، فهو يضرب له المثل بهم، ويحضُّه على التأسي والاقتداء بسلوكهم، ويعرِّفه بحسن عاقبتهم، ومصير المكذبين لهم من قومهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ﴾ إشارة إلى هذه السورة الكريمة - سورة هود - التي قال عنها الرسول الأعظم ﷺ: «شيَّبتني هود وأخواتها».

وختمت سورة هود بخطاب من الله لرسوله يأمره فيه بمواصلة عبادته لله في جميع الحالات، وبالاعتماد عليه في جميع الخطوات، ويتعهد له مرة أخرى برعايته وعنايته في المَنشَط والمَكرَه والسرَّاء والضرَّاء، فقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وبختام سورة هود ننهي حصة اليوم لطولها، مؤجلين القول في الآيات الأولى من سورة يوسف - وإن كانت مندرجة في هذا الربع - إلى الحصة المقبلة إن شاء الله، وكل آتٍ قريب.

الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين
في المصحف الكريم

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ
لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾
فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾
وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ

وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ
قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ
سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا
غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ
بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ
عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ
عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾
وَرَٰوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَٰبَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن
رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ

مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ
بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ
رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ
قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾
وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن
نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا
وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا
رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ
رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ
وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّـٰغِرِينَ﴾.

لأجل أن نفهم الآيات الكريمة الواردة في هذا الربع لا بد لنا من الرجوع إلى ما سبقها من الآيات التي أجَّلنا القول فيها إلى هذه الحصة، ابتداءً من مطلع سورة يوسف المكية، وأول ما نلفت إليه النظر سبب تسميتها «بسورة يوسف»، فقد تناولت قصة يوسف مع اخوته بالتفصيل، وتردد فيها اسم يوسف خمساً وعشرين مرة، وفي قصة يوسف قال رسول الله ﷺ كما رواه أحمد وانفرد بإخراجه البخاري: «الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم».

ومن المناسبات الطريفة بين بداية سورة يوسف ونهاية سورة

هود، وما يوجد بينهما من علاقة وارتباط، أن كلًا منهما تناول بالذكر والتنويه موضوع القِصص التي يقصُّها كتاب الله، وما فيها من عبر وحكم، فقال تعالى في بداية سورة يوسف: ﴿ أَلَـر، تِلْكَ ءَايَـتُ الْكِتَـبِ الْمُبِينِ، إِنَّآ أَنزَلْنَـهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَـفِلِينَ ﴾ أي من الغافلين عن هذه القصة وما شاكلها، كما قال تعالى في نهاية سورة هود التي سبقتها: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَآءَكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ ﴾. والقَصص (بفتح القاف) لفظ مفرد يكون مصدراً ويكون اسم مفعول بمعنى المقصوص، والقِصص (بكسر القاف) جمع قصة ومثلها أقاصيص.

وقد خصَّ القاضي عبد الجبار من بين سور القرآن جميعاً سورة يوسف بمقدمة نفيسة تولى فيها تحليل هذه السورة، ولفَت الأنظار إلى ما فيها من مواطن العبرة والتدبر، فقال رحمه الله: «أول ما نذكر في هذه السورة أنها مشتملة من آداب الأنبياء صلوات الله عليهم، ومن آداب الأخلاق، والتمسك بالصبر والحلم، وتوقع الفرج بعد حين، والتشدد في الصبر على المعاصي واحتمال المكاره، على ما لو تأمله القارىء، وتمسك بكلّه أو بعضه، لعظم موقع ذلك في دينه ودنياه».

«فليتأمل القارىء أولاً رؤيا يوسف للكواكب والشمس والقمر، وأن أباه، صلى الله عليهما، كيف تقدم بكتمان ذلك عن إخوته، والصبرُ في كتمان ذلك صعب، فاحتمله تحرزاً من

حسدهم» ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ، قَـالَ يَـٰبُنَيِّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً، إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ لِلإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

«وليتأمل ثانياً كيف جاد به على إخوته، لئلا يستوحشوا، وظَنَّ السلامةَ، مع خوفه منهم عليه، حتى أقدموا على ما أقدموا» ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ، اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِ قَوْماً صَـٰلِحِينَ ﴾.

«وليتأمل ثالثاً أنه بعد ظهور ذلك منهم كيف احتملهم، ولم يجازهم على ما فعلوه، بقطعهم وإخراجهم عن محبته، وعن النظر لهم» ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

«وليتأمل رابعاً صورة يوسف فيما وقع إليه من امرأة العزيز، كيف تشدَّد في الاحتراز عنها، واحتمل لذلك الحَبْس الطويل، حتى كانت عاقبةُ صبره ما حصل من اعتراف الكل بصيانته ووصوله إلى الملك والبغية» ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾ - ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَـٰهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴾ - ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ، قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـَٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾ - ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ، إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ - ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ - ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾.

«وليتأمل خامساً ما دُفِع إليه إخوتُه في تلك السنين الصعبة، من التردد إلى يوسف، يطلبون من جهته القوت، واحتمالِهم لما عاملهم به ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ، وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ، فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ - ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

«وليتأمل سادساً كيف صبر عليهم، وكيف احتمل في تخليص أخيه إلى حضرته، واحتباسه عنده على مَهَل، وقد كان يمكنه التعجل» (واسم أخيه هذا بنيامين، وكان أصغر من يوسف) - ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

«وليتأمل سابعاً كيف حسُنت معاملتُه مع إخوته حين ظفر بهم، وقد كانوا عاملوه من قبل بما عاملوه به، ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم

مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ، قَالُوٓاْ أَ.نَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ، قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدَ ـ اثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِئِينَ، قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ، الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴾.

«وليتأمل ثامناً كيف توصل إلى إزالة الغُمَّة عن قلب أبيه، وصبَر إلى أن ظفِر بالوقت الذي أمكنه فيه إحضاره عنده على أحسن الوجوه» ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً، وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَاوِيلُ رُءْيَـٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾.

«وليتأمل تاسعاً كيف كان صبر يعقوب ﷺ في بابه، وفي باب غيبة أخيه، وهو كالراجي لعودهما إليـه واجتماعـه معهما» ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنفُسُكُمُ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَّاتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ـ ﴿ يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

«وليتأمل عاشراً كيف قِبل يوسف عُذْر إخوته، وقد اعتذروا إليه، مع تلك الجنايات العظام» ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدَ ـ اثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِئِينَ ﴾ فكان جوابه ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ، الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴾.

«وليتأمل حادي عشر كيف قِبل يعقوبُ أيضاً عذرهم» ﴿ قَالُواْ يَـٰأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِئِينَ ﴾ وزاد بأن قال ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾، «إلى وجوه أخر تركنا ذكرها».

«ثم إنه تعالى قال في آخر السورة لرسوله ﷺ ولجماعة المكلفين: ﴿ ذَٰلِكَ مِنَ أَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ فنبه بذلك على وجوب التمسك بهذه الأخلاق والآداب. وكذلك قال تعالى في أول السورة: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ لأن النفع يعظم بذلك لمن تأمله».

«وهذا معنى قوله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَـآ ﴾ [محمد: ٢٤] لأن من تدبَّر القرآن، وتمسك بأحكامه وآدابه وأخلاقه، انفتح قلبه للخيرات ديناً ودنيا، فإذا قرأه من غير تدبر يصير قلبه كأنَّ عليه قُفلاً لا يتغير عما هو عليه، فهذه المقدمة التي قدمناها في هذه السورة تنفع فيها وفي القرآن». انتهى نص المقدمة النفيسة التي قدم بها القاضي عبد الجبار سورة يوسف، وقد وضعنا بجانب كل نقطة منها ما يناسبها من الآيات.

والآن فلنقف وقفة مناسبة عند جملة من الآيات الكريمة في هذه السورة بقدر ما يتسع له الوقت.

فقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴾ معناه اذكر يا مُحمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه (الآية).

وقال ابن عباس: «رؤيـا الأنبياء وحي». وقد تكلم المفسرون على تعبير هذه الرؤيا فقالوا إن الأحد عشر كـوكباً عبـارة عن إخوة يوسف، وكانوا أحد عشر أخاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، ووقع تفسير هذه الرؤيا بعد أربعين سنة، وذلك حين رفع يوسف أبويه على العرش ـ وهو سريره الذي كان يجلس عليه لمباشرة شؤون الدولة ـ وإخوته بين يديه ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً، وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَاوِيـلُ رُءْيَـيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ﴾.

وقوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَـاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً ﴾ دليل على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا، وأنها ترمز إلى ظهور يوسف على إخوته وتقدمه عليهم، ولذلك نَهى ابنَه يوسف عن ذكرها لإخوته، وأمره بكتمانها عنهم، خوفاً من أن يحتالوا للقضاء عليه والتخلص منه.

وخوفُ يعقوب من كيدهم إما أن يكون مبنياً على حكم العادة الشائعة بين بعض الإخوة وبعض الأقرباء إذا كانوا غيـر أشقاء، وإما أن يكون مبنياً على شعوره بغيرة إخوته منه وكرههم له، نظراً لشغَف أبيه به دونهم. أما يعقوب نفسه فلم يبالِ بما ترمز إليه الرؤيا من علوّ مقام ابنه يوسف، لأن الأب يود عادة أن يكون ابنه خيراً منه، ولا يضيق بذلك صدراً. قال ابن كثير: «ومن هنا ـ أي من قوله تعالى: ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَـاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ ـ يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث (استعينـوا على قضاء الحـوائج بكتمانها، فإن كـل ذي نعمـة محسود).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَاوِيلِ

الاحَادِيثِ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الآية: ٦] حكاية لما قاله يعقوب لابنه يوسف، متنبئاً بما سيؤول إليه أمره في مستقبل الأيام.

وقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف في شأن أبيهم يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، إشارةٌ إلى أنه كان لا يُنزِلهم من نفسه منزلة أخيهم يوسف، بينما محل الولد من أبيه هو أن ينزله منزلة سائر أولاده دون تفضيل، فالمراد هنا «بضلاله» افراطه في حب يوسف وأخيه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [الآية: ١٦] قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «فيه دليل على أن بكاء المرء لا يدل دائماً على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً، ومن الناس من يقدر من التطبع على ما يشبه الطبع».

وقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا﴾ [الآية: ١٧] تضمَّن إشارة إلى السباق، والأصل فيه الجري على الأقدام لمعرفة السابق من اللاحق، والسباق مندوب إليه شرعاً، قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها النبي ﷺ بنفسه وبخيله، فرُوي أنه سابق عائشة فسبقها، وأنه سابقها فسبقته، فقال لها هذه بتلك، ورُوي أنه سابق بين الخيل التي أُضمِرت، من الحَفْياء إلى ثَنِيّة الوَداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَر، من الثنية إلى مسجد بني زُرَيْق، وفي ذلك من الفوائد رياضة النفس والدواب، وتدريب

الأعضاء على التصرف، ولا مسابقة إلا بين الخيل والإبل خاصة».

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [الآية : ١٨] إشارة إلى الدم الذي أراد إخوة يوسف أن يجعلوه علامة على صدقهم، لكن القميص كان سالماً من التمزيق. قال ابن عباس: لو أكله السبُع لخَرَق القميص، والعلامات إذا تعارضت تعين الترجيح، فيقضي بجانب الرجحان، ولا خلاف في الحكم بالتهمة إذا ظهرت، كما أشار إلى ذلك يعقوب عليه السلام فيما حكته عنه الآية: ﴿قال بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ إذ أن إخوة يوسف لم يكن من فعلهم ما يناسب الشفقة عليه، فيشهدَ بصدقها، بل كان الذي سبق منهم هو تبرُّمهم به، كما نبه إليه القاضي أبوبكر (ابن العربي).

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلىٰ دَلْوَهُ ﴾ السَّيارة هنا مؤنث سَيار، والمراد بها القافلة من المسافرين، و (الوارد) هنا هو الذي يستقي الماء للجماعة.

وقوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ ـ أي باعوه ـ ﴿ بِثَمَنٍم بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ عبارة عن قلتها، وهو يفيد أن الأثمان عندهم كانت تجري عدداً لا وزناً، ولا شك أن في العدد تخفيفاً عن الخلق، لكثرة المعاملة ومشقة الوزن.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْاَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَاوِيلِ الْاَحَادِيثِ ﴾ المراد بالأرض هنا أرض مصر، والمراد

«بتأويل الأحاديث» البراعة والاصابة في تعبير الرؤيا.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءا بُرْهَـٰنَ رَبِّـهِ ﴾ إشارة إلى عزم امرأة العزيـز على الإيقاع بيـوسف في شركها، لكن يوسف لم يقع في ذلك الشـرك بإعانة الله له، فتغلب على حـديث النفس الذي لم يبلغ إلى درجـة العـزم، وحصَّنه الله من الوسواس الخناس، وصرفه عن السوء والفحشاء. والتعبير بلفظ «همَّت به» و«هَمَّ بها» بالنسبة لكل من الاثنين إنما هو من باب (المشـاكلة) اللفظيـة لا غير، لاختـلاف الموقفين واختلاف المعنيين. قال ابن جُـزَيّ في تفسيره: «أكثـرَ الناسُ الكلام في هذه الآيـة حتى ألَّفوا فيهـا التآليف، فمنهم مفـرِط ومفرِّط، والصواب إن شاء الله أنها همت به من حيث مرادها، وهمَّ بها كذلك لكنه لم يعزم، بل كان همه خَطْرة خَطَرت على قلبه لم يُطعها ولم يتابعها، ولكنه بادر بالتوبة عن تلك الخَطْرة حتى محاها من قلبه، لمّا رأى برهان ربه، ﴿ كَذَٰلِـكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ، انَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ
لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ
أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ
فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ
قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ

لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ
ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾
مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ
لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾
وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ
عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾
قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ

فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ
دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾
ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا
قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ
النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ
الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ
رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ
مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ
عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي
لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَـٰهِلِينَ ﴾ إلى قـوله تعـالى: ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ، أَنَا رَٰوَدتُّـهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّـٰدِقِينَ، ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَآئِنِينَ ﴾.

ترتبط الآية الأولى من هذا الربـع ارتباطـاً وثيقاً بـالآيات السابقة قبلها في نهاية الربع الماضي، ذلك أن امرأة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه فصرف الله عنه السوء والفحشاء، ابتدأت تَرُوجُ الإشاعاتُ عن مراودتها له بين نسوة كبار القوم، مع توجيه اللوم لها والتشنيع عليها سراً.

وسعياً منها في إيقاف تلك الإشاعات عند حدها، والقضاء عليها في مهدها دعتهن إلى مأدبة في قصرها، وكان من جملة ما قـدمت إليهن في تلك المأدبـة فواكـه وسكاكين صغيـرة معـدَّة

لتقشيرها وقطعها، وعندما كانت بأيديهن الفواكه والسكاكين الخاصة بها، أمرت فتاها يوسف ـ وكان إذ ذاك لا يزال مملوكاً لزوجها ـ بالخروج فجأة على النسوة الحاضرات والمرور أمامهن، فما كاد يُباغتهن يوسف مقبِلاً ومدبِراً، حتى بُهتَ ضيوف امرأة العزيز من مرآه، وجَرَحْنَ بالسكاكين أيديهن، بدلاً من تقشير الفواكه، دون شعور منهن، وعند ذلك اتجهت إليهن امرأة العزيز، مبررةً أمامَهن ما وقع لها قبلهن من الشغف به، ثم أخبرت ضيوفها بأنها قد راودته فعلاً، لكنه امتنع امتناعاً باتاً، ومضت في حديثها أمامهن تهدده بالسجن والإهانة إن لم يفعل ما تأمره به، ولم يلبث ضيوفها من النساء أن عذَرْنَها ووقفن إلى جانبها ينصُرْنَها، ويطالبن يوسف معها بإلحاح أن يستجيب لامرأة العزيز، وأن يحقق رغبتها، وذلك بعدما كنَّ يلُمْنَها قبل رؤية يوسف، لكنَّ يوسف لم يتراجع عن موقفه أمام تهديد امرأة العزيز، ولا أمام إغراء ضيوفها، وأصرَّ على الاعتصام بحبل التقوى والعفاف، وأخذ يتضرع إلى الله أن يصرِف عنه كيد امرأة العزيز وصاحباتها حتى لا يقع في الشَّرَك.

وإلى هذا الجزء من قصة يوسف تشير الآيات الكريمة التالية: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتيٰهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ والمراد «بالفتى» هنا الخادم المملوك ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً، إِنَّا لَنَرِيٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتِ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ﴾ أي أعدت لهن مجلساً مفروشاً ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتُ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمن شأنه ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي حززن أيديهن بالسكاكين،

من فرط الدهشة وشدة الإعجاب ﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلهِ ﴾ تنزيهاً لله وتعجباً من قدرته على خَلْق مثل يوسف ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أي طلب العصمة وامتنع مما أردتُه منه ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّـٰغِرِينَ ﴾ أي يعامل بالصَّغار، والإهانة والاحتقار ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْـدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَـٰهِلِينَ ﴾. يقال صَبَا يصبو إذا مال إلى الشيء ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وقولُ يوسف هنا فيما حكاه عنه كتاب الله ﴿ السِّجْنُ ـ أَحَبُّ ـ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ ﴾ لا يقصد من قوله (أحب) المعنى الحقيقي للتفضيل، وإنما هو وارد هنا على غرار قول القائل: «الجنة أحب إليَّ من النار، والعافية أحب إليَّ من البلاء».

إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد أخذ خبر امرأة العزيز يزداد انتشاراً، ورأى العزيز وصحُبه أنه لا بد من اتخاذ تدبير زَجْريّ ضد يوسف، ولو كان هذا التدبير تدبيراً ظالماً، وذلك دفاعاً عن شرف امرأة العزيز، وصرفاً للأنظار عنها إلى تثبيت التهمة في يوسف، رغم براءته عندهم وعند الله، وإلى هـذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

ومن حِكَم الأقدار أن يوسف دخل السجن معه فتَيان آخران، وكلاهما من فِتيان قصر الملك، وكانا يصحبانه ويرافقانه في

السجن، وأدركا أن ليوسف مواهب خاصة، وأن له قدرة على تعبير الرؤيا، فقصَّا عليه ذات يومٍ رؤياهما، وكانت رؤيا الأول أنه رأى نفسه يعصر خمراً، فعبَّر له رؤياه بأنه سيفارق السجن بعد قليل، وسيسقِي بعد إطلاق سراحه سيدَه خمراً ويكون ساقيَه الخاص، وطلب إليه إذا عاد إلى القصر أن يذكر لملكه أمر يوسف ويحدثه عنه، عسى أن ينصفه من امرأة العزيز ويطلق سراحه.

وانتهز يوسف فرصة اهتمام صاحبيه في السجن بتعبير رؤياهما وإصغائهما إليه، ليحدثهما بشيء من عقيدته ودينه، وهما أهمّ شيء لديه، عسى أن يهتديا على يديه إلى عقيدة التوحيد، وينصرفا عن عبادة الأصنام والأوثان. غير أن الفتى الذي فارق السجن ما كاد يعود إلى قصر سيده حتى نسي وصية يوسف الذي عبَّر له رؤياه، فلم يذكر لملكه أمر يوسف، ومضت سنوات أخرى على يوسف وهو في السجن دون أن يتذكره أحد، إلى أن رأى ملكُ مصر نفسه رؤيا أقضَّت مَضجَعه، وأثارت وساوسه، فأخذ يبحث عمن يعبِّرها له التعبير اللائق. وعندئذ تذكَّر ساقيه الخاص ـ وهو الفَتَى الذي كان في السجن مع يوسف، والذي عبر له يوسف رؤياه تعبيراً صادقاً ـ أن يوسف لا يزال في السجن، وأنه أحسن من يُعبِّر لملك مصر رؤياه، فاستأذن سيده، وذهب إلى السجن يسأل عن يوسف ويعرض عليه رؤيا الملك، فما كان من يوسف إلا أن عبر له الرؤيا أحسن تعبير، وما كان من ملك مصر إلا أن دعاه إلى مجلسه، لكنَّ يوسف أصرّ على عدم مغادرة السجن إلا بعد نظر الملك نفسه في قضيته، وإعلان براءته، واعتراف الجميع

بعفته وعصمته، وذلك ما تشير إليه الآيات الكريمة: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَـٰنِ، قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيَ أَرَىٰنِيَ أَعْصِرُ خَمْراً، وَقَالَ الآخَرُ إِنِّيَ أَرَىٰنِيَ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَاكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَاوِيلِهِ، إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، قَالَ لَا يَاتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَـٰنِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَاوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَّاتِيَكُمَا، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيَ إِبْرَٰهِيـمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَـلَى النَّاسِ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، يَـٰصَـٰحِبَيِ السِّجْنِ ءَآرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ اَمِ اللَّهُ الْوَٰحِـدُ الْقَهَّـارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ، اِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّـاهُ، ذَٰلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لَا يَعْلَمُـونَ، يَـٰصَـٰحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْـراً، وَأَمَّا الآخَـرُ فَيُصْلَبُ فَتَاكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ، قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَـٰنِ، وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُـرْنِي عِندَ رَبِّـكَ ﴾ أي عند سيدك، لكن ذلك الفتى نسي أمر يوسف بمجرد ما فارق السجن ﴿ فَأَنسَىٰهُ الشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ أي قضى يوسف في السجن سنوات أخرى من جراء نسيان صاحبه له وإهمال أمره ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي تذكر بعد مدة ﴿ اَنَآ أُنَبِّئُكُم بِتَاوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى آخر الآيات.

أما رؤيا الملك فخلاصتها أنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبعُ بقراتٍ مَهازيل، ضعاف في غاية الهزال، كما رأى

سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات، وهذه الرؤيا هي التي جاء يعرضها على يوسف رفيقُه في السجن من قبل، ذلك الرفيق الذي أصبح ساقياً للملك عقب إطلاق سراحه، فقال له فيما حكته الآيات الكريمة ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ، لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

فما كان من يوسف عليه السلام إلا أن أفتاه في أمر هذه الرؤيا وعبرها له أصدق تعبير، مبيّناً للملك وملائه أنهم سيستقبلون سبع سنوات كلها رَخاء وخِصْب، تزدهر فيها الحقول، وتزكو الغلات، ويصفو العيش وتطيب الحياة، ثم يستقبلون في أعقابها سبع سنوات من الجَدْب والقَحْط، لا يفي فيها (النِّيل) بوعده، ولا يُمدهم برِفده، ولا يجدون قائماً يُحصَد، ولا حصيداً يُخزَن، ثم بعد سنوات الجدب السبع يُظلّهم عام خصيب يغاثون فيه، فتجود عليهم الأرض بما يأكلون، ويجدون ما يأتدِمُون به ويَعصِرون، ومنبِّهاً لهم في نفس الوقت إلى أنه من الخير لهم أن لا يأكلوا كل ما يأتيهم من محاصيل سنوات الرخاء، وأن يدَّخروا أكبر قسم منها في أهرائهم ودُورهم دون أن يُخرجوه من سنابله، حتى يبقى مصوناً فيها من فعل الحشرات وفعل الرطوبة، وذلك احتياطاً لسنوات الجدب التي تليها.

وهذه المعاني هي التي تشير إليها بقية الآيات الكريمة: ﴿ قَالَ ﴾ أي يوسف ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينٍ دَأْباً ﴾ أي على الدوام وبغير انقطاع، من (دأب) على العمل إذا داوم عليه ﴿ فَمَا

حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي اتركوه بعد الحصاد في سنبله غير مدروس، ولا تدرُسوا منه إلا ما تحتاجون لأكله، علماً منه بأن الحَبَّة إذا بقيت في غشائها انحفظت، وهذا المعنى يتفق معه ما وصل إليه العلم الحديث، من أن ترك الحَبِّ في سنابله عند تخزينه فيه وقاية له من التلف، الذي يحدث عادة بسبب العوامل الجوية وغيرها من الآفات. ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ أي ثم تأتي بعد ذلك سبع سنين ذات شدة وجوع، تستهلكون فيها ما ادَّخرتموه في سنابله من سنوات الرخاء السبع، إذ تجدونه صالحاً للأكل والاقتيات ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي لا يَفضُل لكم مما كنتم خزنتموه وادخرتموه إلا القليل ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الغَيْث بمعنى المطر، أو من الغَوْث بمعنى الفرج ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ إشارة إلى ما سيكون فيه من غلَّات صالحة للعصر في المعاصر كالزيتون والعنب والسِّمْسِم.

فلما بلَّغ ساقي الملك الخاص إلى سيده تعبير يوسف لرؤياه، وفَطَن لما في تعبير يوسف من نصح بالغ وحسن تدبير، أدرك أن وراء الأَكَمة ما وراءها، وأن يوسف ليس شخصاً عادياً، فبالإضافة إلى عفته التي يعلم عنها الحقيقة ها هو يخترق حُجُب الغيب بما علَّمه الله من تأويل الأحاديث، وها هو يرى البعيد قريباً، ولا يكون في النهاية إلا مصيباً ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِۦ، فَلَمَّا جَآءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي سيدك ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾، فلم يَسَع

الملكَ إلا أن يدعو امرأة العزيز وصاحباتها، ويحقق معهن بنفسه من جديد ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾، فكان جوابُهن تأكيداً لعفته، وإعلاناً لبراءته ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ تبرئةً ليوسف ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـَٰٔنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي تبيَّن وظهر ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾ أي من الصادقين في كونه بريئاً من مراودتي، أو محاولة الاعتداء على كرامتي.

ومضت توضح السر في اعترافها بمحاولتها مع يوسف دون أدنى نتيجة، معلنةً براءة يوسف براءة مطلقة، مؤكدة أنها لا تريد أن تصر عل اتهامه كذباً وزوراً بعدما تجلَّى الحق وظهر ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ
إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ
لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾
قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ
نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾
وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾
وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا
تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ
فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ

وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ اِجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾
فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا اَلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلَ امَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ
فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظاً وَهُوَ أَرْحَمُ اُلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ
وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتِ اِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ
بِضَٰعَتُنَا رُدَّتِ اِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ
كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنُ ارْسِلَهُۥ مَعَكُمْ
حَتَّىٰ تُوتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اَللَّهِ لَتَاتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَنْ يُّحَاطَ
بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اَللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنَ ابْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اَللَّهِ مِن شَيْءٍ اِنِ اِلْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمُۥٓ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم
مِّنَ اَللَّهِ مِن شَيْءٍ اِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيٰهَا

وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ
قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾
قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ
صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾
قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ
ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ
لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ
مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِيَ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَاخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَن نَّشَآءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

في بداية هذا الربع أورد كتاب الله ضِمْن ما حكاه من كلام امرأة العزيز اعتذارها الصريح عما أصابها من نزغات الشيطان، إذ قالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِيَ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهذا الاعتذار على لسانها، بعد اعترافها ببراءة يوسف مندرج في كلامها، فحكاه كتاب الله في جملة ما حكى من أقوالها. قال ابن كثير: «وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام، وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حِدَة».

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ إشارةٌ إلى قرار ملك مصر، الصادر بجعل يوسف من حاشيته وخاصته، وأهل مشورته ووزارته، تقديراً لمواهبه، وانتفاعاً بملَكاته.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ إشارةٌ إلى ما قاله الملك ليوسف عند تنصيبه له، وتعريفه إياه بأنه قد أصبح يتمتع لدى مَلِكِه بسلطة ونفوذ، فهو (مكين) أي متمكن وذو سلطان، وهو في نفس الوقت (أمين) أي مؤتمن على شؤون الدولة، التي أصبح من كبار رجالها، وصفة (الأمانة) صفة أساسية في كل من يراد الانتفاع بمشورتهم ونصيحتهم، إذ «المستشار مؤتمن».

وقولُه تعالى: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ هذا ليس طلباً من يوسف للولاية من أصلها، فقد ولَّاه الملك بمجرد ما دعاه إليه وقال: ﴿ ائتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾، وإنما هو تنبيه من يوسف للملك إلى نوع العمل الخاص الذي يرى نفسه أهلاً للقيام به، بعد تكليفه من طرَف الملك تكليفاً عاماً، فقد كان يوسف يعلم أنّ مصر مقبلة على أيام شدة وأيام رخاء، كما فهمه من رؤيا الملك التي عبّرها له أحسن تعبير، وكان يُحسُّ من أعماق نفسه أنه إذا وُضِعَت خزائنُ مصر تحت إشرافه المباشر تصرَّف في غلَّاتها التصرف الأحوط والأرشد والأصلح لعموم الناس، واستعدَّ الاستعداد اللازم للطوارىء المنتظرة في السنوات المقبلة.

فلفت نظر الملك إلى نوع المسؤولية التي يستطيع تحملها على بيِّنة وعن جدارة، حتى لا يكلفه الملك بمسؤولية أخرى يكون حظ نجاحه فيها أقل.

وقولُه في هذا السياق ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ تبرير منه لهذا الإختيار، فهو يعرف من نفسه أنه موصوف بالحفظ والصيانة، اللازمين لكل خزانة، وهو على خبرة بالعلم المناسب لهذا النوع من العمل، ولكل عمَل علمُه الخاص به. وقد اعتمد يوسف في مجال المسؤولية والخدمة العامة على ما أكرمه الله به من حفظ وعلم، وهما من الخصال المعنوية البحتة، ولم يعرج مطلقاً على ما آتاه الله من حسن وحسب ونسب، إذ لا دخل لها في الموضوع.

وهذا المعنى الذي فسَّرنا به الآية لا يتعارض في شيء مع قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سَمُرة فيما رواه مسلم: «لا تسأل الامارة، فإنك إن أُعطِيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها»، ولا مع قوله ﷺ في حديث آخر رواه مسلم أيضاً «إنَّا لا نستعمل على عملنا من أراده». إذ موضوع الحديثين هو التهالك على الولاية العامة وطلبها من أصلها، لَا مجرد اختيار نوع العمل، بعد الاستدعاء لها والتكليف بها.

وتساءل البعض كيف استجاز يوسف عليه السلام لنفسه أن يَقبَل الولايةَ من كافر، وأجيب عنه بأنه يجوز للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، إذا علم أنه يُصلِح بعضَ الأحوال (نص على ذلك أبو القاسم ابن جُزّى في تفسيره). كما أجيب عنه بأن

معاملة الأنبياء لغيرهم لم تكن على وتيرة واحدة، بل كانت أحياناً بالسلطة والاستعلاء، وأحياناً بالسياسة والابتلاء، وهذا منها، كما نص عليه أبو بكر (ابن العربي) في أحكام القرآن.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ إشارةٌ إلى ما أكرم الله به يوسف من الحرية والسعة والنفوذ والتصرف في أرض مصر، بعدما ابتلاه فيها بالرق والضيق والسجن الطويل. ثم عقب كتاب الله على ذلك بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، إشارةً إلى الفرج والنصر، اللذين يأتيان في أعقاب الثبات والصبر.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى قدوم اخوة يوسف إلى مصر بقصد الحصول على القوت اللازم لهم، إذ كانت بلاد كنعان حيث يستقر يعقوب عليه السلام قد أصابها القحط والجدب، وكانت أخبار عزيز مصر وإحسانه إلى الناس قد بلغت أصداؤها إليهم، وبهذه المناسبة دخلوا على يوسف وهو في أبهة الرياسة وهيبة السلطة فعرفهم يوسف، دون أن يتعرفوا عليه، على خلاف العادة في الجماعة.

والسر في ذلك أنهم فقدوا يوسف وهو في سن الصبا، فتغيرت ملامح وجهه عما كانت عليه، ومنذ اشتراه العزيز لامرأته واتخذاه فتى لهما كان كالمكتوم عن الناس، ثم أقام محبوساً ما شاء الله أن يقيم، وبطول المدة عَمِيَ أمره، وخفِيَ خبره على أبيه

واخوته. يضاف إلى ذلك أن أحداً منهم لم يكن يتخيل أن يصل الأمر بمثله إلى ما وصل إليه من الجاه والنفوذ ومظاهر السلطان، ثم إن المركز الذي أصبح يحتله في الدولة يدعوهم إلى أن يتهيَّبوه عند المخاطبة لشدة حاجتهم إليه، وكلُّ هذه أسباب تجعل تعرُّفهم عليه، فضلاً عن إطالة النظر إليه، أمراً عسيراً، بينما يوسف في هذه الحال متمكن من الأمر، متفرغ الذهن، لا يصعب عليه تأمل ملامحهم وملاحظة أحوالهم ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى حكايةً عن اخوة يوسف لأبيهم ﴿ يَـٰأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما طالبهم به يوسف من احضار أخ لهم من أبيهم، ومراده بذلك أخوه الشقيق (بنيامين) كشرط للسماح لهم بالحصول في المستقبل على التموين الضروري لأسرتهم، وكان هذا الإجراء من يوسف تلطفاً في احضار أخيه ثم لقاء أبيه بالوجوه التي أباحها الله.

ومما تنبغي ملاحظته في هذا السياق استعمالُ اخوة يوسف - بغية اطمئنان أبيهم يعقوب على أخيهم بنيامين - نفسَ العبارة التي استعملوها ليطمئن على أخيهم يوسف من قبل، فكما قالوا لأبيهم أولاً بخصوص يوسف ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ قالوا لأبيهم أخيراً بخصوص بنيامين شقيق يوسف ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾. وهذا هو السر فيما رد عليهم به أبوهم يعقوب، إذ قال لهم فيما حكاه عنه كتاب الله ﴿ قَالَ هَلَ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾. ثم عقَّب على تعهدهم القديم بحفظ يُوسُفُ، وتعهدهم الجديد بحفظ أخيه

بنيامين، مؤكداً لهم أن الحافظ من كل سوء على وجه التحقيق هو الله تعالى وحده دون سواه ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظاً، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾. ثم صارحهم بعد ذلك بأنه لن يغامر بإرسال ابنه بنيامين معهم هذه المرة، إلا إذا أعطوه المواثيق والعهود، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّآ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقون الإتيان به ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ: اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

وقولُه تعالى حكايةً عن يعقوب عليه السلام مخاطباً لأولاده ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ تنبيه من يعقوب لأبنائه إلى عدم الدخول إلى مصر من باب واحد، حتى لا يستلفتوا الأنظار، وحتى لا تصيبهم الأعين الشريرة بشَرَرها.

قال ابن قَيِّم الجوزية: «فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود. فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشبهُ الأشياء بهذا: الأفعى، فإن السّم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت نفسُها بكيفية خبيثة مؤذية». وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي) ما خلاصته: «لَا خلاف بين الموحدين أن العين حق، ومِن أبدع ما خلق الله النفس، ركَّبها في الجسم، وجعلها معلومة للعبد ضرورة، لكنها مجهولة الكيفية، إن جاء ينكرُها لم يقدِر، لِمَا يظهرُ من تأثيرها على البدن وجوداً وعدماً، وإن أراد المعرفة لها لم يستطع، لأنه لا يعلم لأي شيء ينسبها، ولا على أي معنى يقيسها... ولها آثار

يخلقها الباري في الشيء عند تعلقها به، منها العين، وهو معنى يحدث بقدرة الله على جَرْي العادة في المَعِين إذا أعجب منظرُهُ العائن فيلفظ به. ولهذا المعنى نُهي العائن عن التلفظ بالإعجاب، لأنه إن لم يتكلم لم يضرَّ اعتقادهُ عادة. وكذلك سبق من حكمة الله أن العائن إذا بَرَّك - أي قال تبارك الله - أسقط قولُه بالبركة قولَه بالإعجاب، وامتنع ضرره، وإن اغتسل العائن شُفِي مَعِينه، وهذه خواص شرعية، بحِكَم إلَهية، يشهد لصدقها وجودها كما وصفت» انتهى كلام ابن العربي. وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». وفي سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المَعِين».

وقولُه تعالى حكايةً عن يعقوب عليه السلام في نفس السياق ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الآية: ٦٧] إشارةٌ إلى أن هذا التدبير الذي نصحهم به أبوهم إنما هو تدبير احتياطي مظنون النفع، وإلا فإن الأمر في الحقيقة بيد الله «ولا ينفع حذر من قدر»، ولذلك وقع التعقيب بعده بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيٰهَا﴾. والمعنى أن ذلك الاجراء الذي نصحهم به يعقوب لا يدفع قضاء الله، وإنما هو قضاء لحاجة في نفس يعقوب، وهذه الحاجة التي كانت في نفسه هي شفقته عليهم من أن يصيبهم في هذه المرة ما أصابهم في المرة الأولى،

فيرجعوا إليه وقد فقدوا أخاهم بنيامين، كما رجعوا إليه من قبل وقد فقدوا أخاهم يوسف.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّيَ أَنَاْ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما قابل به يوسف إخوته جميعاً من كرم الضيافة وحسن الصلة، وإلى ما قابل به أخاه الشقيق بنيامين بالخصوص من عطف خاص، عندما اختلى به وعرّفه بأنه هو أخوه يوسف، وطَمْأنه على مصيره، رغماً عن الاجراءات الظاهرة التي سيتخذها للاحتفاظ به عنده، كرهينة خاصة في مقابل (صاع الملك) الذي سيوجد في رَحْله، والذي سيكون وَضعُه فيه بمعرفة يوسف ومساعديه الأقربين، ﴿ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَآؤُهُ ﴾ وذلك في انتظار أول فرصة يستقبل فيها أباه وإخوته جميعاً، حيث يرتفع الستار عن آخر مشهد لهذه القصة الخالدة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ، مَا كَانَ لِيَاخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَن نَّشَآءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

قَالُوٓاْ إِن
يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ
فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ
أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا
كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ
إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ
قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا
مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ
حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾
ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ
أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ
يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ
كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى
تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا
بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْئَسُوا مِن
رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا
الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ
وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ
هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ
جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ
وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ

فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ
ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾
قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾
فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ
مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ
وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ
قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ
ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ

بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠

الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ يَّسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ، قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ، انَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

في بداية هذا الربع تشير الآية الكريمة إلى قول إخوة يوسف بعد أن وُجِد (صاع الملك) في رَحْل بنيامين شقيق يوسف، وكان وضعُه في رَحْله بمعرفة يوسف نفسه، كمبرر للاحتفاظ بأخيه عنده، في انتظار الفرصة المواتية لدعوة أبيه وجمع الشمل مع أعضاء عائلته كلهم في المستقبل القريب ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ يَّسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ وغرضهم من هذا القول فيما يظهر هو أن يبرِّئوا ساحتهم، ويلقوا المسؤولية على أخيهم بنيامين شقيق يوسف، مع ادعاء أن أخاه من قبل ـ ويعنون به يوسف ـ كان قد سبق منه نفس العمل، وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن هناك استعداداً نفسياً أو وراثياً خاصاً في كل من هذين الأخوين لمثل

هذا التصرف، مَرَدُّه إلى أنهما تناسلا من أم أخرى غير الأم التي تناسلوا هم منها، ولذلك كانوا برءاء، وكان يوسف وشقيقه متهمَيْن ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ عندما قالوا ذلك وهم ماثلون أمامه بصفته عزيز مصر، وكانوا لم يعرفوا بعد أنه هو يوسف نفسه، لكنه فيما بينه وبين نفسه ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تعليقاً على زعمهم في تبرئتهم لأنفسهم.

ثم أخذ إخوة يوسف يستعطفون عزيز مصر - وهو نفس يوسف في هذا العهد - محاولين استرجاع أخيهم للأب، ولو بتعويضه بآخر منهم ﴿قَالُواْ يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَيٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، لكن خطة يوسف الحكيمة كانت تقتضي الاحتفاظ بشقيقه بنيامين بالخصوص إلى نهاية المطاف ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَّجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذاً لَّظَـٰلِمُونَ﴾. وها هنا أكد يوسف عليه السلام مبدأ المسؤولية الفردية، والتَّبِعَة الشخصية، وهو أنه «لا تزِر وازرة وِزْرَ أخرى» ولا يؤاخذ أحد بما فعل غيره، انسجاماً مع ظاهر الحال في هذه الواقعة.

ولما أدرك إخوةَ يوسف اليأسُ من نجاح محاولتهم في استرداد بنيامين، أو تعويضِه بآخر منهم، اجتمعوا وتناجوا فيما بينهم ماذا يكون موقفهم تِجاه أبيهم يعقوب، وماذا يبرِّرون به حجز أخيهم بنيامين، وبقاءه في مصر دونهم، وكان من شدة وقع هذه الحادثة في أنفسهم أن انفصل عنهم أخ ثالث هو أكبرهم

جميعاً، إذ أحس بثقل المسؤولية، وتذكَّر المَوْثق الذي واثقوا عليه أباهم يعقوب، ولم يعد يستطيع أن يواجه أباه، خجلاً منه، وخوفاً من مؤاخذته، فقرر البقاء في مصر، إلى أن يسمح له أبوه ويأذن له بالعودة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾ أي انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمُ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدَ اَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللَّهِ، وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُّمْ فِي يُوسُفَ، فَلَنَ اَبْرَحَ الاَرْضَ ﴾ يريد الموضع الذي وقعت فيه الحادثة ﴿ حَتَّىٰ يَاذَنَ لِيَ أَبِيَ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي، وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ ﴾. ثم قال لباقي اخوته ﴿ ارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰأَبَانَآ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ، وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أي بما علمنا من ظاهر الحال ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾ إشارةً إلى أنهمَ حين أعطوا الميثاق لأبيهم في شأن المحافظة على أخيهم لم يكونوا يعرفون أنه سيسرِق، أو إشارةً إلى أنهم لا يعرفون حقيقة الأمر الواقع في شأن السرقة المتهم بها أخوهم بنيامين ﴿ وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ أي اسأل أهل القرية ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِيَ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي اسأل أصحاب العير الذين رافقناهم في السفر، ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾.

وعاد إخوة يوسف من رحلتهم المثيرة، وقد تركوا وراءهم بنيامين في قبضة عزيز مصر ظاهراً، وفي ضيافة شقيقه يوسف باطناً، وانفصل عنهم كبيرهم، فبقي في عين المكان الذي وقعت فيه الحادثة، فراراً من مواجهة أبيه يعقوب، وبذلك أصبح أبوهم فاقداً لثلاثة من أبنائه بدلاً من واحد، ولم يسعه إلا أن يتهمهم بأن

في الأمر مكيدة جديدة، كما اتهمهم من قبل بالمكيدة بالأولى.

وكما قال لهم في شأن الواقعة الأولى بخصوص يوسف ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ قال لهم في شأن الواقعة الثانية بخصوص بنيامين ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾. و«الصبر الجميل» يطلق على الصبر الذي لا يصحبه جزَع ولا شكوى. لكن أباهم يعقوب لم يفقد رجاءه في الله، ولا في حسن العاقبة له ولأبنائه الثلاثة، فقال ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَّاتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

وثارت في نفس يعقوب بهذه المناسبة ذكريات ابنه يوسف الذي لم يعد يعرف عنه شيئاً منذ فَقَده في طفولته، وكاد يفقِد بصره من شدة الحزن عليه وكثرة البكاء، وهذا الحزن البالغ من طرف يعقوب على ابنه يوسف لا يستغرب منه، إذا تذكرنا أمرين في هذا المقام:

أولهما ما كان عليه ابنه يوسف من الصفات والخصال النادرة التي امتاز بها عن بقية اخوته، حتى قالَتْ في شأنه صاحبات امرأة العزيز ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً، إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ مما يحمل أيّ والد كان على الاهتبال بولد ممتاز من هذا النوع، ويدفعه إلى الشغف به والحزن على فقده إلى أقصى حد.

وثانيهما ما ظنه يعقوب نفسه من أنه ارتكب في حق يوسف نوعاً من التقصير والإهمال، عندما تركه أول مرة يرافق إخْوته في سفرهم، ويوسف لا يزال في سن مبكرة، وهو يعرف أن اخوته يغارون منه أشد الغيرة، وكل واحد من هذين الأمرين كافٍ لأن

يضاعف الكمد ويزيد في الحزن ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عن أبنائه بعدما سمع كلامهم واعتذارهم دون أن يُصدّقهم فيما قالوا ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ، وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي من البكاء الناشىء عن الحزن العميق، حيث يزداد الضغط على العينين وتبدو العين بيضاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي كظَم غيظَه، وأقبل على الله يشكو إليه دون سواه، لكن أبناءه قاطعوه في غمرة الحزن، خوفاً من أن تزداد حالته سوءاً بذكر يوسف والأسف عليه، ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً ﴾ أي ضعيف القوة مشرفاً على الهلاك ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَـٰلِكِينَ ﴾. فما وسع يعقوب إلا أن رد عليهم في الحين قائلاً: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ و «البَثُّ» هنا بمعنى الهم.

وقولهُ في نفس السياق ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تلويح إلى أنه لن يسيء ظنه بالله، وإشارةٌ إلى شعوره الخاص بأنّ يوسف لا بد أن يكون على قيد الحياة، ولا بد أن تتحقق رؤياه في يوم من الأيام، مهما كانت الظواهر لا تدل على شيء، ولذلك دعا أبناءه إلى المزيد من البحث عن يوسف وأخيه بنيامين، ونهاهم عن اليأس من رحمة الله، اعتماداً على المعهود من لطفه الخفي بعباده المخلصين ﴿ يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ و«التحسُّس» التعرف إلى الشيء عن طريق الحواس، والمراد هنا تتبع أخبار يوسف وأخيه ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ أي من رحمته ﴿ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

وامتثالاً لأمر أبيهم يعقوب أعاد فريق من أبنائه الكرَّة، تاركين الفريق الآخر مع أبيهم، فرحلوا إلى مصر من جديد، واتخذوا جميع الوسائل للمثول مرة أخرى بين يدي عزيز مصر ـ وهو في الحقيقة أخوهم يوسف ـ طالبين منه إسعافهم بالتموين اللازم لهم، مقابل أخذه منهم بضاعة قليلة جاؤوا بها، ولم يكتموا عنه طمعهم في أن يُوفِيَ لهم الكيل، ورجاءهم في أن يتصدق عليهم بما تجود به نفسه الكريمة ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ والضر يشمل المجاعة التي أصابت بلادهم، والهم الذي نزل بعائلتهم ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ﴾ أي بضاعة قليلة ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

وفي هذه المناسبة انتهز يوسف الفرصة، فكشف عن وجهه النقاب، وعرَّفهم بأن «عزيز مصر» الذي يتحدثون إليه الآن هو أخوهم يوسف بالذات، وأن أخاهم الذي حجزه عنده في المرة الماضية هو أخوه بنيامين، وإذن فهم الآن بين أفراد أسرتهم، وأمام واحد منهم، وذكَّرهم بما فعلوه به وبأخيه، ناسباً ذلك الفعل إلى ما كانوا عليه في حال الفُتُوة من جهل بحقائق الأمور، وغفلة عن خفايا الأقدار، واستعرض أمامهم نعمة الله عليه وعلى أخيه، وأن مصير كل من اتقى وصبر، هو الفوز والظفر ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ، قَالُوٓاْ أَ.نَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ، قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِي، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَآ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وعندما عرفوا حقيقة الأمر اعترفوا بفضل الله على أخيهم يوسف، وبإيثار ربه له عليهم، لحكمة يعلمها ـ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِهِ ﴾ [الانعام: ١٢٤] واعترفوا في نفس الوقت بالخطيئة التي ارتكبوها في حقه، لكنه أجابهم بجواب كله حلم وصفح، وعفو ورحمة ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدَ ـ اثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ من «الخطيئة» بمعنى المعصية، لا من «الخطأ» ضد الصواب، فمن الخطأ يقال «مخطىء» لا «خاطىء». ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ أي لا ملامة عليكم، ولا تعنيف لكم ﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

ثم أعطى يوسفُ لإخوته بعد اعترافهم واعتذارهم قيمصَه الخاص ليحملوه إلى أبيه يعقوب، شاهداً بحياته، مع دعوة رسمية منه إليه وإلى كافة أفراد عائلته بالقدوم عليه إلى مصر ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَاذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَاتِ بَصِيراً وَاتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وما كادت العِير التي يرافقها أبناؤه تفارق أرض مصر وهم في طريقهم إليه يحملون معهم قميص يوسف، حتى أخذ يعقوب يحدث بقية أبنائه الذين بقوا ملازمين له بأنه يجد رائحة قميص يوسف من بعيد، وخشي من استبعادهم لهذا الإحساس الخاص، ومن تفنيدهم له، لأنهم لا يدركون سرّه ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي فارقت مصر ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أي لمن بقي معه ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾.

وما كاد مَن معه من أبنائه يسمعون مقالة أبيهم يعقوب، حتى

استغربوها، وتذكروا قولة اخوتهم في شأنه من قبل ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ استغراباً منهم لإفراطه في محبة يوسف والشغف به، فرددوا مثلهم نفس الفكرة والعبارة، ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَـٰلِكَ الْقَدِيمِ ﴾. قال قتادة: أي من حُب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه. «يقال سلى يسلَى وسلا يسلو». ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَيـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ أي ما كاد البشير يُلقِي أمامه «قميص الفَرحة» حتى شفاه الله من كل أثر «لقميص القَرْحة». وهكذا اختار يوسف أن تكون بشرى أبيه في النهاية بقميص، كما كانت فاجعته في البداية بقميص ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾.

ولم يلبث يعقوب عليه السلام أن ذكَّر أبناءه جميعاً بقوله من قبل ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ والتفت إليهم قائلاً: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. فما كان منهم إلا أن أقبلوا عليه يسألونه العفـو عنهم، وطلب المغفرة لهم، معترفين بخطيئتهم ﴿ قَالُواْ يَـٰأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

ولبَّى أب يوسف وأمه وإخوته جميعاً دعوته، فاستقبلهم رُسُل يوسف أحسن استقبال، وبمجرد ما مَثَلُوا بين يـديه رغّبهم في الإقامة معه بمصر آمنين مطمئنين، أعزاء محترمين ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً ﴾ أي انحنَوا أمام يوسف بصفته «عزيز مصر»، انحناءة الإجلال والتوقير، طبقاً «للتشريفات» المعتادة في ذلك العصر، وليس المراد أنهم سجدوا له السجود

المعهود في عبادة الله ﴿وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ يشير إلى رؤياه «إني رأيت أحد عشر كوكباً» وهم إخوته «والشمس والقمر» وهما أبوه وأمه «رأيتهم لي ساجدين». ثم حكى كتاب الله ما نطق به يوسف، من شكر لله على فضله ولطفه إذ قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ، مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَـٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيَ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ، انَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ
ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا
وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ
وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم
مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ
سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

وَمَآ أَنَا۠ مِنَ اَ۬لْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالٗا
يُوحَيٰٓ إِلَيْهِم مِّنَ اَهْلِ اِ۬لْقُر۪يٰٓۖ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِے اِ۬لَارْضِ
فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُ۬لذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ وَلَدَارُ
اُ۬لَاخِرَةِ خَيْرٞ لِّلذِينَ اَتَّقَوْاْۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَۖ ﴿١٠٩﴾ حَتَّيٰٓ إِذَا اَسْتَيْـَٔسَ
اَ۬لرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنجِے
مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ اِ۬لْقَوْمِ اِ۬لْمُجْرِمِينَۖ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ
كَانَ فِے قَصَصِهِمْ عِبْرَةٞ لِّأُوْلِے اِ۬لَالْبَٰبِۖ مَا كَانَ
حَدِيثاٗ يُفْتَر۪يٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ اَ۬لذِے بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَےْءٖ وَهُديٗ وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُومِنُونَۖ ﴿١١١﴾

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

أَلْمٓرۜ تِلْكَ ءَايَٰتُ اُ۬لْكِتَٰبِۖ وَالذِےٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ اَ۬لْحَقُّۖ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ اَ۬لنَّاسِ لَا يُومِنُونَۖ ﴿١﴾ اُ۬للَّهُ اُ۬لذِے رَفَعَ اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ
تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ اَسْتَو۪يٰ عَلَى اَ۬لْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ اَ۬لشَّمْسَ وَالْقَمَرَۖ كُلّٞ
يَجْرِے لِأَجَلٖ مُّسَمّيٗۖ يُدَبِّرُ اُ۬لَامْرَ يُفَصِّلُ اُ۬لَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَۖ ﴿٢﴾ وَهُوَ اَ۬لذِے مَدَّ اَ۬لَارْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰراٗۖ
وَمِن كُلِّ اِ۬لثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اِ۪ثْنَيْنِۖ يُغْشِے اِ۬ليْلَ اَ۬لنَّهَارَۖ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ
مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ
يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، وبـدايتـه قولُه تعالى في سورة يوسف المكيـة ﴿رَبِّ قَـدَ ـ اتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَـاوِيـلِ الاَحَـادِيثِ، فَاطِـرَ السَّمَـوَٰتِ وَالاَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الـدُّنْيـا وَالاَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـٰلِحِينَ﴾ ونهايته قوله تعالى في سورة الرعـد المكية أيضـاً ﴿وَفِي الاَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنَ اَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِـدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الاُكْـلِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أول آية في هذا الربع هي آخر آية وردت في موضوع قصة يوسف بالذات، وهي تشير إلى الأثر العميق الذي تركه في نفس يوسف جمعُ شمله مع أبويه وإخوته، وتوذن ببالغ شكره لله على سابغ نعمته، واعتماده المطلق على رعايته وولايته:

﴿رَبِّ قَدَ ـ اتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ في هذا إشارة إلى ولايته

لمنصب العزيز لدى ملك مصر، وما أدركه من السلطة والنفوذ فيها بحكم ذلك المنصب.

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ في هذا إشارة إلى ما أكرمه الله به من نفاذ البصيرة، وصدق الفراسة، مما ظهر أثره في تعبيره رؤيا ملك مصر، وتعبير رؤيا صاحبَيْه في السجن، وتأويل رؤياه نفسه التي جاءت مثل فلق الصبح.

﴿ فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ هذه مناجاة من يوسف لربه، وتضرع بين يديه، وتوكل عليه.

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴾ هذا دعاء من يوسف إلى الله بحسن الخاتمة والموت على الإسلام، واللّحاق بالصالحين في دار السلام، حتى يُتم الله عليه نعمته في الآخرة كما أتمَّها عليه في الدنيا.

وكلمة (الصالحين) متى وردت في الذكر الحكيم فالمراد بها كل مومن أدَّى ما عليه من حقوق الله وحقوق العباد، من أي جيل كان، قديماً أو حديثاً، ولو كان مجهولَ القُبَّة مجهول التاريخ، لَا قُبة عليه ولا ضريح، فالعِبرة في هذا اللقب لقب «الصلاح» و (الصالحين) إنما هي بمجرد العمل الصالح المقبول عند الله، لَا بما سواه.

وقوله تعالى هنا حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً ﴾ لا يلزم أن يكون سؤالاً ناجزاً للموت وتمنياً لها في الحين، كما فهمه بعض المفسرين، وإنما هو من باب الدعاء

المعتاد كقول الداعي: (اللهم أَحْيِنا مسلمين، وتوفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين). وقد نهى رسول الله ﷺ عن سؤال الموت وتمنِّيها. رُوي في الصحيحين وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنيَنَّ أحدُكم الموتَ لضر نزل به، إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعْتِب - أي يسترضِي ربه ويتوب - ولكن ليقل: اللهم أحيِني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وقولُه تعالى عند انتهاء قصة يوسف ﴿ ذَٰلِكَ مِنَ اَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمُ إِذَ اَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ تعليق على هذه القصة وما شابهها من قصص الأنبياء، بأن العلم بها والاطلاع على دقائقها، دليل جديد يضاف إلى دلائل النبوة، فهي من قبيل العلم بالمجهول، الذي كان مغيباً عن الرسول، إذ الرسول عليه السلام لم يعاصر يوسف ولا إِخْوَته، ولم يشاهد الظروف التي لابست قصته، ومع ذلك فإن الوحي يأتيه بلبِّها، ويكشف له عن سرِّها، لما فيها من حِكَم وعِبَر، يتَّعظ بها من تقدم ومن تأخر.

ثم عقّب كتاب الله على ذلك كله بأنه مهما كان حرص الرسول عظيماً على إيمان الناس وهدايتهم بجميع الوسائل، فإنه لا سبيل إلى إلجائهم للإيمان وإكراههم عليه ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُومِنِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ، اِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ إشارةٌ إلى أنّ نُصح الرسول للناس، وقيامَه بدعوتهم

إلى الحق إنما هو تطوُّع منه في سبيل الله، امتثالاً لأمره، وقياماً بحقه، فلا مطمع له من ورائه في مال أو جاه، وإنما هدفه الوحيد منه ربط صلتهم بالله، وكلما كانت دعوة الداعي لغيره خالية من الطمع فيه، كانت أقرب إلى التأثير عليه.

وقولُه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنَ ءَايَةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما عليه عُمْي البصائر والأبصار من الغفلة عن ملكوت الله، والذهول عن آياته الباهرة، رغماً عن كونها معروضة على أقوى وجه وأحسنه في كتاب الكون الفسيح، وهي بمرأى ومسمع من جميع الناس، في جميع الأزمان، وفي كل مكان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يندرج تحته مشركو العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام ويقولون إنها تقرِّبهم إلى الله زلفى، ويندرج تحته اليهود الذين يقولون: عُزَيرُ ابن الله، والنصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، كما يندرج تحته كلُّ من نسب الضر والنفع والعطاء والمنع إلى غير الله، وكلُّ من علَّق أمله ورجاءه على المخلوق، لا على الخالق، وكلُّ من حلف بغير الله، بدلاً من أن يحلف باسم الله، وكلُّ من عمل عملاً ليُراءِي به الناس، دون أن يقصد به وجه الله، فهؤلاء جميعاً يندرجون بوجه أو آخر تحت قوله تعالى هنا ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾. روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «مَن حلف بغير الله فقد أشرك». وروى أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرُّقَى والتَّمائم

والتِّوَلَة ـ أي السحر وما أشبهه ـ شِرْك». وروى أحمد والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «من تعلق شيئاً وُكِلَ إليه». وروى أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَلَّق تميمة فقد أشرك». وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكَه». وروى أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله. قال: الرياء». وخطب أبو موسى الأشعري فقال: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دَبِيب النمل».

ومن هنا رفع عدد من علماء الإسلام عقيرتهم ضد بعض المظاهر المبتدعة التي يرتكبها العوام عند زيارة مدافن أهل الفضل وأضرحتهم، وإنما رفع أولئك العلماء عقيرتهم ضدها، نصحاً منهم لعوام المسلمين، حتى لا يقعوا بسببها تحت طائلة الشِّرْك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفي طليعة العلماء الذين جاهروا بالنصح في هذا السبيل حجة الإسلام الغزالي نفسه، وهو من كبار العارفين، في كتابه الشهير (الاحياء)، فقد قال رحمه الله في أواخر كتابه (الاحياء) عند كلامه على زيارة القبور ما نصه: «زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، والمستحب في زيارة القبور أن يقف ـ أي الزائر ـ مستدبر القبلة، مستقبلاً بوجهه الميّت، وأن يُسلّم، ولا يمسح القبر، ولا يمسّه، ولا يقبّله، فإن ذلك من عادة

النصارى» وكفى «بحجة الإسلام» حجةً في هذا المقام.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما يترتب على الغفلة عن الله، والإعراض عن تدبر آياته، وعدم الاعتبار بسُننه التي جرى عليها في خلقه، من مداهمة العذاب، والمفاجأة بالعقاب، بينما العقل السليم يقضي بوجوب الاستعداد لكل الطوارىء، والتسلح لمواجهتها بالإيمان الخالص، والعمل الصالح، والتزود بزاد التقوى، لكن الغفلة التي استولت على الغافلين، جعلتهم آمنين مكر الله، أو شبه آمنين، ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الاعراف: ٩٩].

ثم اتجه الخطاب الإلٓهي إلى الرسول الأعظم قائلاً: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾. وفي هذا الخطاب يأمر الله رسوله بأن يبلِّغ الناس أجمعين أن ملة الإسلام هي السبيل الوحيد إلى الله ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [ءال عمران: ٨٥] كما يأمره بأن يبلّغ الناس أجمعين أن الدعوة التي جاء بها هي دعوة إلى الله، مجردة من كل غرض، إلا ابتغاء مرضاة الله ﴿ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وأن دعوته منبثقة عن إيمان صحيح، ويقين تام، وحجة قائمة، فهو منها على بيّنة ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾، وأن هذه الدعوة دعوة خالدة مستمرة، يقوم بها ويبلغها إلى الناس ما دام على قيد الحياة، ويقوم بها من بعده ورثته وأتباعه

إلى يوم الدين ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أي أدعو إلى الله أنا ومن اتبعني.

وقوله تعالى على لسان رسوله ﴿ وَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ، وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ضرب للمثل، حتى يقوم كل داعٍ إلى الله بتنزيهه عما لا يليق به، وحتى يتبرأ من الشرك وأهله براءة تامة.

ثم تحدث كتاب الله عن الرسل السابقين، وعن عاقبة الكافرين بهم والمكذبين، داعياً الذين خلفوهم من بعدهم، وساروا عل نهجهم، أن يعتبروا بهم، ويتراجعوا عن غيّهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحىٰ إِلَيْهِم مِّنَ اَهْلِ الْقُرىٰ، أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وقولهُ تعالى في بيان عاقبة المتقين ﴿ وَلَدَارُ الاَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلذِينَ اتَّقَوْاْ، اَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أضيفت فيه «الدار» إلى «الآخرة» على غرار قولهم: مسجد الجامع ويوم الخميس كما نص عليه ابن كثير.

ثم بيَّن كتاب الله أن الله تعالى لا يخذل رسله أبداً، وأن نصره ينزل عليهم في أحرج الأوقات وأشد الأزمات، وذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْـَٔسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ومعنى الآية: حتى إذا استيأس الرسل من كفار قومهم، واستأخر العذاب عن أولئك الكافرين، وظن الكافرون أن الرسل كاذبون في إنذارهم، جاء النصر من عند الله، فنجَّى الله القوم المومنين، وعذَّب القوم المجرمين ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَـا فَنُنجِي مَن نَّشَآءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

وكما بُدئت سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ ﴾ خُتمت أيضاً بتأكيد ما في عَرض قِصص الرسل وأممهم من عِبر وحِكم، وما يستفاد منها من هدى وبيان، مما يوجب تلاوة كتاب الله بمزيد التدبر والإمعان، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ - أي في حكاية أخبارهم - ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَـٰبِ ﴾ - أي العقول - ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ، وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا
تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥
وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ
ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ
أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧
ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ
وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ
ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ
هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ
ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن
يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾
لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم
بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا
دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ
خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ
ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا

فَاحْتَمَلَ اَ۬لسَّيْلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِے اِ۬لنّ۪ارِ اِ۪بْتِغَآءَ حِلْيَةٍ
اَوْ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثْلُهُۥۖ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اُ۬للَّهُ اُ۬لْحَقَّ وَالْبَٰطِلَۖ فَأَمَّا اَ۬لزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ اُ۬لنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِے اِ۬لَارْضِۖ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ اُ۬للَّهُ اُ۬لَامْثَالَۖ ١٧ لِلذِينَ اَ۪سْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ اُ۬لْحُسْنَيٰۖ وَالذِينَ
لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوَ اَنَّ لَهُم مَّا فِے اِ۬لَارْضِ جَمِيعٗا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَافْتَدَوْاْ
بِهِۦٓۖ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ اُ۬لْحِسَابِۖ وَمَأْوِيٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِيسَ اَ۬لْمِهَادُ ١٨

الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَباً إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ، وَأُوْلَـٰئِكَ الأَغْلَـٰلُ فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ، وَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوَيـٰهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِيسَ الْمِهَادُ ﴾.

في الحصة الماضية فرغنا من تفسير سورة يوسف المكية، ولم يتسع الوقت للشروع مباشرة في تفسير سورة الرعد المكية أيضاً، واليوم نشرع في تفسيرها مستعينين بالله، إنه وليُّ التوفيق.

وأول ما نَلِفت إليه النظر تسمية هذه السورة الكريمة باسم «سورة الرعد» أخذاً من قوله تعالى في هذه الآية ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَـٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾.

وثاني شيء نلفت إليه النظر، بمناسبة ابتداء هذه السورة بحروف الهجاء المقطعة «أ. ل. م. ر» أنه ما من سورة بُدئت

بهذه الحروف إلا وجاء في أعقابها الانتصار للقرآن، وتبيين أنه نزل من عند الله، وأنه حق لا شك فيه ولا ريب، كما نص على ذلك كثير من المفسرين، ولا سيما ابن كثير، بناءً على استقرائه في التفسير.

وثالث شيء نلفت إليه النظر التناسب الواقع بين نهاية سورة يوسف، وبداية سورة الرعد المكِّيَّتين، فقد خُتِمت سورة يوسف بالحديث عن القرآن ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرىٰ، وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾ كما افتُتِحت سورة الرعد بالحديث عن القرآن ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ، وَالذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾.

وتحدث كتاب الله عما أبدعه بديع السماوات والأرض من مختلف الأكوان في العالم العُلْوِي والعالم السُّفْلِي، داعياً كل الناس، عل اختلاف الألوان والأجناس، إلى تأمل آياته الكونية، تمهيداً للإيمان بآياته الدينية، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الذِي رَفَعَ السَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، يُدَبِّرُ الاَمْرَ، يُفَصِّلُ الاَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ، وَهُوَ الذِي مَدَّ الاَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَـٰراً، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الاَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنَ اَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ تُسْقىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الاُكْلِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ففي هذه الآيات الكريمة عرض سريع وخاطف لمظاهر متنوعة من صنع الله العجيب، وظواهرَ دقيقة من تدبيره المحكم، مما يبعث على التفكُّر والتدبر كل من عنده عقل أو فكر.

والوحي الإلّهي الذي امتاز به الإسلام لا يتهيَّب أن يحتكم دائماً إلى العقل الناضج والفكر السليم، وأن يعتمد عليهما، بل هو واثق بانتصاره أمام فحصهما، مطمئن إلى إقناعه لهما، لأنه منبثق من صميم الفطرة الأصيلة التي فطر الله الناس عليها، ولا يوجد أي تعارض أو تناقض بينه وبينها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ - ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا ﴿ اللَّهُ الذِي رَفَعَ السَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، تَرَوْنَهَا ﴾ [الآية: ١٠]، وقد فهم بعض المفسرين أن الضمير في كلمة «ترونها» يعود على السماوات، تأكيداً لنفي العَمَد عنها، أي أن السماوات مرفوعة بغير عمد، كما ترونها، فهي لَا ترتكز على أي شيء، ما عدا قدرة الله التي تمسكها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر: ٤١] ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥].

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الضمير في (ترونها) عائد على العَمَد لا على السماوات، فيكون معنى (بغير عمد ترونها) أن السماوات ليس لها عَمَد مرئية، ومفهوم ذلك أن للسماوات عَمَداً، لكن عَمَدها لا تُرى، وإلى هذا التأويل ذهب

ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم إذ قالوا: «لها عَمَد، ولكن لا تُرَى».

وهذاالتأويل الثاني هو الذي يتمشى معه ما ذهب إليه بعض المعاصرين في تفسير هذه الآية، من أن كُتَل الأجرام السابحة في الفضاء الفسيح، الهائلة ثِقَلاً وكثافة وحيِّزاً، وإن كان يظهر لنا أنها لا ترتكز على شيء يَدْعَمها ويرفع ثقلها الهائل، فإن هناك شيئاً محققاً يمسكها ويتحكم فيها قبضاً وبسطاً، بإرادة الله وحسن تدبيره، وهذا الشيء الخفي هو (قانون الجاذبية)، الذي اهتدى إلى ادراكه علماء الطبيعة بعد جهد جهيد، فالعَمَد التي لا تُرَى هي «الجاذبية» التي تجذب الثقيل إلى الأثقل، والكبير إلى الأكبر، وصدق الله العظيم.

وقوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ لا يناقض مبدأ أن الأرض مكوَّرة، فالمَدُّ واقع من جهة أن كل قطعة من الأرض على حدتها ممدودة، والتكوير واقع من جهة أن جملة الأرض لها شكل كروي، ولا تعارض بين الأمرين.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ معناه الظاهر، والمحسوس، أنه سبحانه خلق من الثمرات أنواعاً متعددة، وخلق من نوع الثمرة الواحدة عدة أصناف، مختلفة الأشكال والألوان والروائح والطعوم والأحجام والمنافع، مما يدل على عظيم قدرته، وجليل حكمته، فهناك مثلاً عنب أسود وأبيض، وتفاح حلو وحامض، وهناك تمر تُجاوز أصنافُه العشرات

حتى تصل إلى المآت، إلى غير ذلك من مختلف الثمرات، وأعمُّ من هذه الآية قوله تعالى في سورة طه: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [الآية: ٥٣].

ويمكن أن تفسر هذه الآية بالمعنى العلمي الدقيق الذي كشف عنه النقاب «علم الحياة النباتي الجديد»، ألا وهو أن الله أودع في الثمرات عناصر ذُكورة وعناصر أُنوثة، وجعل بينها تزاوجاً وتلاقحاً مستمراً ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨] وسيأتي في سورة يس وسورة الذاريات ما يفيد تعميم هذا المعنى بالنسبة للثمرات وغيرها، وذلك قوله تعالى في الأولى: ﴿ سُبْحَـٰنَ الذي خَلَقَ الاَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الاَرْضُ وَمِنَ اَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٣٦] وقوله تعالى في الثانية: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الآية: ٤٩].

وقولُه تعالى ﴿صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ﴾ المرادُ بالصنوان الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، والمراد بغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار.

وقولُه تعالى: ﴿ اوْلَـٰئِكَ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ، وَأُوْلَـٰئِكَ الاَغْلَـٰلُ فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ ﴾ من الممكن أن تُحمَل الأغلال هنا على معناها المجازي، إشارةً إلى ما هم مقيَّدون به من سلاسل التقليد الأعمى، التي تشدهم إلى الأوهام الباطلة، والمعتقدات الضالة، مما يحول بينهم وبين تفتح الأذهان، وإدراك حقيقة الإيمان، وهذا المجاز يجري مجرى «الطبع» و«الختم على القلوب»، الواردين في

مثل هذا السياق في عدة آيات كريمة.

وقولُه تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَٰتُ ﴾ أي يستعجلون النقمة بدلاً من النعمة، والغاشية بدلاً من العافية، وذلك على سبيل التحدي للرسول والاستخفاف بعذاب الله. و «المثُلات» جمع مَثُلة بفتح الميم وضم الثاء، وهي العقوبة العظيمة من الله، التي تُماثل الذنب وتجعل من نَزَلت به مضربَ الأمثال بين الناس.

وقولُه تعالى ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ عقب قوله ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ يشبهه قوله تعالى في آية أخرى ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: «يقول الله تعالى أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم»، فالمعنى إذن إنما عليك الإنذار، والله هو الهادي لمن يشاء إذا شاء. قال أبو القاسم ابن جُزَيّ في تفسيره: «وقد يكون المعنى: إنما أنت نبي منذر، ولكل قوم هادٍ من الأنبياء ينذرهم، فليس أمرُك ببدع ولا مستنكرٍ». وهذا المعنى يشبهه قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَإِن مِّنُ امَّةٍ اِلَّا خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عما انفرد به الحق سبحانه وتعالى من علم الغيب والاطلاع على «سر السر»، بحيث لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك خفايا الأرحام وما تنطوي عليه عند الإنسان وغيره من الحيوان، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثىٰ وَمَا تَغِيضُ الاَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدارٍ ﴾ فالله

تعالى هو المنفرد بعلم ما في الأرحام على وجه التحقيق، أذَكَر أم أنثى، أوَحِيد أمْ توأم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، وهو المنفرد وحده بعلم ما يقع في الأرحام من زيادة أو نقص، وسلامة أو آفة، وتعجيل أو تأجيل ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، وهو المنفرد وحده بعلم ما تضعه كل ذات حَمل في العالم كل طرفة عين من ملايين النسمات ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى عدل الله المطلق وحكمته البالغة، وأنه لا يسلب النعم، ويبتلي بالنقم، إلا من غيَّر طريقته في الشكر والطاعة، فأعرض عن الله، ونأى عنه بجانبه، فإذا انتقل من المعصية إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الشكر، ومن الإنحراف إلى الإستقامة، أكرمه الله بعفوه ورضاه، وسلك به مسالك النجاة، فرداً كان أو أمة.

وقولُه تعالى ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ يُشبه قولَه تعالى في نفس السياق: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾. والمراد التنبيه إلى أصوات الرعد الهائلة المماثلة للانفجار، وإلى ما يرافقها أحياناً من صواعق تحرق الأخضر واليابس، الأمر الذي يدل على قدرة الله، ويثير في النفوس الخوف من عذاب الله، مما يهز كيان الإنسان، ولو كان ضعيف الإيمان، ويضطره إلى تسبيح الله وتنزيهه ولو لم يكن ذلك باللسان.

وسجودُ من في السماوات والأرض معناه الانقياد المطلق لقضاء الله وقدَره، أحب من أحب وكره من كره، فالعارف بالله يخضع له طوعاً، وغيره يخضع له كرهاً. أما سجود «الظِّلال» غدوة وعشية ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ فمعناه انقيادها في القبض والبسط لمشيئة الله، طبقاً لما في كلتا الحالتين من مصلحة «لخلق الله»، بما في ذلك الإنسان والحيوان والنبات.

وقولُه تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ قال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: هي التوحيد، أي أن إفراد الله بالعبادة والدعاء دون سواه هو الحق الذي لا حق دونه، أما التوجه إلى غيره سبحانه بهما أو بأحدهما فهو أبطل الباطل ﴿ وَالذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا دُعَآءُ الْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴾ إشارةٌ إلى ضياع عبادتهم في الدنيا، لأنهم يقومون بها لمعبودات باطلة، وإلى إحباط أعمالهم في الآخرة، لأنهم يبنون أعمالهم على أساس فاسد ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتَ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً، وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَـآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَـٰطِلَ ﴾. قال أبو إسحاق ابن جُزَيّ في تفسيره: «هذا مَثَل ضربه الله للحق وأهله، والباطل وحزبه، فمَثَّل الحقَّ وأهلَه بالماء الذي ينزل من السماء،

فتسيل به الأودية وينتفع به أهل الأرض، وبالذهب والفضة والحديد والصُّفْر - أي النحاس الأصفر - وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس، وشبَّه الباطلَ، في سرعة اضمحلاله وزواله، بالزَّبَد الذي يَرمِي به السيل، وبزَبَد تلك المعادنِ، الذي يطفو فوقها إذا أُذيبت، وليس في الزَّبَد منفعة، وليس له دوام».

وقولُه تعالى: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي أخذ كلُّ وادٍ من الماء بحسبه، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها من جهة استعدادها سعة وضيقاً، وقولُه ﴿ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ ﴾ مثل معدن الذهب والفضة، وقولُه ﴿ أَوْ مَتَـٰعٍ ﴾ مثل معدن الحديد والنحاس، وقولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَـٰطِلَ ﴾ أي إذا اجتمع الحق والباطل فإن الباطل لا يثبت أمام الحق ولا يدوم، كما أن الزَّبَد لا يثبت مع الماء ولا مع ما يُسبَك في النار من مختلف المعادن، بل يذهب ويضمحل.

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن مَثَل ما بعثني الله به من الهُدَى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفةٌ قبِلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أَجَادِبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَل من فقِه في دين الله، ونفعه الله بما بعثني، ونفع به، فعلم وعلَّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هُدَى الله الذي أُرسِلت به» ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ،

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ، لِلذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ، وَالذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوَ اَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَواْ بِهِ، أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوِيٰهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِيسَ الْمِهَادُ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ
يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ
مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم
مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ
يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا

بِالْحَيَوٰةِ اِ۬لدُّنْيٰا وَمَا اَ۬لْحَيَوٰةُ اُ۬لدُّنْيٰا فِي اِ۬لَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
اُ۬لذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلِ اِنَّ اَ۬للَّهَ يُضِلُّ
مَن يَّشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنَ اَنَابَ ﴿٢٧﴾ اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اِ۬للَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اِ۬للَّهِ تَطْمَئِنُّ اُ۬لْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اُ۬لصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾
كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ
عَلَيْهِمُ اُ۬لذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٠﴾ وَلَوَ اَنَّ قُرْءَانًا
سُيِّرَتْ بِهِ اِ۬لْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ اِ۬لَارْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ اِ۬لْمَوْتَىٰ بَل
لِّلَّهِ اِ۬لَامْرُ جَمِيعًا اَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ اِ۬لذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ اُ۬للَّهُ
لَهَدَى اَ۬لنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ اُ۬لذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ
قَارِعَةٌ اَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَاتِيَ وَعْدُ اُ۬للَّهِ إِنَّ اَ۬للَّهَ
لَا يُخْلِفُ اُ۬لْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدُ اُ۪سْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ
لِلذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ
هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ
سَمُّوهُمُۥٓ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي اِ۬لَارْضِ أَمْ بِظَٰهِرٍ

مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصَدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

الربع الأول من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الاَلْبَـٰبِ﴾، ونهايته قوله تعالى: ﴿ بَـلْ زُيِّنَ لِلذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصَدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ، لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَـوٰةِ الدُّنْيا، وَلَعَذَابُ الاَخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ وَّاقٍ ﴾.

في الآية الأخيرة من الربع الماضي تحدث كتاب الله عن فريقين لا ثالث لهما ينقسم إليهما الناس بالنسبـة لموقفهم من الدعوة والرسالة، الفريق الأول فريق الذين استجابوا لله، والفريق الثاني فريق الذين لم يستجيبوا له، وبيَّن كتاب الله عاقبة الفريق الأول وهي حُسْن الجزاء، وعاقبة الفريق الثاني وهي سوء الحساب، فقال تعالى: ﴿ لِلذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنىٰ، وَالذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَو اَنَّ لَهُم مَّا فِي الاَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَواْ بِهِ، أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ الْحِسَابِ، وَمَأْوٰيـهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِيسَ الْمِهَادُ ﴾.

وفي الآية الأولى من حصة اليوم بَيَّن كتاب الله أن الفريق الذي استجاب لربه، والفريق الذي لم يستجب إليه، لا يستويان في شيء، بل هما على طرفي نقيض، فالذي آمن بأن ما أُنزل إلى الرسول حق وصدق سليمُ البصر والبصيرة، ولذلك عرف الحقَ وصدقه واهتدى به، والذي كذَّب بما أُنزل إلى الرسول أعمى البصر والبصيرة، لأنه قد عطَّل جميع ملكاته عن النظر والبحث والمقارنة، وهل يستوي الأعمى والبصير ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّـكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾.

ثم تولى كتاب الله وصف النوع المتبصر الذي يوجد عنده استعداد خاص للتأمل والتدبر في آيات الله الكونية والدينية، وحلَّل الصفات التي تميَّز بها هذا النوع من الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الاَلْبَـٰبِ، الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَـٰقَ، وَالذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ، وَالذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَـٰوةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرّاً وَعَلَـٰنِيَةً، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

وأول صفة وصَف الله بها هذا النوع المتبصر المفضل من الناس ـ وهم ﴿أُوْلُواْ الاَلْبَـٰبِ﴾ في لغة القرآن ـ هي صفة الوفاء بالعهد، التي تعتبر بالنسبة إلى غيرها بمنزلة الأصل من الفرع، إذ الوفاء بالعهد يستلزم القيام بجميع الفروض والواجبات، والوفاء بكل العقود والالتزامات، والأداء لكافة الحقوق والأمانات، وفي طليعتها العهد الأول الذي أخذه الله على الإنسان، وهو لا يزال في صُلب أبيه آدم بالتزام الإيمان، ثم العهد الذي يترتب على

الإقرار بالشهادتين، الذي هو شرط أساسي للدخول في الدين (أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله) فإن الإقرار بهما يُلزِم عهوداً، ويربط عقوداً، وينشىء تكليفاً بعدة أنواع من الالتزامات الشرعية، الأدبية والمادية، ومنها كما قال أبو بكر (ابن العربي): «الوفاء بالعرفان، والاِنكفاف عن العصيان، والقيام بحق الاحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وإلى صفة الوفاء هذه يشير قوله تعالى هنا: ﴿ الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ ﴾.

وثاني صفة وصف الله بها من أراد أن يكون من أولي الألباب صفة الحنان والمروءة ورقة الشعور، التي تتجلَّى في سلوكهم العام، ولا سيما في صلة الأرحام، وبذل المعروف للفقراء والمحتاجين والعطف عليهم، مما يعين على إقامة مجتمع متحابٍ فاضل ومتكافل، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا ﴿ وَالذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾.

وثالث صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يكون لهم وجدان حي، قوي الحساسية، عميق الشعور، بحيث يراقبون الله في أعمالهم كل المراقبة، ويحرصون على الاستقامة في أحوالهم كل الحرص، سواء ما كان منها خُصوصيّاً أو عمومياً، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴾.

ورابع صفة وصف الله بها أولي الألباب أن تكون لهم قدرة على ضبط النفس والصبر الجميل، فهم بالمرصاد دائماً لأنفسهم

وشهواتهم، لا يطلقون لها العِنان، ويلتزمون إزاءها حدود الإعتدال والمشروعية دون كبت ولا طغيان، وهم في حالة الرخاء صابرون، بحيث لا يطغون ولا يتعدون الحدود، وفي حالة الشدة صابرون، بحيث لا يسخطون على الموجود طمعاً في المفقود. وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَالذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فهم صابرون عن رضا لا عن سخط، وعن اختيار لا عن مجرد اضطرار، وهم قاصدون بصبرهم وجه الله ورضاه، أولاً وأخيراً.

وخامس صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يقيموا الصلاة، أي يقوموا بها على وجهها الكامل، بحيث لا يتركونها ولا يهملونها، ولا يقومون إليها كسالى، فهم على صلة بالله دون انقطاع، يناجونه ويشكرونه، ويؤدُّون حقه، ويطلبون عونه على الدوام والاستمرار، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾.

وسادس صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يحسنوا التصرف فيما آتاهم الله من رزق، وائتمنهم عليه من مال، بحيث يكونون أسخياء النفوس، ذوي فُتُوة وشهامة وكرم، يعتبرون المال وسيلة لا غاية، وغايته نفعهم ونفع الناس أجمعين، ولذلك فهم لا يبخلون بإنفاقه في وجوه الخير، وسبل النفع، وهم ينفقونه سراً كما ينفقونه علانية، حسب الظروف الطارئة والحاجات الملحَّة، والوضِع الذي يكون فيه المنفِق والمنفَق عليه، لا يتقيدون بوجه دون وجه، ولا باب دون باب، فلأزواجهم وأولادهم وأقربائهم من أموالهم حظ معلوم، كما أن فيها حقاً ثابتاً للسائل والمحروم،

وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرّاً وَعَلَـٰنِيَةً ﴾.

وسابع صفة وصف الله بها أولي الألباب أن يكونوا على درجة كافية من الاِنتباه الشديد، والمحافظة على رصيدهم الخاص من الحسنات، حتى يظل رصيداً لا عجز فيه ولا تطغى عليه السيئات، بحيث يكونون ذوي وعي عميق وانتباه تام، وولوع بمحاسبة أنفسهم ونقدها الذاتي على الدوام، وهكذا كلما عملوا سوءاً بجهالة أو تحت تأثير نزوة من النزوات، اهتموا بأن يعملوا في أعقابه مباشرة ما يمحو أثره، ويزيل مفعوله، من صالح الحسنات. وإذا أساء إليهم مسيء لم يقابلوا إساءته بالمثل، بل قابلوا إساءته بالإحسان، مساهمةً منهم في وضع حد لروح الشر والعدوان، وإشاعةً لروح التسامح والغفران، وإلى هذه الصفة يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون السيئة بالحسنة، مصداقاً لقوله تعالى في آية ثانية ﴿ إِنَّ الْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰماً ﴾ [الفرقان: ٦٣].

فهذه هي الصفات الرئيسية التي يعتبر من اتصف بها في نظر الإسلام ـ طبقاً لمعيار الذكر الحكيم ـ من «أولي الألباب» أي من أصحاب العقول الناضجة والأفكار السليمة، وبقدر ما ينقص منها عند الشخص يكون ناقص العقل، فاقد اللب، غير معدود

في عداد العقلاء الراشدين، فمن أراد أن يعرف نفسه أهو في عداد العقلاء الراشدين، أم في عداد السفهاء والحمقى والمجانين، فليعيِّرها بمعيار القرآن، فإنه خير معيار يعيَّر به النقصان والرجحان في ميزان الإيمان. قال القاضي عبد الجبار: «حكى بعض الأئمة أنه سئل عن وصف (المومن) فتلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَـٰبِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ إلى آخرها.

وبعدما حلَّل كتاب الله الصفات المعتبرة في أولي الألباب من المومنين الصادقين عرَّج على وصف ما ينتظرهم وينتظر الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرِّياتهم من النعيم المقيم في دار السلام، فقال تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنَ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ، وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

وقولُه تعالى في هذا السياق: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنَ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ فيه إشارة واضحة إلى أن البيئة التي تشيع فيها مثل هذه الخصال ينتشر فيها الخير والبر، حتى يشمل جميع أعضائها وأفرادها، لأنهم يتنفسون في جو مفعَم بالطهر والصلاح والقدوة الحسنة، فيرثون الصلاح خلفاً عن سلف، وأباً عن جد.

وكما تحدث كتاب الله عن أولي الألباب وصفاتهم المثلى وما ادَّخر الله لهم من حسن العاقبة تعرض لمن هم على عكسهم عقيدة وعملاً وسلوكاً، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي

الاَرْضِ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾.

وتناول كتاب الله الرد على المصرِّين المعاندين من مشركي العرب الذين قالوا للرسول: «لو سيَّرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطَّعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح»، ومرادهم تسخير الريح لهم، «أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه». فقال تعالى: ﴿وَلَوَ اَنَّ قُرْءَاناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الاَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتىٰ﴾ أي لما آمنوا به، ما دام تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى بالنسبة لهؤلاء المعاندين المصرين إنما هو مجرد تحدٍ وإصرار، وعتو واستكبار، وليس الأمر أمر استجلاء للحقائق أو تطلع إلى استكناه الأسرار، فالمعنى المراد إذن أنهم «لا يومنون ولو جاءتهم كل آية».

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ اَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دارِهِمْ حَتَّىٰ يَاتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ مواساةٌ من الله لرسوله والمومنين، وتعريف لهم بأن الحرب التي تدور رحاها بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، مستمرة إلى يوم الدين، وأن أعداء الله وخصوم دينه لا بد أن يلاقوا جزاءهم، بشكل أو آخر على مر الأيام، فكلما انجلت عنهم قارعة وأمنوا مكر الله حلَّت بساحتهم قارعة أخرى أدهى وأمر، وهم بين القارعتين الماضية والآتية في خوف وهلع، واضطراب وجزع، كما جرى في حروبهم المتتالية، ولا سيما في الحربين العالميتين الأولى

والثانية، وإن لم تَحُلّ القارعة بدارهم وتقضِ عليها، حلَّت بأقرب مكان إليها، وهكذا يمهلهم الله ولا يهملهم، وهو القاهر فوق عباده ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا
دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾
وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ
ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ
وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ
نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكَٰفِرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى
ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي
مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم

بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥
وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ
إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم
بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ
لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ
إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ
أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي
شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩

الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الرعد المكية: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَـٰرُ أُكْلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا، تِلْكَ عُقْبَى الـذِينَ اتَّقَواْ، وَّعُقْبَى الْكَـٰفِـرِينَ النَّارُ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة إبراهيم المكية أيضاً: ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّـا كَفَرْنَـا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

والآية الأولى في هذا الربع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآية الأخيرة في الربع المـاضي، فقد كـان الحديث يـدور حول الكـافرين الماكرين الـذين يصدُّون عن سبيـل الله وحول مـا ينتظرهم من عذاب في الدنيا، وعذاب أشق منه في الآخرة: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَـوٰةِ الـدُّنْيا، وَلَعَـذَابُ الاخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَـا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ وَّاقٍ ﴾. ثم واصل كتاب الله الحديث عن المومنين المتقين، وما ينتظرهم من نعيم دائم في جنات النعيم، وذلك قوله تعالى في أول هذا الربع: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

الأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَـا دَآئِمٌ وَظِلُّهَـا، تِلْكَ عُقْبَى الـذِينَ اتَّقـواْ، وَّعُقْبَى الْكَـٰفِرِينَ النَّارُ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ ليس المراد به ضـرب المثل لها فحسب، بل المراد به وصفُها بالذات وما تكون الجنة عليه فعلاً، وكلمة (مثل) في الآية مبتدأ خبره محذوف مقدم، تقديره «فيما يتلى عليكم صفة الجنة» كما أعربه الإمام سيبويه رحمه الله. وذهب الفراء إلى أن كلمة (مثل) مبتدأ وقوله تعالى في نفس الآية: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ ﴾ جملة خبرية هي خبر عن (مَثَل)، وكما جاءت كلمة (مثل) بهذا المعنى في الآية التي فسَّرناها وردت أيضاً بنفس المعنى في «سورة محمد»، فقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْـرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [الآية: ١٥] إلى آخر الآية، فالمراد فيها أيضاً بمَثَل الجنة صفةُ الجنة.

وقولُه تعالى في وصف الجنة ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ تنبيه إلى أن ما فيها من الخيرات والنعم لا انقطاع له ولا فناء، والأكل بضم الهمزة معناه المأكول، ويشبه هذه الآيةَ في المعنى قولُه تعالى في آيـة ثـانيـة: ﴿ وَفَـٰكِهَـةٍ كَثِيـرَةٍ، لَّا مَقْـطُوعَـةٍ وَلَا مَمْنُـوعَـةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وقولُه تعالى في آية ثالثة: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هـود: ١٠٨].

وقولُه تعالى: ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الذِينَ اتَّقَواْ، وَّعُقْبَى الْكَـٰفِرِينَ النَّارُ ﴾ جارٍ على طريقة القرآن الكريم في الجمع غالباً بين صفة

الجنة وصفة النار، ترغيباً فيما يوصل إلى الأولى، وترهيباً مما يورط في الثانية.

ثم تحدث كتاب الله عن موقف المومنين وموقف المنافقين من القرآن الكريم، وكيف يستقبلُ نزولَه كلٌّ من الفريقين، فقال تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الَاحْزَابِ مَنْ يُّنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾. والمراد أن المومنين الصادقين يستقبلون الوحي المنزل من عند الله بفرح وابتهاج، وثقة وتصديق، وأنهم لا يزيدون به إلا إيماناً، ولا يزدادون به إلا تمسكاً، ولا يبدون عليه أي اعتراض أو امتعاض، إذ لا يأتيهم إلا بما فيه الصلاح والفلاح دنيا وأخرى، بينما المنافقون يستقبلونه بالإقرار والرضا حيناً، وبالإنكار والسخط أحياناً، إذ يعيِّرون الوحي بمعيار أهوائهم وشهواتهم ودسائسهم، فمتى نزل القرآن بما يقف حجر عثرة في طريق تلك الأهواء والشهوات تمارضوا واعترضوا، ومتى كشف القرآن النقاب عن دسائسهم لَوَّوْا رؤوسهم وأعرضوا، ولا يزال موقف الفريقين من كتاب الله على هذا الحال إلى الآن وحتى الآن، فالمومنون به يرون في مبادئه ومناهجه وشعائره وشرائعه المثل الأعلى، والنظام الأصلح والأفضل، الذي يجب أن يسود العالم، والمنافقون يسلِّمون بعضه، وينكرون بعضه أو ينكرونه بالمرة، لأنهم يريدون قرآناً يطاوع أغراضهم ويساير أهواءهم ﴿وَمَا أُوْلَـٰئِكَ بِالْمُومِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

وقولُه تعالى هنا: ﴿قُلِ اِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ، إِلَيْهِ أَدْعُواْ، وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ يشبه قوله تعالى فيما سبق: ﴿قُلْ

هَـٰذِهِ سَبِيلِيَ أَدْعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فهو تأكيد لأن دعوة الرسول دعوة خالصة إلى الله، مجردة من كل غرض ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ، وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾. وكلمة (مآب) من الأوْب وهو الرجوع، أي إليه مرجعي ومصيري على غرار قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ﴾ معناه كما أنزلنا كتباً أخرى على رسل سابقين أنزلنا عليك القرآن محكماً معرّباً، بلسان عربي مبين، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ اِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وواضح أن كتاب الله وذكره الحكيم مهيمن على كل ما سبقه من الكتب والرسالات، ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] وأنه ناسخ لكثير من التشريعات والأعراف السالفة، فله الكلمة العليا عليها جميعاً، وهو الحَكَم الأخير الذي لا معقب له، بالنسبة لأحكامها جمعاء.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ تأكيد للصفة البشرية التي اختار الله أن يكون عليها رسله إلى الناس، فهم من ناحية التكوين الخَلْقي بشر عاديون لا ملائكة، ولا أنصاف ملائكة، ولا صنف آخر من أصناف المخلوقات، ﴿ قُلِ اِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] - ﴿ قُلْ سُبْحَـٰنَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الاسراء: ٩٣]، وهم من ناحية الانتخاب الخُلُقي والاصطفاء الإلّهي للرسالة بشر لا كالبشر ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

رِسَـٰلَـتِهِ ﴾ [الانعام: ١٢٤].

وتفيد الآية الكريمة في نفس الوقت أن الرسالة لا تستلزم رهبانية ولا انصرافاً عن الحياة الإنسانية العادية، حياة الزوجية وإنجاب الذرية، خلافاً لما ابتدعه المبتدعة في مختلف الأديان والملل، وادَّعوا أنه يقرِّبهم إلى الله دون حياء ولا خجل.

وقولـه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ اَنْ يَّاتِيَ بِئَايَةٍ اِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ردٌّ على المشركين والمنافقين الذين خُيِّل إليهم أن الرسالة عمل ذاتي يمكن للرسول أن يتصرف فيه كما يريد، بحيث كلما طُلب إليه شيء من المعجزات وخوارق العادات، جاء به من عند نفسه، ترضية للطلبات وتحقيقاً للرغبات، بينما الرسول في الحقيقة إنما هو مبلِّغ عن الله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] وإنما ينطق بالوحي عن إذن ربه، متى تلقى الوحي، وصدر إليه الإذن بالتبليغ.

والمراد (بالآية) في هذه الآية ما يشمل آيات الذكر الحكيم، وهي آيات معنوية، ويشمل آيات العذاب الأليم، وهي آيات مادية، فطالما استعجل المشركون نزول عذاب الله الذي أنذرهم به، وطالبوا الرسول بإنزاله أو استنزاله، لكن الأمر في الحقيقة أمر الإرادة الإلّهية العليا، فهي التي تحدد لكل شيء أجله، وتأتي به في أجله المحتوم ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾، وقال أبو حيان: «قوله ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لفظ عام في الأشياء التي لها آجال، لأنه ليس منها شيء إلا وله أجل في بدئه وفي ختامه،

وذلك الأجل مكتوب محصور، وثم أشياء كتبها الله تعالى أزلية كالجنة ونعيم أهلها لا أجل لها».

وقوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ قال أبو القاسم (ابن جُزَيّ): «القاعدة المقررة أن القضاء لا يبدَّل، وأن علم الله لا يتغير، والمحو والإثبات يندرج تحته المحو والإثبات بالنسبة للأحكام الشرعية، فالإثبات هو بقاؤها ودوامها، والمحو هو النسخ، ويندرج تحته ما يعمله الإنسان من طاعة الله، ثم ينزلق إلى المعصية ويموت عليها، فتمحو معصيتهُ طاعتَه، وما يعمله من معصية الله، ثم يقبل على الطاعة ويموت عليها، فتمحو طاعتُه معصيتَه، مصداقاً للحديث الشريف: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيعملُ بعمل أهل الجنة فيدخلها».

ومن لطائف التفسير في قوله تعالى هنا ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾: ما نقل عن الضحاك والفراء، من أن المراد به (لكل كتاب أجل)، بمعنى أن لكل كتاب أنزله الله من السماء أجلاً معلوماً ومدة معينة عند الله، وهكذا توالت كتبه المنزلة الواحد تلو الآخر، إلى أن نزل الذكر الحكيم، فكان خاتمة الكتب الإلٓهية يمحو منها ما يشاء ويثبّت منها ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَـٰبِ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ يشبه قوله تعالى في سورة ءال

عمران ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ مِنْهُ، ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب ﴾ [الآية: ٧]. فأم الكتاب هو القسم المحكَم من آيات الوحي الإلٓهي الذي لم يصبه أي محو ولم يلحقه أي نسخ، من العقيدة الأساسية، والشريعة الأصلية، الصالحتين للاستمرار والبقاء، والمتفق عليهما في الكتب الإلٓهية جمعاء، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيـمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنَ اَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]. وإطلاق كلمة (أُمّ) على ما يجري مجرى الأصل للشيء معروف في اللغة، كقولهم (أم الرأس) للدماغ.

وقولُه تعـالى: ﴿ وَإِن مَّا نُـرِيَنَّكَ بَعْضَ الـذِي نَعِدُهُمُ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ إشارةٌ إلى أن خالق الكون متكفل بتسيير كونه طبقاً لمشيئته العليا، وأن الأمر لا يتوقف على أحد من خلقه، وسواء شاهد الرسولُ عليه الصلاة والسلام بعيني رأسـه ما بشَّـر الله به ـ على لسـانه ـ المومنيـن، وأنـذر بـه الكافرين، أو توفاه الله إليه، وانتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن يشاهد ذلك، فالمهم بالنسبة إليه ـ بوصفه رسولاً ـ هو أن يقوم بواجب التبليغ عن ربه خير قيـام، وحساب الخلق في النهـاية موكول إلى الله.

وقولُه تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَاتِي الاَرْضَ نَنقُصُهَا مِنَ اَطْرَافِهَا ﴾ كناية عما يصيب البلاد العامرة من خراب، وما يصيب الأراضي الخصبة من قحط وجدب، عقاباً من الله لأهلها على

الظلم والفساد، السائدين في البلاد، على غرار قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَاتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنَ اَطْرَافِهَآ، أَفَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴾ [الآية: ٤٤]. وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاحقاف: ٢٧].

وقولُه تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إشارةٌ إلى يوم القيامة حيث ينفرد الحق سبحانه وتعالى بالملك الحقيقي والحكم النهائي: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلهِ الْوَٰحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] فلا أحد بعد انتهاء الحساب، يستطيع أن يتعقب حكم الله بالعقاب أو الثواب. و (المعقّب) هو الذي يكُرُّ على الشيء فيبطله إذا كان فيه خطأ.

والآن لم يبقَ لنا إلا أن ننتقل إلى سورة إبراهيم المكية، وسنلاحظ أنها مبدوءة بحروف الهجاء المقطعة كسورة الرعد التي سبقتها (أ. ل. ر.) وسنجد أن أول ما يذكر فيها بعد هذه الحروف كتاب الله والتنويه به، كما هو المعتاد في السور المبدوءة بمثل هذه الحروف ﴿ كِتَٰبٌ اَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمُ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾.

وأُطلق على هذه السورة اسم (سورة إبراهيم)، لما جاء فيها من الآيات المتعلقة بابراهيم الخليل عليه السلام، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجْنُبْنِي

وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السياق حكاية لدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِـدَيَّ وَلِلْمُومِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

قَالَتْ رُسُلُهُمُۥٓ أَفِے
اِ۬للَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمُۥٓ إِلَيٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّيۖ
قَالُوٓاْ إِنَ اَنتُمُۥٓ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾
قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمُۥٓ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اَ۬للَّهَ
يَمُنُّ عَلَيٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّاتِيَكُم
بِسُلْطَٰنٍ اِلَّا بِإِذْنِ اِ۬للَّهِۖ وَعَلَى اَ۬للَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِ۬لْمُومِنُونَۖ ﴿١١﴾
وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اَ۬للَّهِ وَقَدْ هَدِيٰنَا سُبُلَنَاۖ وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَيٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۖ وَعَلَى اَ۬للَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِ۬لْمُتَوَكِّلُونَۖ ﴿١٢﴾
وَقَالَ اَ۬لذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنَ اَرْضِنَآ
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِے مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَيٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ
وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ
كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ
ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ
وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ

إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ
أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ
بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾
وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ
طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾
تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾
يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا
يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّـٰلِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

بعدما تناولت الآيات الكريمة السابقة بالذكر قصة موسى مع قومه باختصار، وبيَّنت ما أمر اللَّهُ به موسى من تذكير قومه بأيام الله، بما فيها من نعم ونقم، وبعد أن حذر الله مشركي العرب وَمَنْ والاهم من أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح وعاد وثمود، انتقل كتاب الله إلى الحديث عن الرسل وأقوامهم عامة، مَن عُرفت أسماؤهم وقِصصهم عن طريق الوحي، ومن استأثر الله بعلمهم دون خلقه، فلم يرد عن أحوالهم أي بيان أو تفصيل ﴿ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ، لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ ﴾ [الآية: ٩] - ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ

أَجَلٍ مُّسَمًّى، قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

فها هنا يشير كتاب الله إلى الدعوة العامة والوحيدة التي جاء بها كافة الرسل عن الله في جميع العصور والأجيال، كما يشير إلى الرد القبيح المتشابه، الذي توارثه خصوم الرسالات الإلٰهية من أولياء الشياطين، المتعصبين المتحذلقين ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّاتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ اِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ذهب سيبويه إلى أن (مِن) في هذه الآية للتبعيض، وعليه يكون المعنى أن الكافر إذا أسلم غُفر له ما تقدم من ذنبه، أما ما يذنبه بعد دخوله في الإسلام فهو في المشيئة، وهكذا تقع المغفرة في الذنب السالف على الإسلام، ويبقى الأمر معلقاً بمشيئة الله فيما وراء ذلك، ويشبه هذه الآيةَ قولُه تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾ [الآية: ٣١]، وقولُه تعالى في سورة نوح: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، اَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُوَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الآيات: ٢، ٣، ٤] فكلها تقتضي غفران بعض الذنوب للكفار إذا آمنوا، وهذا البعض يشمل جُملة ذنوبهم قبل الإيمان، مصداقاً لقوله تعالى في آية

أخرى: ﴿ قُل لِّلذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ يَّنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الانفال: ٣٨].

وكلمة (سلطان) في قوله تعالى: ﴿ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ ترد في القرآن بمعنيين: المعنى الأول: الحجة والبرهان، ويشمل نفس المعجزات، كما ورد في هذه الآيات، والمعنى الثاني: القوة والقهر، كما في قوله تعالى متحدياً معشر الجن والانس: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي لا تخترقون أقطار السماوات والأرض وتجاوزونها إلى ما وراءها إلا بقوة وقهر، وأنّى لكم ذلك؟.

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنَ اَرْضِنآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إشارةٌ إلى ما يحاوله الكفار من الضغط على الرسل بغية التسليم لهم بملّتهم، وما يهددونهم به من النفي والإبعاد عن أرضهم إن لم يذعنوا لضغطهم، ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الاسراء خطاباً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الَارْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً، سُنَّةَ مَن قَدَ اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [الآيتان: ٧٦، ٧٧]، وإلى قوله تعالى في سورة الانفال خطاباً لرسوله أيضاً ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الآية: ٣٠]، وإلى قول ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: «يا ليتني فيها جَذَعاً، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قال: أوَ مُخرِجِيَّ هم؟ قال: نعم. لم يأتِ أحد بمثل ما

جئت به إلا عُوديّ وأُخرج، وإن يدركني يومُك أنصرْك نصراً مؤزراً». قال أبو القاسم ابن جُزَيّ: «والعود هنا ـ أي في قوله ـ ﴿ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ بمعنى الصيرورة ـ أي تصيرون على ملتنا ـ وهو كثير في كلام العرب، ولا يقتضي أن الرسل كانوا في ملَّة الكفار قبل ذلك، (فحاشاهم من ذلك).

وقولُه تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُواْ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ إشارةٌ إلى ما قام به الرسل عليهم السلام من الاستنجاد بالله وطلب نصره لهم على الكفار من قومهم، وإلى أن الله لم يُخلف وعدَه رسلَه، بل نصرهم على خصومهم ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ، أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَـٰحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَـٰلُ الْبَعِيدُ ﴾ إشارةٌ إلى الصفة التي يكون عليها الكفار يوم القيامة، فلفظ (مَثَل) هنا بمعنى الصفة نفسها، وليس المراد به مجرد ضرب المثل، ومذهب سيبويه والفراء في هذه الآية: ﴿ مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ هو نفس مذهبهما في قوله تعالى في بداية الربع الماضي ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد: ٣٥]. فعلى مذهب سيبويه يكون الخبر محذوفاً تقديره ـ فيما يتلى عليكم ـ ﴿ مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ وعلى مذهب الفراء يكون الخبر هو الجملة التي بعدها ﴿ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَـٰحُ ﴾ [الآية: ١٨]. وشُبِّهت أعمال الكفار التي يظنونها أعمالاً صالحة بالرماد، لذهابها وتلاشيها وعدم اعتبارها، إذ هي فاقدة للإيمان والإخلاص الذي

هو شرط أساسي لقبول الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ إشارةٌ إلى أن الله تعالى لا يمتنع على قدرته أن يبيد المخالفين ويمحق الكافرين، ثم يستبدل بهم من يطيع أمره ولا يعصيه، ومن يومن به ولا يشك فيه، على غرار قوله تعالى ضمن آية ثانية بنفس اللفظ والمعنى في سورة فاطر: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [الآيات: ١٥، ١٦، ١٧] ونظير قوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَاتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ، إِنَّ الظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾ إشارةٌ إلى الخطبة التي سيلقيها ابليس على أتباعه من الضالين والمنحرفين، والمنافقين والكافرين، عندما يُرفَع النقاب، ويُهتَك الحجاب، ويُفصَل في أمر الثواب والعقاب، فيعترف ابليس اللعين، لأتباعه المخدوعين، بأن الله وحده هو الذي وعد عباده وعد الحق، وأن ابليس لم يعدهم إلا وعد الباطل، ثم يتبرأ منهم، ويلقي المسؤولية كلها

عليهم، ويدعوهم ـ بدلاً من أن يلوموه ـ إلى لوم أنفسهم. قال ابن كثير: «الظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من ابليس بعد دخولهم النار».

والمراد بقوله هنا: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ ما أنا بمغيثكم، وما أنتم بمغيثين لي، فليس في استطاعة أي واحد إنقاذ الآخر مما هو فيه من العذاب، بل كل منهما عاجز عن إنقاذ نفسه فضلاً عن إنقاذ الآخر.

ثم أشار كتاب الله إلى عاقبة المومنين المتقين، وما يلقَوْنه عند ربهم من حسن الجزاء، فقال تعالى: ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾.

وأخيراً ضرب الله المثل للعمل الصالح الذي يعمله المومن كلما هَمَّ بعمل، وللقول الطيب الذي يفُوه به كلما فاهٰ بخطاب، ولا سيما كلمة الإيمان، فقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ، تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ، وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾. كما ضرب كتاب الله المثل للعمل الفاسد والقول الخبيث، اللذيْن يقوم بهما الضالُّون والمنحرفون، والمنافقون والكافرون، ولا سيما كلمة الكفر والإلحاد، فقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴾ والمراد بقوله (اجتثت) أي استؤصلت، والمراد

بقوله (ما لها من قرار) أي لا أصل لها ولا ثبات.

وقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَـوٰةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ﴾ المراد بالقول الثابت الشهادتان اللتان يقرُّ بهما المومن من أعماق قلبه، ويُشهِد عليهما كل جوارحه ومشاعره، وهكذا إذا فُتِن الذين آمنوا في الدنيا ثبَّتهم الله بالقول الثابت، فلم يُسلَبوا بعد العطاء ولم يزِلوا، وإذا فُتنوا في الآخرة ثبَّتهم الله بالقول الثابت فلم ينسَوْا ولم يضلُّوا، وكما بشَّر الحق سبحانه وتعالى المومنين فقال في شأنهم ﴿ الذِينَ تَتَوَفَّـيهُمُ الْمَلَـٰئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٢] أنذر الكافرين ومن سلك مسلكهم من الضالين، فقال تعالى هنا: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بما يؤكد قدرة الله المطلقة، وتصرفه الشامل في خلقه، فقال تعالى: ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً اَنْ يَّقُولَ لَهُ كُن، فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالاَمْرُ، تَبَـٰرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الاعراف: ٥٤].

الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾
وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ
رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ
مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ
وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ
تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي
ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ
إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ
وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ

فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ
دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن
قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا
بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ
وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ
ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ
وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ
وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ اَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا، وَبِيسَ الْقَرَارُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الاَلْبَـٰبِ ﴾.

في بداية هذا الربع يَلْفِت كتاب الله نظر كل من له عقل وبصيـرة إلى سوء تصـرف الأشقيـاء من العبـاد، حيث يحيلون نعمة الله نقمة وخيره شراً، وحيث لا يكتفون بالإساءة إلى أنفسهم بسوء تصرفهم، بل تكون إساءتهم سبباً في إذاية الآخرين وجرِّهم معهم إلى الهلاك المحقق، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ اَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَـوارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا، وَبِيسَ الْقَرَارُ ﴾ أي المَقر.

والمراد من هذه الآية إثارة التعجب من حال جميع الذين لا يقدُرون نعم الله حق قدرها، ويعدلون عن شكرها، وإن كانت هذه الآية في رأي بعض المفسرين تشير أولاً وبالذات إلى أئمة

الشرك، وما جرى لهم ولقريش على يدهم من هزائم وخسارات في الأنفس والأموال، وقحط وجدب طيلة سبع سنين، أثناء تصديهم للإسلام، الذي هو أكبر نعمة عليهم وعلى الناس، بالمهاجمة والمقاومة والتنكيل. قال ابن كثير: «إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبل نعمته وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً ﴾ أي بدلوا شكر نعمته كفراً، فهو على حذف مضاف، نظير قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي تجعلون شكر رزقكم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ ﴾، أي كانوا سبباً في سوء العاقبة لمن اتبعهم وأطاعهم، وحلولهم بدار الهلاك وهي جهنم، ويفهم من هذه الآية أنه إذا كان مآل الأَتْباع حلول دار البوار، فإن القادة المتبوعين يكونون بحلولها أحق وأولى.

وقولُه تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرّاً وَعَلَـٰنِيَةً ﴾ إشارةٌ إلى ما يجب على المومنين من حقوق لله وحقوق للعباد، فحق الله يتجلى في حقه الأول وهو إقامة الصلاة، وحق العباد يتجلى في حقهم الأول وهو الإنفاق على المحتاجين منهم، فرضاً ونفلاً، سراً وعلناً، بالإضافة إلى ما يلزم للأهل والأقرباء، وذوي الأرحام الفقراء.

وقولُه تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا

خِلَـٰلٌ﴾ إشارةٌ إلى وجوب مبادرة المومنين بأداء ما عليهم من الحقوق لله ولعباده، دون تأخير ولا إمهال ولا إهمال، حذراً من أن يفاجئهم الموت قبل أن يقوموا بها، فلا يمكنهم أن يتداركوها يوم القيامة، إذ إن يوم القيامة يوم لا تنفع فيه فدية بمال ولو كانت ملء الأرض ذهباً ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾، ولا تنفع فيه محبة الأحباب وخُلّة الأصحاب، ﴿وَلَا خِلَـٰلٌ﴾.

ثم استعرض كتاب الله جملة من بدائع الصنع الإلٓهي في العالم العُلْوي والعالم السُّفْلي، مذكراً بما انطوت عليه من نعم كبرى سخَّرها للإنسان، داعياً إياه إلى التأمل في عجائبها وتدبر آياتها، إذ كلها دلائلُ ناطقة بوجوده وقدرته، وعلمه وحكمته، ومظاهرُ بارزة لإحسانه ورحمته، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالَارْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقاً لَّكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الَانْهَـٰرَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اليْلَ وَالنَّهَارَ﴾ والمراد بقوله تعالى هنا ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ أن الشمس والقمر يتعاقبان باستمرار، فلا يفتران في سيرهما، ولا يتوقفان عن حركتهما، وذلك مما يتفق كل الِاتفاق وينسجم كل الِانسجام مع ما تتوقف عليه حياة الإنسان والحيوان والنبات، ومصالح الأحياء جميعاً فوق سطح الأرض.

وامتن سبحانه وتعالى على الإنسان امتناناً خاصاً بما أكرمه به من جميع النعم، التي يتوقف عليها في تصرفاته، الضرورية والحاجية والكمالية، سواء في ذلك ما سأله منها بلسان المقال،

وما سأله منها بلسان الحال، مبيِّناً أن نعم الله لكثرتها وتنوعها لَا يستطيع أن يعدَّها عاد، بل هنالك نعم إلٰهية خفية ودقيقة تخفى حتى عن أدق الأفكار، لأنها من باب اللطف الخفي، فلا يهتدي إليها علم الإنسان المحدود، ولا سبيل لإدراكها فضلاً عن إدراجها تحت العد والمعدود، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾.

ثم عقّب كتاب الله على ذلك كله بما يكون عليه حال الإنسان، الفاقد للإيمان، من ظلم في حق الله، بالشرك به، وظلم في حق نفسه، بالكفر بالله، وظلم للخلق، بتعدي حدود الله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وعلاقته بالبلد الحرام والبيت الحرام، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الاَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾. وبذلك بيَّن كتاب الله أن ما عليه مشركو العرب من عبادة الأوثان والأصنام لا يمُتُّ بصلة إلى ملَّة إبراهيم، وأن عبادة الأصنام إنما هي ضلال في ضلال، وأن ما يتمتعون به من أمن في البلد الحرام إنما هم مدينون به قبل كل شيء لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، لا إلى ما اخترعوه لعبادتهم من الأوثان والأصنام. وبذلك أقام الحجة عليهم، ولم يُبقِ لهم عذراً، ثم قال تعالى حكاية لتتمة دعاء إبراهيم ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، إشارةً إلى أن من اتَّبع إبراهيم على ملة التوحيد كان منه وإليه،

وإلى أن من عصاه فارتكس في عبادة الأصنام ليس منه، ولو انتسب إليه، بل أمره موكول إلى مشيئة الله، إن اهتدى بعد كفره إلى الإيمان تاب الله عليه وغفر له، وإلاَّ عاقبه ولو أمهله.

وقولُه تعالى: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ قال أبو القاسم ابن جُزَيّ: «اجنبني: أي امنعني، وبنيَّ: يعني من صُلْبِه، وفيهم أجيبت دعوته، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام».

وأشار كتاب الله إلى ذرية إبراهيم التي أسكنها بالبلد الحرام، وما أراد أن تكون عليه هذه الذرية، وما دعا لها به من الدعوات الصالحة ديناً ودنيا.

والأمر يتعلق في بدايته باسماعيل بن ابراهيم عندما حمله أبوه رضيعاً مع أمه هاجَر من الشام إلى مكة، وتركهما إبراهيم وديعة في يد الله، بأمر من الله، في نفس البقعة التي سيقام فيها البيت الحرام في البلد الحرام، وذلك قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ أي عند المكان الذي سيبنى فيه بيتك المحرم ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ، فَاجْعَلَ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

والمراد ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ مكة، والوادي في لسان العرب ما بين جبلين، وإن لم يكن فيه ماء، وحيث أن مكة لم يكن فيها زرع دعا إبراهيم ربه أن يرزقها من ثمرات البلاد الأخرى، إعانة للعاكفين بها والوافدين إليها على عبادة الله وطاعته

وشكره، وقد استجاب الله دعاء إبراهيم الخليل، واستمر البلد الحرام رافلاً في حلل النعيم جيلاً بعد جيل، وامتناناً من الله تعالى على أهله والوافدين عليه، قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءامِناً تُجْبـىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا﴾.

وفي تفسير هذه الآية قال جار الله الزمخشري وهو شاهد عيان لما كان عليه البلد الحرام في القرن الخامس الهجري وأوائل القرن الذي يليه: «لا جَرَم أن الله عز وجل أجاب دعوة إبراهيم، فجعله حرماً آمنا تُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضَّله، في وجود أصناف الثمار فيه، على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يُرِيكَها الله بوادٍ غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان، من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب، متَّعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه».

وقولُه تعالى هنا حكاية عن إبراهيم ﴿فَاجْعَـلَ اَفْـئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ﴾، إشارةٌ إلى ما حببه الله إلى المومنين من حج بيت الله الحرام، وقدومهم عليه من جميع أطراف العالم كل عام.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسيره هذه الآية ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: «لا يجوز لأحد أن يتعلق به في طرح عياله وولده بأرض مَضْيَعة (أي مفازة منقطعة) اتكالاً على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم، فإن

إبراهيم فعل ذلك بأمر الله، لقولها (أي هاجر) له في هذا الحديث: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم. ولمَّا كان بأمر منه أراد تأسيس الحال وتمهيد المقام، وخطَّ الموضع للبيت الحرام والبلدة الحرام».

وقولُه: ﴿ لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ ﴾ خصها من جملة الدين، لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد، قال النبي ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على عباده في اليوم والليلة، فمن جاء بهن لم يضيِّع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يُدخِله الجنة، ومن لم يأتِ بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة». رواه مسلم في صحيحه.

ثم حكى كتاب الله جزءاً آخر من قصة إبراهيم في مرحلة لاحقة، وفي هذا الجزء ورد ذكرُ ولديه اسماعيل وإسحاق، والإشارةُ إلى فرحه بهما، وشكره لله عليهما، وقد كان إسماعيل أكبر سناً من أخيه، ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ، إِنَّ ربِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴾.

وسجَّل كتاب الله الدعاء الإبراهيمي الذي يعتبر نموذجاً للدعاء الصالح بالنسبة لكل مومن، فقال تعالى حكاية لدعاء إبراهيم ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُومِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾. وها هنا نجد إبراهيم عليه السلام يحصر دعاءه للمرة الثانية في إقامة الصلاة التي هي عماد الدين، كما حصره فيها في المرة الأولى إذ قال: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ ﴾، ونجده يدعو لذريته ووالديه

والمومنين، وهكذا ينبغي لكل داعٍ أن لا يخص نفسه بالدعاء، بل أن يدعو لنفسه ووالديه وذريته وكل من له حق عليه، وأن يدعو لكافة المومنين.

وقد نبه علماء التفسير في هذا المقام إلى أن دعاء إبراهيم لوالديه معاً حسبما ورد في هذه الآية كان سابقاً على معرفته بما سيستقر عليه أمر والده، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [الآية: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّٰلِمُونَ ﴾ إلى آخر الآية، تنبيه عام من الله تعالى موجَّه لكل ذي عقل وبصيرة من عموم الناس، إلى أن الله تعالى إذا أمهل الظالمين فإنه لا يهملهم، إذ إليه يرجعون، وسيعاقبهم على ما يعملون.

وجدَّد كتاب الله الخطاب لرسوله، يأمره بتبليغ الرسالة وإنذار الخلق، حتى تقوم عليهم الحجة، ولا يبقى لهم أي عذر في التخلف عن إجابة الدعوة، فقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَاتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ خطاب عام من الله تعالى موجه إلى كل ذي عقل وبصيرة من عموم الناس، بأن لا يشك أدنى شك في إنجاز أيِّ وَعْدٍ وَعَدَ الله به، أياً كان الشخص الموعود به، ولا سيما الوعد الذي وعد الله به رسله أنفسهم. قال أبو القاسم ابن جُزَيّ:

«قدم (الوعد) في قوله ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ وهو المفعول الثاني على قوله (رسله) وهو المفعول الأول، ليُعلَم أنه لا يخلف الوعد أصلاً على الإطلاق، ثم قال: (رسله) ليُعلَم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه، فقدم الوعد أولاً بقصد الإطلاق، ثم ذكر الرسل بقصد التخصيص».

وإذا كان توجيه الخطاب إلى عموم الناس في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّـٰلِمُونَ ﴾ وقولِـه تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ أمراً مفهوماً ومعقولاً، فإن من غير المفهوم وغير المعقول أن يعتبر الخطاب فيهما موجهاً إلى الرسول نفسه عليه السلام، لأنه لا يتصور في حق الرسول أن يسيء الظن بالله أو يشك في إنجاز وعده الحق، قال أبو حيان في تفسيره: «الخطاب بقوله ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَـٰفِلًا ﴾ للسامع الذي يمكن منه حِسْبان مثل هذا، لجهله بصفات الله، لا للرسول ﷺ فإنه مستحيل ذلك في حقه، والنهي عن الحِسْبان في قوله ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ كهو في قوله ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَـٰفِلًا ﴾».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ إشارة إلى ما يعتور الكون من تغيير وانقلاب لا يبقى معهما على صورته المألوفة، وذلك عند قيام الساعة. يقال: تبدَّل فلان إذا تغيَّرت أخلاقه، ويقال: بـدلت الدراهم دنـانير، وبـدلت الحلقة خاتماً. وهكذا يطلق (التبديل) ويراد به إما تغيير شيء بآخر بدلاً

منه، وهو التبديل في الذوات، وإما تغيير الشيء الواحد من حالة إلى أخرى ومن شكل إلى آخر، وهو التبديل في الصفات.

أما مظاهر التبديل والتغيير الذي يلحق الكون فقد خصص لها كتاب الله عدة آيات في عدة سور، منها: سور الدخان والطور والقمر والواقعة والحاقة والقيامة والمرسلات والنبأ والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة والقارعة، وفيها القول الفصل فيما سيؤول إليه أمر العالم في اليوم الموعود، طبقاً لمشيئة الله القاهر فوق عباده، كقوله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ ﴾ [الدخان: ١٠، ١١] وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ [الطور: ٩، ١٠] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ الاَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٣، ١٤] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الِانسَانُ يَوْمَئِذٍ اَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ [القيامة: ٧، ٨، ٩، ١٠]. وقد اضطر العلم الحديث إلى الاعتراف بأمر هذا الإنقلاب الكوني المنتظر، فصدَّق الخُبْر الخبر.

وكما بُدئت سورة إبراهيم المكية بالحديث عن كتاب الله والتنويه بمزاياه ﴿ أَلَر، كِتَابٌ اَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمُ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ خُتمت السورة بنفس الحديث عن كتاب الله، وما يتضمنه من دعوة الناس إلى توحيد الله، وتذكيرهم بالله، فقال تعالى: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الاَلْبَابِ ﴾.

الربع الأول من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ
مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا
بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا
لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ
نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ

ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾
لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾
وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ
فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا
رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ
فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ
فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ
بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ
عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ
مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ
مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا
مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ

أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن
لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾
قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا
صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ
مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا
عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا
بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

الربع الأول من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الأول من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سـورة الحِجْر المكية: ﴿ أَلَـر، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ، رُّبَمَا يَوَدُّ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُـواْ مُسْلِمِينَ، ذَرْهُمْ يَاكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُـواْ وَيُلْهِهِمُ الاَمَلُ، فَسَوْفَ يَعْلَمُـونَ ﴾ إلى قولـه تعالى: ﴿ وَنَـزَعْنَا مَـا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ، إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ، لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ، وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بفضل الله «سورة إبـراهيم المكية»، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير «سورة الحِجْر المكية» أيضاً، وسميت هذه السورة سورة الحِجْر، أخذاً من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَءَاتَيْنَـٰهُمُ ءَايَـٰتِنَـا فَكَانُـواْ عَنْهَـا مُعْرِضِينَ، وَكَـانُـواْ يَنْحِتُـونَ مِنَ الْجِبَـالِ بُيُوتاً ـ امِنِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ، فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

وسورة الحِجْر مبدوءة بحروف الهجاء المقطعة (أ. ل. ر.)

نظير كل من: سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة الرعد، وسورة إبراهيم الواردة قبلها على التوالي دون فاصل بينها، والمفتتحة كلها بنفس النوع من الحروف الهجائية المنفصلة، على نفس النهج الذي بُدئت به كل من سورة البقرة وسورة ءال عمران وسورة الأعراف، وقد تكرر في هذه المجموعة من السور التسع حرف الألف وحرف اللام، وتكرر حرف الراء في ست منها، وتكرر حرف الميم في أربع منها، وورد حرف الصاد في واحدة منها.

وهناك مجموعة أخرى من السور على هذا النمط يبلغ عددها العشرين، وهي حسب ترتيب كتابتها في المصحف الكريم: سورة مريم، وسورة طه، وسورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة القصص، وسورة العنكبوت، وسورة الروم، وسورة لقمان، وسورة السجدة، وسورة يس، وسورة ص، وسورة غافر، وسورة فصلت، وسورة الشورى، وسورة الزخرف، وسورة الدخان، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف، وسورة (ق) وسورة (ن). وقد تكرر حرف الميم في ثلاث عشرة منها، وتكرر حرف الحاء في سبع منها، وورد حرف الطاء وحرف السين فيها أربع مرات، وورد فيها كل من حرف الصاد وحرف الياء وحرف الهاء مرتين، وورد فيها كل من حرف الكاف وحرف القاف وحرف النون مرة واحدة.

وكل هذه السور المفتتحة بالحروف المقطعة يأتي في مطلعها الحديث عن معجزة القرآن، والتنويه بها تنويهاً خاصاً، ومن بين من نبَّه على ذلك ابن كثير، ودلَّ عليه الاستقراء في علم

التفسير، كقوله تعالى هنا في سورة الحِجْر التي نحن بصدد تفسيرها ﴿ أَلَر، تِلْكَ ءَايَـٰتُ الْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

وكأن إيراد الحروف الهجائية المقطعة في مطلع هذه السور إشارةٌ إلى أن حكمة الله البالغة اقتضت أن تُحوَّل الحروف العادية الجارية على ألسنة الناس، والتي لا يصوغون منها أيّ كلام معجز للبشر، إلى مادة إعجاز إلّهي يقف الجنس البشري كله أمامها مبهوتاً ومبهوراً، سواء من آمن منه أو من كفر، كما هو الأمر بالنسبة إلى مواد أخرى هي في متناول البشر جميعاً، ولكنهم عاجزون عن أن يصنعوا منها أيّ شيء خارق للعادة، بينما القدرة الإلّهية تصنع منها أعجب الأعاجيب، وفي طليعتها الإنسان المخلوق من طين، والطين في متناول كل الناس، ولكنهم عاجزون عن أن يصنعوا منه بأيديهم حتى أخس الحشرات، وأضعف الجراثيم، فضلاً عما هو أعلى وأدق، ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ أخبارٌ عن الكافرين بأنهم سيندَمون على ما هم فيه، وسيتمنون عندما يعرفون حقيقة الإسلام أن لو كانوا مسلمين، ولا سيما عندما يكون أحدهم في حالة الاحتضار وتتجلى أمامه الحقائق الرهيبة، وهذا أمر واقع ما له من دافع، فكم من الكفار يقارنون معتقداتهم الباطلة بعقيدة التوحيد الحق، ويقارنون تشريعاتهم الإباحية بشريعة الإسلام الأخلاقية، ويتمنون لو أنهم كانوا على عقيدة الإسلام الصحيحة، وشريعته الفاضلة، ونفس

الموقف سيقفه الكفار عندما يُواجِهون عذاب الله في الدار الآخرة، كما قال تعالى في آية ثانية في سورة الانعام: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ، وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُـومِنِينَ ﴾ [الآية: ٢٧]. ولفظ (رُبَّ) يـأتي غالبـاً للتقليل، وأحياناً للتكثير، و(رُبَّمَا) الواردة هنا من هذا القبيل.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ اِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ إشارةٌ إلى سنَّة الله التي خلت من قبل في الأمم والشعوب عندما ترتكس في أوحال الضلال، وتصر على السير في طريق الخبال، فإن الله يسلط عليها أسباب الإبادة والهلاك، وعلى مدنها وقراها عوامل الخراب والاضمحلال. وبيَّن كتاب الله أن هناك قانوناً ثابتاً لا يتخلف لارتقاء الأمم وسقوطهـا، وسعادتهـا وشقائهـا، وعزِّهـا وذلِّها، فقال تعالى: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنُ امَّةٍ اَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـٔخِرُونَ ﴾ ومعنى ذلك أن الله جعل لكل أمة عمراً كأعمار الأفراد، وأجلاً لحياتها كأجل العباد.

ثـم عَـرَض كتـاب الله بعض الادعاءات والاتهامات التي اعتاد توجيهها إلى الرسل والأنبياء خصومُ النبوات والـرسالات، فقال تعالى حكاية عن مشركي قريش ـ وهم يخـاطبون الـرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰأَيُّهَا الذِي نُـزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ على غرار ما قالته الأقوام السابقة لمن جاء قبله بالرسالة، إذ وصفوهم بالغَباوة والسَّفاهة والضَّلالة.

وقولُ المشركين لرسول الله ﷺ: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ لم يصدر منهم على أنه اعتراف حقيقي بأنه رسول يوحى

إليه من عند الله، وإلا لأصبحوا مومنين، وإنما صدر منهم في صورة استخفاف بدعواه، كأنهم يقولون له: يا أيها الذي يزعم أنه نزل عليه الذكر، وما هم له بمومنين.

ورداً على استخفافهم، وإبطالاً لادعائهم، عقَّب كتاب الله على قولهم في نفس السياق فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾. وهكذا ركَّز كتاب الله جوابه حول المعنى الذي دار عليه كلامهم وهو: ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ فجاء بما يثبت ذلك المعنى ويؤكده تأكيداً قاطعاً، وأخبر بأن الله تعالى هو الذي نزَّل الذكر على رسوله حقيقة لا خيالاً، وصدقاً لا ادعاءً، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾.

ثم أضاف إلى ذلك ما هو أجلّ وأخطر، وهو أنه سبحانه قد تعهد، لا بتنزيل القرآن من عنده فحسب، بل تعهد بصيانة القرآن وحفظه من كل خلل على مر الأعصار، ورغم أنف جميع الخصوم والأعداء، فهو محفوظ بحفظ الله في الصدور والسطور من كل تبديل أو تغيير، وهو محفوظ بحفظ الله، من جميع العوارض التي تعرض للبشر عادة فيما يتناقلونه ويتحملونه على عُهْدتهم، ويتولّون حفظه بأنفسهم، وإذا كان غيرُ القرآن من الكتب المنزلة قد لحِقَه تغيير وتبديل، وتحريف وسوء تأويل، فإن ذلك آتٍ من أن الله تعالى قد ابتلَى أهلها عندما وكَل حفظها إليهم، فضيَّعوها ولم يحافظوا عليها، كما قال تعالى في شأنهم في سورة المائدة: ﴿ وَالرَّبَّـٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَـٰبِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [الآية: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتَ اَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ يصف فيه كتاب الله جميع الكفار والمنافقين المعاندين الذين أصمُّوا آذانهم عن سماع دعوة الدين، وتلقي الحق المبين، والمراد هنا أن هذا الصنف من الخلق لو رأوا بأعينهم أعظم خارق للعادة، وعُرِج بهم إلى السماء، والتحقوا بالملأ الأعلى، لأنكروا أمره، وادَّعوا أنه مجرد سحر أو تخييل، على غرار ما قاله فرعون وملأوه لموسى الكليم.

وقوله ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ أي يصعدون، وقوله حكاية عنهم: ﴿ سُكِّرَتَ اَبْصَـٰرُنَا ﴾ إما من السُّكْر ضد الصحو، فيكون معنى: ﴿ سُكِّرَتَ اَبْصَـٰرُنَا ﴾: كنا في غيبوبة، ورأينا الأمر على غير حقيقته، أو من السَّكْر بمعنى السد، فيكون معنى: ﴿ سُكِّرَتَ اَبْصَـٰرُنَا ﴾. حُبِست أبصارنا ومنعت من النظر، وهذا تصوير لادعائهم الكاذب، ولتهربهم بجميع الوسائل من الاعتراف بالحق.

وانتقل كتاب الله إلى التذكير بآيات الله في السماوات والأرض، التي هي أكبر من خلق الناس، عسى أن يتدبروها، ويدركوا ما فيها من حِكَم عامة لجميع المخلوقات، ومصالح خاصة للإنسان وغيره من الحيوان، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ، وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ، اِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ، وَالاَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ، وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ، وَإِن مِّن شَيْءٍ اِلَّا عِندَنَا

خَزَآئِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ، وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾. والمراد بالبروج ما يشمل منازل الشمس والقمر، والكواكب والشهب، والمذنَّبات والمجَرَات، وكل ما هو سابح في الفضاء من عوالم السماء.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ إشارةٌ إلى حكمة الله الدقيقة في أنواع النبات والثمرات، مما يتجدد خلقه دون انقطاع، حسب نواميس ثابتة لا تتخلف، وموازين دقيقة لا تختل ولا تضطرب.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ اِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ فيه إشارة إلى خزائن الله الواسعة التي بثَّها ووزعها في العالم العُلْوي والعالم السُّفْلي، والتي خَزَن فيها كل ما يتوقف عليه الإنسان، في مختلف العصور والأزمان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذه الخزائن لا يُطلِع اللّهُ عليها الإنسانَ جملة واحدة، ولا يضعها تحت تصرفه دفعة واحدة، وإنما يتم ذلك «بقدَر معلوم»، أي بمقدار محدود، طبقاً لحكمة الله العليا، المسيِّرة لهذا الكون، والسارية في جميع أجزائه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ إشارة إلى المياه التي يكرم الله بها عباده للشرب والسقي والنبات، وأنه سبحانه قادر على أن يُذهبها ويُغوِّرها فلا يبقى منها عين ولا أثر، لكنه رحمة بعباده، يدَّخر منها لصالحهم في جوف الأرض، ما يرتفقون به من

العيون والآبار، ويدَّخر منها على سطح الأرض ما تجري به الوِدْيان والأنهار، وهكذا يتولى الله خَزْنها رحمة منه بالإنسان، إذ قيام الإنسان بخزنها كلها والمحافظة عليها ليس في الإمكان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَـٔخِرِينَ ﴾ إشارة إلى أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء، أزلاً وأبداً، من الأوائل والأواخر، ثم أكد كتاب الله أنه سيجمعهم وسيحشرهم جميعاً في اليوم الموعود ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، والتعبير بقوله ﴿ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ للتنبيه على أن جمعهم جميعاً وحشرهم في صعيد واحد، ـ رغماً عن كثرتهم وتفرقهم وتطاول أعصارهم ـ هو وحده القادر عليه، وليس على الله بعزيز.

وانتقل كتاب الله من الحديث عن خلق السماوات والأرض إلى الحديث عن قصة خلق الإنسان، وما جاهر به ابليسُ آدم وبنيه من العداوة والبغضاء والحسد، مبيِّناً أن مشيئة الله اقتضت أن يخلق الإنسان ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾، وأن حكمته اقتضت أن يأمر ملائكته بالسجود لآدم بعد أن يسويه وينفخ فيه روح الحياة، تكريماً لما خصه به سبحانه من الخصائص والمزايا التي لم يمنحها لسواه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَـٰجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلَـٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ السَّـٰجِدِينَ ﴾.

ومعنى قوله: ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَـٰإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ من الوجهة اللغوية: «من طين يابس غير مطبوخ»، ومعنى قوله:

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ : أنعمت عليه بنعمتي الايجاد والامداد، وليس هناك نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل وتصوير لما أمر به الحق سبحانه وتعالى من تجهيز الإنسان وتزويده بالأجهزة الضرورية لحياته فوق سطح الأرض ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً اَنْ يَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وقولُه تعالى في نهاية هذه القصة، خطاباً لإبليس اللعين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ اِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ هو الذي سيضطر إلى الاعتراف به إبليس اللعين، عندما يفتضح أمره يوم الدين، قائلاً لأتباعه الغاوين، فيما حكاه كتاب الله في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ اِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [الآية: ٢٢]، فما نفاه الحق سبحانه عن ابليس في البداية ﴿ اِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ هو الذي أقر به ابليس في النهاية ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَـٰتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ ﴾ [الانعام: ١١٥].

وخُتِم هذا الربع بالحديث عما ينتظر المومنين المتقين في جنات النعيم فقال تعالى: ﴿ اِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ـ امِنِينَ ﴾ أي يقال لهم: سلام عليكم ادخلوها سالمين ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ، اِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أي اخواناً في الآخرة كما كانوا اخوة في الدنيا ـ إنما المومنون إخوة ـ ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي
عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ
إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا
لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ
الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ
قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾

وَأَتَيۡنَٰكَ بِالۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَاسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ
الَّيۡلِ وَاتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمُۥٓ أَحَدٞ وَامۡضُواْ حَيۡثُ
تُومَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ الۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ
مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ الۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧
قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَاتَّقُواْ اللَّهَ
وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ الۡعَٰلَمِينَ ٧٠
قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيَ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ
يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ الصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّلۡمُومِنِينَ ٧٧ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ الۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَانتَقَمۡنَا
مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ الۡحِجۡرِ
الۡمُرۡسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمُۥٓ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١
وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ الۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ الصَّيۡحَةُ
مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤ وَمَا خَلَقۡنَا
السَّمَٰوَٰتِ وَالۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِالۡحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ

فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾
لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي
أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾
الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الاَلِيمُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّـٰجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾.

في بداية هذا الربع قرر كتاب الله مبدأً أساسياً في العقيدة الإسلامية، عليه يقوم الثواب والعقاب، وبه يرتبط الخوف والرجاء، فقال تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الاَلِيمُ ﴾ فمن أراد رحمة الله سعى لها سعيها، ومن أراد غير ذلك نال الجزاء الذي يستحقه، ولا يظلمون فتيلاً.

وتناول كتاب الله بالذكر في هذا الربع قصة لوط وقومه، التي مر ذكرها في سورة هود، فقد كان العمل الذي ابتدعه قوم لوط في حد ذاته من أنكر المنكرات وأفحش الفواحش، مما أثار غضب الله عليهم، وأوجب ضرب المثل بخطيئتهم وبعقوبتهم،

واحتقار الناس لهم ولمن سلك مسلكهم عبر الأجيال والقرون.

وبمناسبة ذكر قصة لوط وقومه أشار كتاب الله إلى جنوده من الملائكة الذين أرسلهم إلى قوم لوط وعرَّجوا في طريقهم على إبراهيم الخليل، واستضافوه فأكرم ضيافتهم، وبشَّروه بغلام عليم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰماً، قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي قال إبراهيم إنا منكم خائفون ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ إي لا تخف: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسحاق الذي ولد لإبراهيم بعد أخيه إسماعيل ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ﴾ أي ابشرتموني بالولد، مع أنني قد كبُر سني ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِالْحَقِّ﴾ أي باليقين الثابت ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَـٰنِطِينَ، قَالَ وَمَنْ يَّقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّآلُّونَ﴾، وهذا دليل على تحريم القنوط من رحمة الله ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم وبأي شيء جئتم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ والمراد هنا قوم لوط، وُصِفوا بالإجرام، لإقبالهم على الشذوذ الجنسي الذي هو من أكبر الآثام: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي فإنهم مستثنَوْن من القوم المجرمين، وقد استثنى الله من ءال لوط أنفسِهم امرأتَه التي بقيت على ملَّة قومها ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَـٰبِرِينَ﴾ أي أن الله تعهد بنجاة ءال لوط، ما عدا امرأته، فإنها من الهالكين ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي قال لهم لوط إنني أجهلكم ولا أعرفكم ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ

يَمْتَرُونَ ﴾ أي جئنا لإخبارك بعذاب قومك، ذلك العذاب الذي أنذرتهم به وكانوا يشكُّون في وقوعه، ويستهزئـون بك من أجله ﴿ وَأَتَيْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُـونَ، فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ ﴾ أي اخرجْ يا لوط من هذه الأرض الظالـم أهلها برفقة أهلك، بعد مُضيّ جزء من الليل ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ أي اجعل أهلك أمامك وسر خلفهم من ورائهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي إذا سمعتم وقع الصيحة بالقوم المجرمين فلا تلتفتوا إليهم، واتركوهم فيما حلَّ بهم من العذاب ﴿ وَامْضُواْ حَيْثُ تُومَرُونَ ﴾ أي واصلوا السير إلى المكان الذي أمركم الله أن تسيروا إليه، ويفهم من هذه الآية أنه كان معهم من يدلُّهم على مقرهم الجديد ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي أن الله قضى أن يقـطع دابر قـوم لوط عنـد الصباح ﴿ إِنَّ مَـوْعِـدَهُمُ الصُّبْـحُ ﴾ [هـود: ٨١].

﴿ وَجَـآءَ أَهْلُ الْمَـدِينَةِ يَسْتَبْشِـرُونَ ﴾ أي جاء قـوم لـوط المتساكنون بمدينتهم، مظهِرين الفرح بضيوف لوط نـاوين بهم سوءاً، دون أن يعرفـوا أن هؤلاء الضيوف إنما هم في الحقيقة جنود الله وملائكته الموكلون بعـذابهم على فاحشتهم الكبـرى، لكن الله أراد أن يقيم الحجة عليهم وهم شِبْهُ متلبسين بالجريمة، لأنهم عزموا عليها، فبادرهم نبيهم لوط: ﴿ قَالَ إِنَّ هَـٰؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ، قَالُوٓاْ أَوَ لَمْ نَنْهَـكَ عَنِ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي أما نهيناك أن تُضَيِّف أحداً عندك، وذلك حتى يتمكنوا من ضيوفهم ويعتدوا على كرامتهم ﴿ قَالَ هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِي إِن

كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ المراد إرشادهم إلى وجوب الاقتصار على الزواج بالإناث من قومه، وتذكيرهم بأن الله تعالى إنما خلق الذكر والانثى ليزاوج بينهما من أجل عمران العالم واستمرار النوع البشري عن طريق التناسل جيلاً بعد جيل، في حدود الشريعة والفضيلة، وأنه لا يرضى عن الشذوذ الجنسي الذي هو أكبر رذيلة ﴿فَأَخَـذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ أي عند شروق الشمس، والمراد «بالصيحة» العذاب الذي رافقة صوت مزعج كصوت الرعد القاصف ﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ أي قلبنا مدينتهم رأساً على عقب قلباً مادياً ومعنوياً، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

ثم عقب كتاب الله على قصتهم بقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي أن في عذاب قوم لوط وانتقام الله منهم آيات قاطعة، وبراهين ساطعة، يعتبرُ بها كلٌ من عنده فراسة وبصيرة من المومنين، حتى لا يقع فيما وقعوا فيه ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي أن مدينة قوم لوط التي قلبها الله عليهم انتقاماً منهم واقعة على طريق مطروق يمر به الناس حتى اليوم، ليعتبروا ويتذكروا ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِالَّيْلِ ﴾ [الصافات: ١٣٧ ، ١٣٨] وتأكيداً لنفس العبرة المقصودة من قصتهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُومِنِينَ ﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن آمن بالله وقدرته، حتى لا يعمل عمل قوم لوط المستهجن، ولا يسلك مسلكهم المرذول، وحتى لا يتعرض في ذاته لنوع من المسخ والقلب، إن لم يكن مسخاً وقلباً مادياً كان على الأقل قلباً ومسخاً معنوياً.

وقولُه تعالى ضمن قصة لوط: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الظاهر أنه خطاب للوط عليه السلام، وتنديد بقومه الذين أصروا على الغواية والضلال. وذهب بعض المفسرين إلى أنه جملة معترضة، وُجِّه الخطاب فيها إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام. قال ابن كثير: «أقسَم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض». وعن ابن عباس أنه قال: «ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره». قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، وقال ابن جُزَيّ: «(لعمرك) قَسَم. والعمر الحياة، ففي ذلك كرامة للنبي ﷺ، لأن الله أقسم بحياته».

ثم أشار كتاب الله هنا بغاية الإيجاز إلى قصة شعيب وقومه، فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ، فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ، وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، وأصحاب الأَيْكة هم قوم شعيب، والمراد «بالايكة» الغيضة من الشجر المُلْتَف، وقد أضرمها الله عليهم ناراً لما ظلموا وتمرَّدوا، قال ابن كثير: «وقد كانوا قريباً من قوم لوط في الزمان، ومسامتين لهم في المكان»، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي أن مقر قوم لوط، ومقر قوم شعيب واقعان على طريق واضح يراه الناس ويمرون عليه باستمرار، للذكرى والاعتبار.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن قصة أصحاب الحِجْر، وبها سمِّيت هذه السورة «سورة الحِجر»، والمراد بهم ثمود، وهم

قوم صالح عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ـ ءَامِنِينَ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ، فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾. والحِجْر هنا اسم للمكان الذي كان قوم صالح نازلين به مستقرين فيه، وهو واقع بين المدينة والشام، وكانت بيوت ثمود ومنازلهم منقورة بالمعاول في الجبال، وقد بلغ تحديهم لنبيهم صالح منتهاه عندما عَقَروا ناقة الله، التي طالما أمرهم صالح بعدم المساس بها، والتي طالما دعاهم إلى تركها تأكل من أرض الله وتشرب من مائه، فعاقبهم الله على جرائمهم كلها عند عَقْرهم لها، وكان عقابهم بالصيحة صباحاً، فهلكوا وبادوا.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إشارةٌ إلى أن الله تعالى لم يخلق خلقه عبثاً، وإنما خلقهم لحِكَم دقيقة، بعضها معلوم، وبعضها استأثر الله بعلمه، ويشبهه قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً ﴾ [المومنون: ١١٥]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلاً، ذَٰلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [صٓ: ٢٧].

وقولُه تعالى: ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ تنبيهٌ من الله لرسوله إلى وجوب الصبر على معاملة المشركين وتحمُّل أذاهم، في سبيل الدعوة إلى الله. و «الصفح الجميل» هو الذي ليس معه أدنى مؤاخذة ولا عتاب.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إشارة إلى أم القرآن الكريم، وهي فاتحة الكتاب. و «المثاني» جمع مَثْنَى، مشتق من التثنية وهي الإعادة والتكرير، لأن الفاتحة تتكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، وعطف القرآن على السبع المثاني من عطف العام على الخاص. وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»، قال ابن كثير: «فهذا نص في أن الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن ذلك لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً». قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَـٰباً مُّتَشَـٰبِهاً مَّثَانِيَ ﴾ [الزُّمر: ٢٣]، فهو «مثاني» من وجه، و «متشابه» أي متماثل، من وجه آخر، وهو القرآن العظيم.

والمراد «بالسبع الطوال» عند من فسَّر بها «السبع المثاني» في هذه الآية: سور البقرة، وءال عمران، والنساء، والمائدة، والانعام، والاعراف، ويونس. وقد ذهب إلى هذا التفسير ابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك. وسميت السبع الطوال «مثاني» لأن الحدود والفرائض والأمثال ثنيت فيها حسبما رُوي عن ابن عباس.

وقولُه تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجاً مِّنْهُمْ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ بعد امتنان الله على رسوله بالسبع المثاني والقرآن العظيم مباشرة، هذا تنبيه من الله لرسوله إلى أن ما أنعم به عليه من نعمة الوحي والإيمان، ومعجزة القرآن، يفوق كل نعمة أخرى أنعم بها على بني الإنسان، فكل النعم سواها

تتضاءل دونها، ولا تبلغ درجتها، وما عند أصناف الكفار من متاع الدنيا على اختلاف أنواعه لا قيمة له بالنسبة لنعمة الوحي والرسالة.

قال أبو حيان: «هذا النهي وإن كان خطاباً للرسول ﷺ فالمعنى نهي أمته عن ذلك، لأن من أوتي القرآن شَغَله النظر فيه، وامتثال تكاليفه، وفهم معانيه عن الاشتغال بزَهْرة الدنيا، و«مد العين» للشيء إنما هو لاستحسانه وإيثاره».

وقال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾ أي استغنِ بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية». وهذه الآية تشبه قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا﴾ [طه: ١٣١]. والمراد «بالأزواج» في كلتا الآيتين أصناف الكفار وطبقات المترفين، المتعددة الأنواع والأشكال.

وقولُه تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُومِنِينَ﴾ تنبيه من الله لرسوله على مواصلة الإحسان في معاملة المومنين، تأليفاً لقلوبهم، وتركيزاً للإيمان في نفوسهم. و«خفضُ الجناح» استعارة للين الجانب والتواضع. على أن الأمر بخفض الجناح للمومنين ورد مقيَّداً في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ [الآية: ٢١٥].

وقولُه تعالى: ﴿الذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ تنديد بالذين

يومنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض من السابقين واللاحقين، وهم أولئك الذين يقولون في الوحي المنزل من عند الله أقوالاً متناقضة، ويقفون من أحكامه وتعاليمه مواقف متعارضة، فيُحقُّون ما وافقته آراؤهم، ويُبطلون ما خالفته أهواؤهم، ومن ذوي السوابق في هذا الباب، «أهل الكتاب» الذين حرَّفوا الكتب المنزلة عليهم وجزَّأوها أجزاءً، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

وكلمة «عِضِين» جمع عِضَة بمعنى القطعة. يقال عَضَا الشاةَ «يعضُوها إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأقساماً، وكلمة «المقتسمين» جمع «مقتسم» وهذا اللفظ له وجهان من الاشتقاق كلاهما وارد وصحيح:

ـ الوجه الأول اعتبار لفظ «المقتِسم» مأخوذاً من القَسَم وهو الحَلِف واليمين، ويصدُق بهذا المعنى علَى أولئك الذين تحالفوا وتعاهدوا فيما بينهم على الطعن في كتاب الله، وصدِّ الناس عن سبيل الله، فعبأوا جميع طاقاتهم لإعلان الحرب عليه وجهاً لوجه دون هوادة ولا تختل. ويندرج في هذا الصنف كل الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم في القديم والحديث. ومن السلف الطالح في هذا الباب الرهط الذين تقاسموا على اغتيال صالح وأهله ليلاً، وإنكارِ العلم باغتياله نهاراً، وإليهم يشير قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الآيتان: ٤٨، ٤٩].

- والوجه الثاني اعتبار لفظ «المقتسِم» مأخوذاً من القِسْمة والتجزئة، ويصدق بهذا المعنى على أولئك الذين اختاروا للطعن في كتاب الله، وصد الناس عن سبيل الله، طرقاً ملتوية، مطبوعة بطابع الدس والمخاتلة والخداع، فوزعوا فيما بينهم أدوار الهدم والتخريب، وتصدّى كل فريق منهم لجانب من الجوانب التي يُحسِن فيها التمويه والتضليل والتدجيل، وذلك في نفس الوقت الذي يتظاهرون فيه بالاِهتمام بالإسلام، ويعربون عن اعجابهم ببعض جوانبه، وهكذا نجد البعض منهم يخصص وقته للطعن في عقيدة الإسلام، والبعضَ الآخر يكرِّس جهوده لإبطال شريعة الإسلام، ونجد أحدهم يأخذ على عاتقه تشويه تاريخ الإسلام، والآخر ينكر وجود أية حضارة للإسلام، ومن هؤلاء فريق غير قليل من المستشرقين، وكثير من المستغرِبين. ومن السلف الطالح في هذا الباب ما سجله التاريخ عن بضعة عشر نفراً من مشركي قريش اجتمعوا تحت رياسة كبيرهم الوليد بن المغيرة قبل حلول موسم الحج، وقرروا أن يقتسموا مداخل مكة عندما يحضر الموسم، فقعدوا عند حلول موسم الحج في كل مدخل، متفرِّقين في طرقها وجبالها وفجاجها، ليُنفِّروا الوافدين عليها من الاِتصال برسول الله ﷺ ومن الإيمان به. يقول أحدهم: لا تغترّوا به فإنه ساحر، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه كذاب، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه شاعر، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه كاهن، ويقول الآخر: لا تغتروا به فإنه من الغاوين، وليُجمِعوا أمرَهم نصَّبوا الوليد بن المغيرة حَكَماً عند باب البيت الحرام، ليزكيهم ويُصدِّق مقالاتهم كلما سأله أحد الوافدين على البيت عن صدق

ما قالوه، إلى آخر السلسلة الطويلة من البهتان وقول الزور، الذي حمل كلٌّ واحد منهم وزره، فلم يلبثوا أن أخذهم الله أخذاً وبيلاً.

وقولُه تعالى ﴿ وَقُلِ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ عقب قوله تعالى هنا: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمومِنِينَ ﴾ تنبيه إلى أن أمر الله لرسوله بخفض جناحه للمومنين لا يعني إخراجهم من عهدة النِّذارة الملازمة لهم إلى يوم الدين، فهو نذير لهم وللناس أجمعين.

وقولُه تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ عقب قوله: ﴿ وَقُلِ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ نظيرُ قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ اَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣] وهو إشارة إلى أن القول في النِّذارة للمومنين كالقول فيها لغيرهم من «المقتسمين»، فنِذارة الرسول عليه السلام شاملة وعامة للجميع على السواء، دون تمييز ولا استثناء.

وقولُه تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمُ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قَسَم من الله بذاته وربوبيته، مضاف إلى رسوله على جهة التشريف والتكريم، والضمير في «لنسألنّهم» يعود على الجميع من كافر ومومن، فالسؤال عن العمل عامّ للخلق دون فرق، يُسألون لماذا عملتم كذا ولم تعملوا كذا؟ على وجه الحساب، للثواب والعقاب، ولا يُسألون هل عملتم كذا وكذا؟ لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك. وهذا السؤال على وجه الاستفهام المحض هو المنفى في قوله تعالى في سورة الرحمٰن: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الآية: ٣٩].

وقولُه تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُومَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أمرٌ من الله لرسوله بإعلان الدعوة إلى الله، والجهر بالحق، رغماً عن معارضة المشركين القوية، وأذاهم البالغ. قال عبد الله بن مسعود: «ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُومَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه».

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ مواساةٌ من الله لرسوله، وحضٌّ له على مواجهة أذى المشركين بسعة الصدر، والتجمل بالصبر، كما أن فيه حضّاً له على التسلح بسلاح العبادة والذِّكْر، ولذلك كان ﷺ يصلي كلما حَزَبه أمر، واستمر على ذلك حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في أعلى عليين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١
يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ
أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ
ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ
خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥
وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ
أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ
إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ
لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ

ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ
شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ
وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ
وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا
أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ
مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا
لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾
أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ
غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم
مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم
مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ
كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ
عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ
مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ
وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ
أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۢۚ بَلَىٰٓ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في مطلع سورة النحل المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا، فَلَبِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

في نهاية الربع الماضي ختمنا بفضل الله سورة الحِجْر المكية، وفي بداية هذا الربع نشرع بعون الله في تفسير سورة النَّحْل المكية أيضاً، وقد سميت هذه السورة «سورة النحل» أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا، يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ اَلْوَٰنُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى في بداية هذه السـورة: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ إخبارٌ عن قُرب قيام الساعة رغماً عما يظهر من بُعدها، فكل آتٍ قريب، على غرار قوله تعالى في آية ثانية:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، ووُضع الفعل الماضي في الآية موضعَ المستقبل، لتحقق وقوع «أمر الله» وهو يوم القيامة، إذ هو أمر واقع، ما له من دافع.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ يُشبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِهَا، وَالذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ، أَلَآ إِنَّ الذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨].

وقولُه تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَـٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنَ اَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنَ اَنذِرُوٓاْ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَـاْ فَاتَّقُونِ ﴾ المراد «بالرُّوح» هنا النبوة والوحي، ويشبهه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنَ اَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَـٰقِ ﴾ [غافر: ١٥]، ويصدُق هذا على «الذكر الحكيم» فهو بمنزلة الروح التي يحيا بها المومن، إذ يكيِّف حياته في الدنيا فيجعلها حياة طيبة، ويُعِدُّه للحياة الدائمة في الدار الآخرة، فيفوز بالخلود في جنات النعيم.

وبخصوص التعبير «بالروح» عن القرآن الكريم جاء قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ اَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَـٰبُ وَلَا الِايمَـٰنُ، وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالقرآن روح حقيقية ومعنوية، أحيا الله بها الإنسانية ديناً ودنيا، وقد كان نزوله نقطة تحوُّل في تاريخ النوع

البشري، ومرحلة حاسمة في تطور العقائد والشعائر والشرائع، ونقطة انطلاق في حياة الأمم والشعوب والسلالات، مما أدى إلى تغيير خريطة العالم في أكثر البلدان والأقاليم والقارات، فعالَم ما بعد القرآن غير عالم ما قبل القرآن، بشهادة الأصدقاء والأعداء.

وقولُه تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُـوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشـارةٌ إلى بدايـة الإنسـان المتـواضعـة، وإلى نهـايتـه المستكبِرة، التي يَبرُز فيها الكِبْر والعناد، والتمرد على أوامر الله وتوجيهاته للعباد.

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى تعداد النعم التي أنعم الله بها على الإنسان متاعاً وانتفاعاً، رحمة منه وإحساناً، وبيَّنت جملة من أنواع الدواب التي سخَّرها لخدمته ومنفعته، مما يرتفق به في مرافقه الضرورية، أو يتغذى منه بأطيب الأغذية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَالأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَاكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَـا وَزِينَةً، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وأشارت الآيات الكريمة إلى المنـظر الجميل الذي تكون عليه الأنعام عند عرضها حين سَرْحها وذهابها إلى المراعي، وحين رجوعها ورواحها منها: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِيـنَ تَسْرَحُونَ﴾. قال أبو القاسم ابن جُزَيّ: «وإنما قدَّم (تريحون) على (تسرحون) لأن جَمال الانعام بالعشِيّ أكثر، حيث إنها ترجع من المراعي وبطونُها ملأى، وضُروعها حافلة».

وقولُه تعالى في نهاية هذه الآية: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إشارةٌ إلى ما تُبرزه القدرة الإلّهية جيلاً بعد جيل، من وسائلَ جديدة للنقل أو المواصلات، وأصناف جديدة من الأغذية والمأكولات، وما وراء ذلك مما لا يحيط بعلمِه إلا بديع الأرض والسماوات.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ ﴾: «في هذا دليل على لباس الصوف، فهو أول ذلك وأولاه، فإنه شعار المتَّقين، ولباس الصالحين، وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهَّاد والعارفين، وهو يُلبَس ليِّناً وخشِناً، وجيداً ومقارِباً ورديئاً، وإليه نُسب جماعةٌ من الناس (الصوفية)، لأنه لباسُهم في الغالب، فالياء للنَّسب والهاء للتأنيث».

وقال (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾: «والجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلْقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال.

«فأما جمال الخِلْقة فهو أمر يدركه البصر، فيلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفس، من غير معرفة بوجه ذلك ولا بسببه لأحد من البشر.

«وأما جمال الأخلاق فبكونها على الصفات المحمودة، من العلم والحكمة، والعدل والعفة، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكل واحد.

«وأما جمال الأفعال فهو وجودُها ملائمةً لصالح الخلق، وقاضيةً بجلب المنافع إليهم، وصرف الشر عنهم.

«وجمال الانعام والدواب من جمال الخِلْقة محسوب، وهو مرئي بالأبصار، موافق للبصائر، ومن جمالها كثرتُها»، إلى أن قال رحمه الله: «وليس في الحمير زينة، ولكن المنفعة بها مضمونة.

«وهذا الجمال والتزيُّن وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله فيه لعباده، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: الإبل عزٌّ لأهلها، والغَنَم بركة، والخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.

« وإنما جمع الله العز في الابل، لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو، وإن نقصها الكرّ والفَرّ، وجعل البركة في الغنم، لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الولادة، فإنها تَلِدُ في العام ثلاث مرات، إلى ما يتبعها من السكينة، وتحمِلُ عليه صاحبها من خَفْض الجناح ولين الجانب... وقرن ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر، لما فيها من الغنيمة، المستفادة للكسب والمعاش، وما تُوصِّل إليه من قهر الأعداء، وغَلَبة الكفار، وإعلاء كلمة الله».

ونبَّه القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ على ما أمر به رسول الله ﷺ من الرِّفق بالدواب، وإراحتها، ومراعاة التفقد لعَلَفها وسقيها. وفي الموطأ قال مالك عن أبي عبيد عن خالد بن معدان: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويَرضَى به،

ويعين عليه ما لا يعين على العُنْف، فإذا ركبتم هذه الدواب العُجْمَ فأنزلوها منازلها» إلى آخر الحديث.

وقولُه تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ يُشبِه قولَه تعالى في آية أخرى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الانعام: ١٥٣]. والمراد بقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ كما قال مجاهد: «طريقُ الحق المؤدية إلى الله»، قال ابن كثير بعد ذكره أقوالاً أخرى في تفسير هذه الآية: «وقول مجاهد أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثَمَّ طُرُقاً تُسلَك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرَعها ورضيها، وما عداها من الطرق مسدودة، والأعمال فيها مردودة». وقال ابن جُزَيّ: «معنى القصد في قوله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾: القاصد المُوصِّل، وإضافته إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف، فكأنه قال: وعلى الله بيانُ السبيل القاصد الموصل إليه».

وقولُه تعالى: ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ الضمير يعود على «السبيل» المراد به هنا الجنس، ومعنى «الجائر» الحائد والمائل عن الحق، والخارج عن الصواب.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَيـٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨] لكنه خلق الإنسان حراً مختاراً، فلم

يُكرهْه على الإيمان، ولم يُلجِئه إلى الإذعان، فكان منه مومن وكافر، وشقي وسعيد.

ثم انتقل كتاب الله إلى عرض جملة من النعم الأخرى في معرض امتنانه على الإنسان، وتذكيره بالحقوق التي عليه لربه، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ هُوَ الذِيٓ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ، أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وفي هذا السياق بيَّن كتاب الله العبرة المقصودة من عَرْض النعم التي أنعم بها على الإنسان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَالِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَالِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَالِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فمن له عقل وفكر استيقظ وتذكر، ونظر واعتبر، وفكر وقدر، وشكر وما كفر.

ثم تصدى كتاب الله للرد على عَبَدة الأصنام والأوثان، وسجَّل عليهم جملة من الادعاءات الباطلة القائمة على مجرد الزور والبهتان، وجدد دعوته لهم إلى الإيمان والإذعان، ببالغ الحجة وساطع البرهان، وذكَّرهم بسوء المنقلَب الذي آل إليه أمر الكافرين والماكرين قبلهم منذ قديم الزمان، فقال تعالى: ﴿ وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ، إِلَـٰهُكُمُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ،

فَالذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ، لَا جَرَمَ ﴾ أي لا بد ولا شك ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ الَاوَّلِينَ، لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ، وَمِنَ اَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ، اَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ، قَدْ مَكَرَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ، وَأَتَيٰهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الذِينَ كُنتُمْ تُشَٰقُّونَ فِيهِمْ، قَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوٓءَ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَمِنَ اَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ اللام فيه للأمر، وبمعنى هذه الآية ورد الحديث النبوي الشريف (من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)، وقولُه عليه السلام: «من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنَّة سيِّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» أو كما قال عليه السلام.

وقولُه تعالى في ختام هذا الربع: ﴿ الذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ، فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ، مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إخبارٌ من الله تعالى عن حال المشركين والكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر، ولم يَقْدُروا الله حق

قَدْره، فكان شركُهم بالله ظلماً عظيماً، ووصفٌ لهم كيف يكونون عند الاحتضار ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة، حيث يُظهِرون، وقتئذ السمع والطاعة، ويتبرَّأون مما عملوا من السيئات، فيُكذِّب الملائكة دعواهم، بشهادة الله التي لا مردَّ لها، ويخبرونهم عن مصيرهم المفجع، قائلين: ﴿ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِيـنَ فِيهَا، فَلَبِيسَ مَثْـوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين
في المصحف الكريم

وَقِيلَ لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ
تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ
نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾
وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ
ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ
ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي
مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ
أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ
حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ
كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ
لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ
كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا يُوحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ
ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ
أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ
فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ
رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ
ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ
مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞

الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلذِينَ اتَّقَواْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَـئِكَـةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ ﴾.

بعدما بيَّن كتاب الله في الربع الماضي كيف يستقبل خصومُ النبوات والرسالات الوحيَ الإلٓهي فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنـزَلَ رَبُّكُمْ قَالُـوٓاْ أَسَـطِيرُ الاَوَّلِينَ ﴾ بيَّن كتاب الله في بداية هذا الربع كيف يستقبل الوحيَ أنصارُ الرسل وأتباعُهم الذين اتقوا وآمنوا، فقال تعالى في وصفهم: ﴿ وَقِيلَ لِلذِينَ اتَّقَواْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ، قَالُواْ خَيْراً﴾ وذلك اعتراف منهم بما يحتوي عليه الوحي الإلٓهي من خير عظيم لهم ولأُسَرهم ولأممهم وللإنسانية جمعاء، خير يشمل الدين والدنيا والآخرة، خير يعم الفرد والمجتمع والدولة في آن واحد، فهو رحمة للعالمين وهدى للضالين.

ثم انتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة واقعية بالنسبة للمومنين الصادقين، ألا وهي أن الله تعالى يكرمهم بحياة طيبة في الدنيا وحياة أطيب منها في الآخرة، فالإيمان الصادق والعمل الصالح يسري مفعولهما، ويظهر أثرهما في الحياة اليومية الأولى، قبل أن يسري مفعولهما ويظهر أثرهما في الحياة الأخرى، وليس الأمر كما يظن الشاكون والمترددون أن ثمرة الإيمان لا يُقطَف جَناها في الدنيا، ويُخشَى أن لا يُقطَف جَناها في الآخرة، وإلى هذه الحقيقة الإيمانية الواقعية يشير قوله تعالى هنا: ﴿ لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الَاخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وكما وصف كتاب الله في الربع الماضي حال المشركين والكافرين الذين ظلموا أنفسهم، وكيف يكونون عند الاحتضار، وكيف ينتزع الملائكة أرواحهم الخبيثة، وكيف يستقبلهم خَزَنة جهنم، فقال تعالى: ﴿ الذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ، فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ، مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ، بَلىٰ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا، فَلَبِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، تناول كتاب الله بالوصف والبيان في هذا الربع حال المومنين الصادقين، وبيَّن أيضاً كيف تتوفاهم الملائكة عند لقاء الله، وكيف تستقبلهم في دار الخلد، فقال تعالى: ﴿ الذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ، يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا وَفِي الأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ حكايةٌ لمزاعم المشركين ومن لَفَّ لَفَّهم، ووصفٌ لاعتقادهم الفاسد: أن القضاء والقدر هما المانعان اللذان يحولان بينهم وبين الطاعة والإيمان، بينما الواقع يبطل ادعاءهم، ويهدم اعتقادهم، فقد مكَّن الله الإنسان من جميع الأجهزة والمَلَكات التي يميِّز بها الخير من الشر، والحق من الباطل، ولم يقتصر على ما منحه من الأجهزة والمَلَكات الصالحة والكافية للتمييز، بل أكرمه عِلاوة على ذلك ببعث الأنبياء وإرسال الرسل جيلاً بعد جيل، مبشِّرين ومنذرين، ومبيِّنين طريق الحق والهدى للناس أجمعين، وأَتبعَ ذلك كله بدرس عملي، يبين الأثر الطيب لعقيدة التوحيد، ودرس عملي آخر، يبين الأثر السيء للإصرار على الشرك والضلال. وبذلك سقطت حجة كل من ادعى الجهل أو الغفلة، أو اتَّهم بكفره وضلاله القضاءَ والقدر، ولم يبقَ عذر لمن اختار طريق الضلال على طريق الهدى، وأصبح كلُّ إنسان مسؤولاً عن نفسه، محاسَباً على اختياره، مجازى عليه بالخير إن كان اختياره خيراً، وبالشر إن كان اختياره شراً، وبيَّن كتاب الله أن موقف المشركين من رسالة الإسلام وخاتم الرسل ليس أمراً مفاجئاً ولا جديداً، بل هو أمر متعارف عن المشركين منذ عهد قديم، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ

إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ، وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ، فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾، أي باتِّباع الرسل ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَٰلَةُ ﴾، أي بمخالفتهم والخروج عليهم، ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.

ثم وَجَّه كتاب الله الخطاب إلى الرسول الأعظم مواسياً إياه، فقد كان ﷺ شديد الإهتمام بهداية الناس إلى الحق، قويّ الحرص على نجاتهم، عميق الحزن كثير الأسى على انحرافهم، وإلى هذا المعنى يُلمِّح قولُه تعالى هنا: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدَىٰ مَن يُضِلُّ، وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، وقولِه تعالى في آية ثالثة: ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة: ٤١]، وقولِه تعالى في آية رابعة: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدَىٰ مَن يُضِلُّ ﴾ بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول، طبقاً لقراءة ورش عن نافع: «لا يهدِي غيرُ الله مَن يُضله الله» والضمير في قوله: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ يعود على الضالين، فقد حكم الله عليهم بالخذلان دنيا وأخرى، جزاءً وفاقاً.

ثم حكى كتابُ الله قول منكري البعث، وزيَّفَ قولهم، وأكد أن البعث وعد حق وصدق من الله عز وجل، ولن يخلف الله

وعده، فقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ أي أقسموا بأغلظ الأيمان ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ كأن الله الذي أنشأ النشأة الأولى لا يقدر أن ينشىء النشأة الثانية، وهذا الفهم العاطل والوهم الباطل مناقض للمنطق السليم، مخالف للقياس الصحيح، فمن أنشأ النشأة الأولى يكون في منطق العقل البشري قادراً على النشأة الثانية من باب أولى وأحرى، ولذلك ردَّ كتاب الله على منكري البعث قائلاً: ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي بل سيكون البعث لا محالة ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَلِيَعْلَمَ الذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴾ إشارة إلى إحدى الحِكم الإلّهية التي تتحقق عن طريق البعث والنشور، ألا وهي تحقيقُ العدل الكامل بين الناس في دار الجزاء، والفصلُ بين المختلفين في حقوق الدنيا وحقائق الدين، وتمييزُ المحقّين من المبطلين، والناجين من الهالكين، وتعريفُ المكذبين بكذبهم والضالين بضلالهم، وتبعاً لذلك يُجازَى كل فريق على عمله بمقتضى العدل المطلق، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم عقّب كتاب الله على شك منكري البعث في البعث، مذكِّراً عباده بأن قدرة الله مطلقة حرة لا يحُدّها أيّ قيد من القيود، ولا يعجزها أيّ شيء كبر شأنه أو صغر في الوجود، وأن مشيئة الله متى تعلقت بأمر من الأمور، برز ذلك الأمر في الحين إلى عالم الظهور، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن، فَيَكُونُ ﴾، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا

بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨].

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن المهاجرين في سبيل الله، الذين آثروا سلامة عقيدتهم على كل شيء، وضحَّوا من أجلها بجميع المصالح والأغراض، ففارقوا الأهل والعشيرة والمتاع، وتعرضوا لضيق العيش وغربة الدار، وبيَّن كتاب الله مكانة المهاجرين عند الله في الدنيا والآخرة، منوِّهاً بخصالهم ومزاياهم، فقال تعالى: ﴿ وَالذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِنۢ بَعْدِمَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً، وَلَأَجْرُ الَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ، الذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾. رُوي أن عمر بن الخطاب كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: «خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعَدك الله في الدنيا، وما ادَّخر لك في الآخرة أفضل» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً، وَلَأَجْرُ الَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وتناول كتابُ الله الرد على المشركين الذين كانوا لجهلهم بسُنَن الله في خلقه، وجهلهم بتاريخ النبوات والرسالات السابقة، يستبعدون أن يُرسِل الله إليهم من أنفسهم رسولاً، وخاطبهم داعياً إياهم إلى سؤال أهل الذكر من أهل الكتب المنزلة الماضية - إن لم يكتموا ويُحرّفوا - هل كان رُسُلهم بشراً أم غير بشر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحىٰ إِلَيْهِمْ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحىٰ إِلَيْهِمْ، فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الآية: ٧].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ ﴾ متعلق بقوله قبل ذلك: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا ﴾ أي وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالاً يوحى إليهم، على قاعدة التقديم والتأخير في الكلام، المتعارفة في لسان العرب، والمراد «بالبينات» هنا الحجج والبراهين، والمراد «بالزُّبُر» الكتب، جمع زَبُور أي كتاب.

وقولُه تعالى خطاباً لرسوله الأعظم: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إشارةٌ إلى الذكر الحكيم والقرآن العظيم بالخصوص، وإنما أُطلق على القرآن اسم «الذكر» لما فيه من تذكير الناسي وتنبيه الغافل، وهذه الآية تتضمن بيان اختصاص الرسول، وتكليفَه بتبليغ الوحي المنزل عليه من عند الله، وبتبيين حِكَمه ومقاصده وأهدافه للناس أجمعين، كما تتضمن بيان الحكمة في تنزيل القرآن الكريم، وأن الحكمة منه هدايةُ الناس إلى صلاحهم، وإثارةُ الخير في نفوسهم، فلخيرهم نزَل على الرسول القرآن، ولهدايتهم وجب على الرسول البيان: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي لهدايتهم وإرشادهم ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

ثم أنذر كتابُ الله المشركين والكافرين بعقابه الصارم، وحذَّرهم من أن يصيبهم ما أصاب الأقوام التي هلكت من قبلهم، فقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي ارتكبوا المعاصي بمكر وخبث، ﴿ أَنْ يَّخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، أَوْ يَاخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أي في أسفارهم ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ، أَوْ يَاخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ أي يأخذهم

بالنقص من الأموال والأنفس والثمرات، حتى يَهلِكوا على فترات.

وأخيراً لفَتَ كتاب الله أنظار الشاكين والمترددين من الخلق إلى جلال الله وعظمته، وذكَّرهم بأنه القاهر فوق عباده، والمهيمن على خلقه، فالكل لسلطانه خاضع، والكل أمام جلاله خاشع: السماء والأرض، والبشر والملائكة، والإنسان والحيوان، وجميع العوالم والأكوان، لا يفلت من قبضته مخلوق، ولا ملجأ منه إلا إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ، سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون ﴿ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَـٰئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ، يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ
إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ
فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا
كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾
يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْاخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْاعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمُۥ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ لَا يَسْتَاخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ
أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ
النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدَ ارْسَلْنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ
فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴿٦٤﴾
وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْانْعَامِ لَعِبْرَةً نَّسْقِيكُم مِّمَّا
فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْاعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا
اِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ
كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا

شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ
أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثامن والعشـرين في المصحف الكـريم، ابتـداءً من قـولـه تعـالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً، اِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتاب الله الحقيقة الدينية الأولى، التي نادت بها جميع الكتب المنزلة، كتاباً بعد كتاب، والتي بشّر بها كافة الأنبياء والرسل، نبياً بعد نبي ورسولاً اثر رسول، ألا وهي انفراد الحق سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية عن كل ما سواه، وضرورة التوجه إليه وحده بالخوف والرجاء دون ما عداه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ، فَإِيَّـٰيَ فَارْهَبُونِ ﴾. وكيف لا يُفرِد الخلقُ خالقَهم بالعبادة والطاعة والتوجه إليه في السراء والضراء، وهو سبحانه وتعـالى بديع السمـاوات والأرض، وهو الـذي شرع لهم الـدين الحق وهداهم إليه منذ البداية، ومنه وحده ينتظرون الجزاء في النهاية:

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾. وقوله تعالى هنا: ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ﴾ يماثل في معناه قوله تعالى في سورة الزُّمَر: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الآية: ٣]، وينظر إليه قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ فَادْعُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الآية: ١٤].

ثم يتجه كتاب الله بخطابه إلى الناس كافة، مذكراً إياهم بأن كل ما يتقلبون فيه من النعم على اختلافها إنما هو هبة إلٰهية وهبها لهم بمحض إرادته، وأنَّ من تفضَّل بالعطاء يمكن أن يعاقب بالسَّلب ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾.

ووصف كتاب الله في هذا السياق حالة من الحالات اليومية التي تَعِرض لكثير من الناس عندما يمسهم الضُّر، وينزل بساحتهم الأذى، فتنكشف عن أعينهم جميع الغشاوات والحجب، وتبدو لهم أنفسهم عارية على حقيقتها من الضعف والعجز والاحتياج، ولا يستطيعون لدفع الضر عن ساحتهم حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فلا يجدون مفتوحاً أمامهم إلا باباً وحيداً هو باب الرحمٰن الرحيم، يلجأون إليه مضطرين صاغرين، ويطرُقون بابه بالشكوى صارخين مبتهلين، فيجيب بفضله دعاءهم، ويكشف برحمته ضرّهم، الأمر الذي كان كافياً ليوقظ في نفوسهم على الدوام حاسة الإيمان، ويحملهم باستمرار على الشكر والطاعة والإذعان، لكنهم على العكس من ذلك بمجرد ما يَكشِف الحق سبحانه عنهم الضر، ويدفع عنهم الأذى، ينسَوْن فضل الله، ويتنكرون لنعم الله، وينتكسون مرة أخرى فيعودون إلى ما كانوا عليه من

المعتقدات الباطلة والتصرفات الفاسدة، وهكذا تتحرك فيهم فِطرةُ الخير موقتاً تحت ضغط الضعف والمرض والأذى، لكن بمجرد ما يستعيدون القوة والصحة والسلامة تطغَى عليهم من جديد نزغات الشر والعصيان، ويتصدَّوْن لنعم الله وحقوقه بالجحود والكفران، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ، ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

ويعقّب كتاب الله على اتجاه هذا الفريق المنحرف من الناس المنكر للجميل، الذي لم يستخلص العبرة من لطف الله به ورعايته إياه، فيخاطب أفراده مهدِّداً ومتوعِّداً قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُواْ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وإذن فهم يُعتبرون في حالة إمهال، لا إهمال، ومآلُ تمتعهم مهما طال فهو إلى زوال.

واستعرض كتاب الله صوراً من معتقدات المشركين وآرائهم السخيفة في معرض النقض والإبطال، وفي طليعة هذه المعتقدات الباطلة ما كان المشركون يخصصونه للأصنام والأوثان من أنعام لا يركبونها ولا يذوقون لحومها، ومن عطايا ونذور لا يقتطعون منها شيئاً، وما كانوا ينسبونه لمقام الألوهية من اختيار البنات، وهي الملائكة في نظرهم.

واستنكر كتاب الله سخافة عقولهم، وسماجة عوائدهم، التي كانت تقضي باحتقار الانثى والتشاؤم بها، مستغرباً كيف أنهم تجرَّأوا على أن يختاروا لله في زعمهم ما يكرهونه لأنفسهم، وذلك

ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي للأصنام والأوثان التي لا سند لها من العلم والدين، وإنما جرَّهم إلى عبادتها الجهل والوهم والتقليد ﴿ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ، تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ، وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُ، وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي ظل وجهه كئيباً من الهمِّ وهو ساكت من شدة الحزن، يكظِم غيظه وهمَّه ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي يختفي حتى لا يراه الناس، وذلك: ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾، وهذه إشارة إلى ما كان يُقدِم عليه بعض المشركين من وَأْد البنات وهن أحياء، وما كان يقوم به البعض الآخر من إبقائهن أحياء، لكن في حالة من الضَّعَة والهوان، وفي هذا الموضوع نفسه ورد في مكان آخر من هذا الربع قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ مَا يَكْرَهُونَ، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ، لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾، وقوله تعالى تنزيهاً للحق سبحانه عن كل ذلك: ﴿ وَلِلهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

ثم عقَّب كتاب الله مندِّداً بهذه النظرة الجاهلية السخيفة، هادماً لها من الأساس، مُعِيداً بذلك للأنثى كرامتها الأصيلة، معترفاً لها بحقها الثابت في الحياة العزيزة الكريمة مثل شقيقها الذكر، فقال تعالى ناقضاً لحكم الجاهلية في شأن الأنثى، ومنددًا بموقف المشركين منها ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى أن (الإيمان بالآخرة) المنبثق عن

الإيمان بالله، والذي هو له كالنتيجة بالنسبة للمقدمة، هو مصدر جميع أنواع الكمال عند المومن، لأن الإيمان بالآخرة وتوابعها يستلزم مراقبة الله في جميع الأحوال، وَمَن راقب الله قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، كان أقرب إلى الكمال وأبعد عنْ النقص، بخلاف من لم يومن بالآخرة وأصرّ على إنكارها فإنه يظل غريقاً في أوحال المساوىء والنقائص، بحيث لا يُتصوَّر في حقه أي كمال، ولا غرابة في ذلك، فهو سيء العقيدة في الله وفي الناس، وهو سيء السلوك نحو الله ونحو الناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لِلذِينَ لَايُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي النقص قائم بهم، ومنسوب إليهم ﴿وَلِلهِ اِ۬لْمَثَلُ الَاعْلَىٰ﴾ أي له الكمال المطلق من كل وجه.

ونبَّه كتاب الله إلى ما تواطأ عليه البشر في مختلف العصور من تظالم فيما بينهم بالبغي والعدوان، رغماً عما أمرهم الله به من التزام العدل، وما تواطأوا عليه من ظلم يرتكبونه في حق خالقهم ورازقهم بالشرك وعبادة الأوثان، رغماً عما هداهم إليه من عقيدة التوحيد، وبيَّن أن رحمة الله وحكمته اقتضتا أن تستمر عمارة الأرض إلى اليوم الموعود، فأخَّر لذلك مؤاخذتهم على ظلمهم، وتركَهم يتقلبون في نعمه إلى حلول أجلهم، حتى إذا ما حلَّ الأجل أخذهم الله أَخْذَ عزيز مقتدر، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي لأباد من الأرض الحياة والاحياء ﴿وَلَـٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمُ إِلَـىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، فَإِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ لَا يَسْتَـٰخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وواضح أن «المؤاخذة» التي يؤخرها الله عن الظالمين هي المؤاخذة الكلية التي لا تُبقي ولا تذر، أما مؤاخذتهم الجزئية بالخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات، وتسليط الكوارث والأزمات، وقيام الفتن والحروب، فهي ملازمة لهم، مستمرة معهم إلى يوم الدين، على حد قوله تعالى: ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الَامْوَٰلِ وَالَانفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ثم عقَّب كتاب الله على ظاهرة الجحود والعناد، والتواطؤ على الضلال والفساد، التي لازمت البشر قروناً طوالاً، فلم يستفيدوا من رسالات الرسل الفائدة المرجوة، ملوِّحاً إلى أن عناد مشركي العرب للرسالة المحمدية إنما هو عَوْد على بدء، وليس هو الأول والآخر، فقال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدَ اَرْسَلْنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

وتناول كتاب الله تحديد جملة من الأهداف التي توخَّتها الحكمة الإلَهية، من الرسالة المحمدية التي هي خاتمة الرسالات، وهذه الأهداف المشار إليها هنا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وضع حد للخلاف والنزاع القائم بين أتباع الأديان السالفة، وإلقاءُ الأضواء على ما دخل تلك الأديان من تزييف وتحريف وسوء تأويل، وتعريفُ الناس كافة بالحقيقة الدينية

الأصيلة على وجهها الكامل الصحيح، خالصةً من الشوائب، صافيةً من الأكدار.

الأمر الثاني: هداية الإنسانية إلى الصراط المستقيم الذي ينظِّم سلوكها، ويقود خطواتها، وينقذها من مهاوي الضلال والفساد، ويَعرُج بها إلى معارج الصلاح والرشاد.

الأمر الثالث: إشاعة الرحمة والإحسان في مجتمعات بني الإنسان، على اختلاف الأجناس والألوان.

وإلى هذه الأهداف الثلاثة يشير قوله تعالى هنا في إعجاز وإيجاز: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾، ويؤكد هذه المعاني قوله تعالى في الربع القادم: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تعداد جملة من النعم الإلّهية الكبرى امتن بها على عباده حتى يطيب لهم العيش، ويستمتعوا بالحياة، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيا بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْاَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالَاعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾، و«الوحي» في هذا المقام بمعنى الإلهام ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾.

وواضح من سياق هذه الآيات أنها واردة في معرض امتنان الله على عباده، والامتنان لا يقع إلَّا بمحلَّل لا بمحرَّم، فالماء واللبن والعسل كلها حلال، و«السَّكَر» الوارد معها في نفس السياق لا يصح أن يفهم منه معنى المسكر الحرام، وإنما معناه ما يُستخرج من الثمرات والفواكه الناضجة ذات المواد السكَّرية بشكل عادي، كعصير الرُّطَب والعنب، وبذلك يظل سياق الآيات كلُّه منسجماً ومتلائماً في الامتنان بما هو حلال.

ويؤكد هذا الفهم قول أبي عبيد: «السَّكَر نقيع التمر الذي لم تمسَّه النار» نقله عنه ابن منظور في (لسان العرب)، ويزيد هذا الفهم تأكيداً ورود قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ عقب قوله ﴿ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ مباشرة ودون فاصل، فالعقل الذي يتمكن من التدبر العميق والتفكير السليم في آيات الله ونعمه هو العقل الذي لم تفسده المسكرات والمخدّرات، بل بقي مصوناً من كل ما يفسده، سليماً من كل ما يلوّثه.

ولا شك أن النفع العميم الذي يناله الخلق بواسطة هذه النعم الإلَهية يتطلب منهم مقابلتها والاستزادة منها بالحمد والشكر، كما أن الحكمة الربانية البارزة في إيجادها من العدم، وإمداد الخلق بها دون انقطاع، تتطلب منهم الإيمان بمبدعها، والتوجه بالطاعة إلى ممدِّهم بها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا
بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ
أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ
الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا
رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ
إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن
جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ
لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ
قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ
فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى
ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا
عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

في بداية هذا الربع يقرر كتاب الله حقيقة واقعية بالمشاهدة والعيان، لا سبيل إلى إنكارها من أي إنسان، ألا وهي ظاهرة تفاوت الأرزاق فيما بين الناس، فهناك الموسِر والمعسِر، وهناك الغني والمتوسط والفقير، وهذا التفاوت الحاصل في الأرزاق، لا يخص الأرزاق المادية وحدها، بل يشملها ويشمل الأرزاق المعنوية نفسها، فالمواهب العقلية، والاستعدادات الفكرية، هي أيضاً تتفاوت من شخص إلى آخر، وتتفاوت حتى فيما بين أعضاء الأسرة الواحدة، بين الوالد والولد، وبين الإخوة الأشقاء.

وإذا كنا لا ندرك السر في تفضيل بعض الناس على البعض الآخر، لحكمة إلٰهية خفيت عنا في ذلك، فإننا نستطيع أن نتبين

أسباب هذا التفاضل ونعلّله، بالنسبة لكثير من الحالات الأخرى، التي يكـون اختلاف المواهب والاستعدادات فيها من أهم العوامل الظاهرة، المؤديـة إلى التفاضـل في الأرزاق، ولا سيما الأرزاق المادية.

و«المساواة» التي يهدف إليها الإسلام هي عبارة عن المساواة بين الناس في سَدِّ حاجياتهم الحيوية، حتى لا يسقط أحد منهم ضحية العَوَز والحاجة، أما المساواة في الرزق الذي يكتسبه كل إنسـان، بمعنى أن يكسِب جميع النـاس كسباً واحـداً وبمقدار متماثل لا يزيد ولا ينقص بالنسبة لأي فرد، بالرغم من اختلاف مواهبهم، واختلاف كفاءاتهم، واختلاف مهامهّم، فهي مجرد حُلْم من الأحلام، لا تقره طبيعة الأشياء ولا يقره الإسلام، وعلى فرض أننا ساوينا في العطاء والكسب بين شخصين أو أكثر، فإن أحدهما لا يلبث أن يتصرف بمحض إرادتـه في رزقـه تصرفـاً سليماً، فيستثمر ويوفِّر ويدَّخر، بينما الآخر يتصرف بمحض إرادته في رزقه تصرفاً سقيماً، فيُسرف ويبذِّر، وبذلك تعود كفـة أحدهمـا إلى الرجحان على كفة الآخر، ويعود التفاوت بينهما ثانياً إلى ما كان عليه أولاً، وإلى وصف هذه الحقيقة الواقعية يشير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾. غير أن التفاوت في الرزق وعدم المساواة فيه وإن كان أمراً مسلَّماً لا يعني احتكاره والإنفراد به، وإهمال الآخرين، بل إن سد حاجات المحتاجين من ملبس ومطعم ومسكن حق ثابت لهم، وهم فيه مع غيرهم سواء، وبتمكينهم من نصيبهم في الرزق يتمُّ شكر نعمة الله. وهذا

المعنى هو الذي يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ، فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

على أن التفاوت بين الناس ليس منحصراً في الأرزاق وحدها، بل هو موجود حتى في أعمارهم وآجالهم، وما يصاحب ذلك من أعراض الشيخوخة والهرم، ففي نهاية الربع الماضي، وقبل الحديث عن التفاوت في الأرزاق في بداية هذا الربع، سبق قول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّـٰكُمْ، وَمِنكُم مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾. فهذه الآية تشير إلى واقع محسوس: أفراد يطول عمرهم حتى يدركهم الهرم، وآخرون يموتون في شَرْخ الشباب، وأفراد ـ رغماً عن طول عمرهم وَهَرمهم ـ يتمتعون بملكاتهم الذهنية إلى آخر رمَق، وآخرون يُرَدُّون إلى «أرذل العمر» فيفقدون جميع ملكاتهم أو أكثرها قبل حلول الأجل بزمن طويل، وكما أنه لا سبيل إلى المساواة بين الناس في أعمارهم وآجالهم فإنه لا سبيل إلى المساواة بينهم في أرزاقهم ومواهبهم، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ ﴾.

وفي هذا السياق ندد كتاب الله بسخافة المشركين وعُبَّاد الأصنام والأوثان، فإنهم بدلاً من أن يعبدوا خالقهم ورازقهم ويفردوه بالعبادة والطاعة دون سواه يتوجهون إلى من لا يملك لهم رزقاً، ولا يستطيع لهم ضراً ولا نفعاً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَـٰوَٰتِ

وَالاَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً، هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾.

والمراد «بالعبد» هنا الصنم والوثن الذي يعبده المشرك، وقد أطلق كتاب الله على الأصنام كلمة (عباد) في آية أخرى إذ قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ اَمْثَالُكُمْ ﴾ [الاعراف: ١٩٤]، قال مجاهد: «هذا المثل «أي ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء إلى آخر الآية» مضروب للوثن وللحق سبحانه وتعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟». وقال ابن كثير: «لما كان الفرق بينهما ظاهراً بيِّناً لا يجهله إلا غبي جاء التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلهِ، بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلهِ الاَمْثَالَ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ، وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ نَهْيٌ لعباده أن يتقوَّلوا عليه، ويَضرِبوا له الأمثال من عند أنفسهم ووحي خيالهم، إذ ليس لله في الحقيقة مثال، كَيْفَما كان تصور الخيال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُؤاً اَحَدٌ ﴾. نعم إذا وجدنا في كتاب الله مثلاً مضروباً من الذات العليَّة وقفنا عند حده، ولم نتجاوزه إلى غيره، كما لا نصفه سبحانه وتعالى ولا نسميه إلا بالصفات والأسماء الواردة في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه الكريم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً

وَجَهْراً ﴾ تنبيه إلى أن «الرزق الحسن» عند الله هو الذي يؤدي العبد حقه دون منٍّ ولا أذى، فينفق منه في سبل الخير ووجوه البِرِّ، الظاهر منها والخفي، معتمداً على وعد الله تعالى في قوله الحق: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبإ: ٣٩]، وما عدا ذلك فهو رزق، لكنه «رزق سيء»، إذ لا نفع من ورائه للغير، ولا أثر له في إشاعة البر والخير.

ونظراً لكون الإسلام يدعو إلى العمل الإيجابي والمساهمة الفعلية في إصلاح المجتمع، فإن كتاب الله يستنكر موقف الشخص الكسول العاجز، المتكل على غيره، الذي لا ينفع نفسه ولا غيره، وينوِّه بموقف الشخص الشجاع الصريح، الذي ينهى عن الظلم ويأمر بالعدل، والذي يعطي المثل من نفسه لبقية الناس في الهداية وحسن السلوك، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾ وهذه كناية عن عجزه وسلبيته ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ ﴾ أي عبء ثقيل على غيره ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَايَاتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَّامُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وعرض كتاب الله نماذج متنوعة توقظ الانسان الغافل، وتلفت نظره إلى علم الله المحيط بكل شيء، وقدرته الواسعة، وحكمته الباهرة، وإبداعه الفريد في الأنفس والآفاق، مما لا مثيل له ولا نظير، فقال تعالى: ﴿ وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالَارْضِ، وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَجَعَلَ

لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَـٰرَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُـمْ تَشْكُرُونَ، أَلَمْ يَرَواْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾.

وخصَّ كتاب الله بالذكر والامتنان نعمة «الأسرة» التي يطمح إليها كل إنسان عاقل، حتى إنه ليكافح في سبيل الاستمتاع بها والحصول عليها بجميع الوسائل، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ انفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ اَزْوَاجِكُـم بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ﴾ فامتن على الرجال بأن جعل زوجاتهم بشراً من جنسهم، إذ خلق الذكر والأنثى من نفس واحدة، إن اختلفـا في وظائفهما العملية والاجتماعية، فإنهما لا يختلفان في خصائصهما النوعية والإنسانية. والحكمة الإلٓهية في ذلك أن يعاشر الرجل امرأة من جنسه، وأن تعاشر المرأة رجلاً من جنسها تتجاوب معه، فتحس نفس الإحسـاس، وتشعر بنفس الشعـور، وتتكلم نفس اللغة، ثم امتن سبحانه على الآباء والأمهات بما يرزقهم من البنين والحَفَدة، إذ الذرية الصالحة هي أطيب الثمرات لشجرة الزواج المباركة، وهي إحدى حَسَنات الإنسان التي لا تنقطع بعد الموت.

ونبَّـه كتاب الله إلى أن الوظيفة الأساسية التي يرمي إليها الإسلام من تأسيس البيوت لإقامة الأسر والعائلات هي الحصول على نوع خاص من الحياة يتميَّز عن كل ما عداه بالسكينة والهدوء والطمأنينة وراحة البال، ولن يؤدي البيت هذه الوظيفة الحيوية إلا إذا كان مستوفياً لشرائط الراحة والانسجام، مادياً وروحياً، وإلا إذا كان أعضاؤه المتساكنون فيه على غاية الوِفـاق وَالوئـام، وفـي

مأمن من عوامل الشقاق والخصام، وإلى هذا المعنى الدقيق الرقيق يشير قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾، ويزيد هذا المعنى توضيحاً وتحليلاً قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجاً لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الآية: ٢١].

وفي سياق امتنان الله على عباده بما آتاهم من أسر وبيوت، وبنين وحَفَدة، عرض كتاب الله جملة من النعم التي هي شرط أساسي لحياة الأسرة وسعادة البيت، مما يتوقف عليه كل إنسان في الحَرّ والقَرّ، في الظَّعَن والإقامة، في السلم والحرب، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَـٰمِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثاً وَمَتَـٰعاً إِلَىٰ حِينٍ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلاً ﴾ أي ظلالاً تقيكم حر الشمس ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَـٰناً ﴾ أي حصوناً تأوون إليها وتعتصمون بها ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ أي كساكم من عُرْي بملابس وأغطية تدفع عنكم الحر والقر ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أي دروع الحرب والجهاد، التي يُحتاج إليها في ساحات المعارك وما ناسبها من عُدَّة وعَتاد، ثم عقب كتاب الله على ذلك كله قائلاً: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ بمعنى أن من فكّر في مجموع هذه النعم الإلّهية، وقدَرها حق قَدْرها، وتأمل في كرم المنعم بها وفضله، واستحضر في ذهنه ما ينشأ عن فقدها واختلالها أو الحرمان منها، من اختلال في حياة الإنسان،

ونزول إلى الدَّرَك الأسفل من دركات الحيوان، لا يسعه إلا الاعتراف بجميل مولاه والإذعان والإيمان، لكن المعاندين والجاحدين مصرُّون على عنادهم وجحودهم رغماً عن تمتعهم بنعم الله ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا، وَأَكْثَرُهُمُ الْكَـٰفِرُونَ ﴾.

وتناول القسم الأخير من هذا الربع بالوصف والتحليل حالة المشركين والكافرين عندما يضع الله الموازين القِسطَ ليوم القيامة، وما يكونون عليه من وُجوم ودهشة وارتباك وتردد لهول المفاجأة، وما يُرَدِّدُونه من اعتراف وإقرار، وما يحاولونه من تراجع واعتذار، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا الذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ، وَإِذَا رَءَا الذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا الذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ، فَأَلْقَوِاْ اِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ أي فكذبهم شركاؤهم ﴿ وَأَلْقَوِاْ اِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ أي واستسلم الذين أشركوا يومئذ لله مذعنين خاشعين، لكن بعد فوات الوقت ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ، الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنَ اَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ ﴾ يشبهُ قولَه تعالى فيما سبق من سورة النساء: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ شَهِيداً ﴾ [الآية: ٤١]. وقد كان عبد الله بن مسعود يقرأ، ورسول الله يسمع، فلما وصل إلى هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «حسبك»، فالتفت عبد الله بن مسعود إلى

رسول الله، فإذا عيناه تَذْرِفان، أي وجد عينيه الكريمتين تَدمَعان، تأثراً من استحضار هذا المشهد الرهيب من مشاهد يوم القيامة، نسأل الله أن يستر هذه الأمة بستره الجميل.

الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ
وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾
وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ
أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ
هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ
وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا

وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ
يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ
سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾
إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ
مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ
ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ

مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾
مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ
مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟
وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عبـــادَ الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَالِاحْسَـٰنِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ، ثُمَّ جَـٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

اعتنى كتاب الله في القسم الأول من هذا الـربع ببيـان الدعائم الأساسية التي يقوم عليها السلوك الإسلامي، فردياً كان أو جماعياً، وهذه الدعائم لا تقوم للمسلمين قائمة بدون مراعاتها والتزامها، فدعا إلى التزام العدل وممـارسة الإحسـان، وتجنُّب الظلم وتفادي الطغيان، ودعا إلى الوفاء بالعهد واحترام الأَيْمَان، ونهى عن إشاعة الفواحش وإقرار المنكرات، كما نهى عن رواج سوق المكايد والمساومات بين الأفراد والجماعات.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَالِاحْسَـٰنِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾. و«العدل» هو الإنصاف قـولاً وفعلاً، والتسـوية بين

أصحاب الحقوق بإعطاء كل ذي حق حقه دون تحيُّز ولا هوى. ومن مشمولات العدل: العدل بين الإنسان وربه، بإيثار حق الله على حظ نفسه، والعدل بين الإنسان ونفسه، بمنعها عن كل ما فيه ضررها وهلاكها، وبمنحها كلَّ ما فيه نفعها وصلاحها، والعدل بين الإنسان وأخيه من بقية الناس، بإنصافهم من نفسه، وعدم الإساءة إليهم بقول أو فعل، لا في السر ولا في العلن.

و «الاحسان» في هذا المقام، هو التفضل والانعام، وحسن المعاملة بين الأنام، ومن مشمولاته: صلة الرحم، المعبَّر عنها هنا (بإيتاء ذي القربى)، قال أبو بكر (ابن العربي): «وإنما خَصَّ ذوي القربى، لأن حقوقهم أوكد، وصلَتهم أوجب، لتأكيد حق الرّحم، التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته».

ثم قال تعالى: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾. و «الفحشاء» كل قبيح من قول أو فعل أو خُلُق أو اعتقاد، ومن ذلك أن العرب تسمي البخيل «فاحشاً». و «المنكر» ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وما تستنكره فطرة الإنسان وتأباه، من تصرفات ومعتقدات، و «البغي» هو تجاوز الحد، والتطاول على الغير بالظلم والتعدّي.

وقولُه تعالى: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تنبيهٌ إلى أن الحكمة المتوخاة من أوامر الله ونواهيه هي إرشادنا إلى وجوه الخير حتى نمارسها، لصالح أنفسنا وصالح الناس، وتحذيرُنا من ضروب الشر حتى نتجنبها، وقايةً لأنفسنا وللناس. قال عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه: «هذه أجمعُ آية في القرآن لخير يُمتثل، وشر يُجتنب».

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ، وَلَا تَنقُضُواْ الْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾. و«العهد» يطلق في كتاب الله إطلاقات متنوعة، والمراد بعهد الله هنا ما يعطيه المومنون من العهود والمواثيق لبعضهم أو لغيرهم، وما يصحب عهودهم من الأَيْمان المؤكِّدة لها، الضامنة لالتزامها ونفاذها، و«توكيد» الأَيمان هو حلِف الإنسان في الشيء الواحد يميناً بعد يمين.

ونهى كتاب الله أن يسلك المومنون في عهودهم المؤكَّدة بالأَيْمان مسلك الخداع والتغرير، ضارباً لهم المثل بالمَرأة التي تعبت وقضت وقتاً طويلاً وهي منهمكة في الغَزْل، ثم نقضت غزلها بعد أن أبرمته وفتلته فتلاً شديداً، فضاع مجهودها سُدى، محذراً إياهم من اتخاذ هذا المَثَل اسوة لهم فيما يعقدونه من المواثيق، إذا نقضوها بعدما أبرموها، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَنكَـٰثاً، تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلاَۢ بَيْنَكُمْ ﴾ معناه: لا تكونوا ناكثين للعهود ناقضين لها، متخذين من عهودكم المؤكَّدة بالأَيمان مجردَ ستار للخداع والغدر، بحيث تعقدونها وأنتم مبيِّتون النية مصممون على نقضها وفسخها، لأول ما يرجَح ميزان القوة عندكم على غيركم، وهذا معنى قوله تعالى في نهاية هذه الآية: ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنُ امَّةٍ ﴾.

وأكد كتاب الله هذا المبدأ الإسلامي الأصيل، مبدأ الوفاء بالعهد ما دام العهد قائماً، مبيِّناً هذه المرة العواقب الوخيمة التي تنشأ عن خيانة العهود ونقض المواثيق، فقال تعالى في نفس هذا الربع: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلاَۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تتخذوها خديعة ومكراً ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، إذ إن الغدر والخديعة يؤديان إلى فقد الثقة وإثارة الفتنة فيما بين الأفراد والأمم، ويؤديان إلى أن يتربص المخدوعون بمن خدعوهم الدوائر، فينصرم حبل التعاون فيما بين الطرفين «ولا يُلدَغ المومن من جُحْر مرّتين».

وزاد كتاب الله نفس المبدأ توكيداً وتشديداً، منبهاً إلى أن المنافع الزائلة والمصالح العابرة، لا ينبغي أن تُغرِي المومنين بنقض عهودهم ومواثيقهم، لأن منافع الوفاء المتبادل، والثقة المتبادلة، أدوم وأبقى، فقال تعالى في نفس السياق: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً، اِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمُ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ، وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ، وَلَيَجْزِيَنَّ الذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

ثم حض كتاب الله على ممارسة الخير والعمل الصالح، و«العمل الصالح» هو العمل المشروع الملائم للتوجيهات الإلٓهية، والمحقق لمقاصد الشريعة وأهدافها، مبشراً كل من سلك في حياته هذا المسلك من ذكر وأنثى بالحياة الطيبة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوُ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، وهذه

الصيغة تتضمن وعداً قاطعاً من الله تعالى، وتفيد أنه وعد «نافذ» في نفس هذه الحياة لا مَردَّ له، مما يدل أقوى دلالة على أن آثار الأعمال الصالحة تظهر على أصحابها في دنياهم قبل آخرتهم. وفيما يخص الشق الثاني قال تعالى في نفس السياق وبنفس التأكيد: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

و «الحياة الطيبة» التي وعد الله بها من التزم العمل الصالح تشمل جميع وجوه الطمأنينة التي يطمح إليها الإنسان في حياته، وجمعها ابن عباس في كلمة واحدة فقال: «الحياة الطيبة هي السعادة».

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ مُومِنٌ ﴾ الذي توسَّط هذه الآية بين العمل الصالح والجزاء عليه، إشارةٌ إلى أن «الإيمان» أمر أساسي بالنسبة للجزاء الكامل على العمل الصالح، لأنه هو الذي يعطي للعمل الصالح طابَعَه الخاص، وهو الذي يحمل عامله على أن يجعل هدفه الوحيد من عمله ابتغاء مرضاة الله دون سواه، وبدون الإيمان بالله لا يتمحض هذا الغرض، ولا يكون العمل الصالح مظهراً من مظاهر الطاعة والعبادة. وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لَا يَظلِمُ المومن حسنةً، يُعطَى بها في الدنيا، ويُثابُ عليها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعَم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنةٌ يُعطَى بها خيراً». والقسم الأخير من هذا الحديث الشريف ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وتناولت الآيات الكريمة بعد ذلك الحديث عن القرآن العظيم: عن تنزيله، وعن لسانه، وعن رسالته، وعن آداب تلاوته.

فعن حكمة تنزيله قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [الآية: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾. وعن لسان وحيه قال تعالى: ﴿ لِّسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾. وعن مضمون رسالته قال تعالى: ﴿ لِيُثَبِّتَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾. وعن آداب تلاوته قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَـٰنِ الرَّجِيمِ ﴾، قال أبو بكر الجصاص: «معناه إذا أردت القراءة فاستعذ، إذ ثبت عن النبي ﷺ وعن السلف الاستعاذة قبل القراءة، والاستعاذة ليست بفرض». وبنفس هذا الاستعمال ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ ﴾ [الانعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيـٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمُ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمُ ﴾ [المائدة: ٦]، أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة. وقال ابن كثير: «هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب لَا وجوب»، حكى الاجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة».

والحكمة في تقديم الاستعاذة قبل قراءة القرآن هي التحصن بالله من وساوس الشيطان ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَـٰنٌ عَلَى

الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وذلك حتى لا يُفسِد الشيطانُ على القارىء قراءته، وحتى يستجمع القارىء لبَّه وقلبه على التأمل والتدبر، وهما غاية الغايات من تلاوة كتاب الله.

وتعرَّض كتاب الله لحالة استثنائية طالما عرضت للمستضعفين في بداية عهد الإسلام، ممن لم تكن لهم عشيرة تحميهم، ولا عصبية تدافع عنهم، حيث كان المشركون يعذبونهم ويُكرِهونهم على العودة إلى الشرك، ونبَّه كتاب الله إلى صورتين اثنتين في هذا المقام:

ـ الصورة الأولى: صورة من ضعُف عن احتمال التعذيب، فكفَر بالله من بعد إيمانه وعاد إلى الكفر، وهذا له عذاب عظيم، وعليه غضب من الله شديد، وفي شأنه وشأن أمثاله قال تعالى هنا: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، وفي أمثاله ورد حديث البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه».

ـ والصورة الثانية: صورة من أُكره على الكفر بعد إيمانه، واستمرّ قلبُه مطمئناً بالإيمان، فهذا لا يؤاخذه الله بما نطق به اللسان، مخالفاً لما في الضمير والجَنان، من التعريض الذي هو في حكم الهَذَيان، بل هو معذور في الدنيا، مغفور له في الأخرى، وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِلَّا مَنُ اكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَٰنِ ﴾، وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ
وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ
وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا
تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟

عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾
ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟
فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ
ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ

لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَاتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَواْ وَّالذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

أول آية في هذا الربع تؤكد عدل الله تعالى المطلق، بالنسبة لجزاء الأبرار والفجار، والأخيار والأشرار، وتُنّبه إلى أن كل نفس ستكون مسؤولة أمام الله عن عملها، مطالَبة بالدفاع عن موقفها، إذ لا تُقبل نيابة أحد عن أحد في عَرَصات يوم القيامة: ﴿ كُلُّ امْرِيءِۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطُّور: ٢١]، حتى إذا انتهى كل واحد من الدفاع عن نفسه نال جزاءه العادل، لا يُنقَص شيء من ثوابه إن كان خيراً، ولا يُزاد شيء في عقابه إن كان شراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَاتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي توفّى جزاء ما عملت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

وتحدث كتاب الله عما يصيب البشر من ابتلاء وعقاب في

الحياة الدنيا قبل الآخرة، جزاءَ كفرهم بنعمه الوافرة، فكم من مدن وقرى أنعم الله على أهلها بالأمن والطمأنينة ورغد العيش، وسهولة الحصول على الضروريات والحاجيات من كل مكان، فلم يقدِّروا نعمه حق التقدير، ولم يُصدِّقوا بِشارة أي بشير، ولا نِذارة أي نذير، فمِثْلُ هؤلاء القوم يعاقبهم الله بالسلب بعد العطاء، ويسلِّط عليهم الخوف والجوع وما يرافقهما من أنواع البلاء، جزاء كفرهم، وعدم شكرهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتَ ـ امِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ، وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾.

والقرية المشار إليها في هذه الآية على سبيل المثال يظهر أن المراد بها مكة في عهد سيطرة الشرك والمشركين عليها، فقد أصرّ مشركو قريش في بداية عهد الإسلام على مقاومة الرسالة المحمدية، وبالغوا في إذاية الرسول عليه السلام وإذاية المومنين، إلى أن اضطر للدعاء عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سَنة واحدة أذهبت لهم كل شيء، وكانت كافية في ردعهم عن طغيانهم نوعاً ما، ولم يسَعْهم بعدما رأوا العذاب، ولمسوا أثر استجابة الله دعاء رسوله، إلاّ أن يلتجئوا إليه قاصدين بابه، سائلين منه الدعاء لهم باللطف والرفق، فما كان منه عليه السلام إلا أن رقَّ لحالهم، ودعا الله فاستجاب الله دعاءه، وكان ذلك الموقف النبوي الكريم من أهم العوامل التي زعزعت ثقتهم بالشرك

والوثنية، وشرحت صدر كثير منهم للإيمان بالرسالة الإلَهية.

ثم وجه كتاب الله دعوة كريمة إلى الناس كافة ـ ولا سيما المومنين ـ فقد دعاهم جميعاً إلى الإقبال على مائدة الله التي أنزلها لهم للتمتع بها، والتناول منها، كما دعاهم إلى الاستزادة من خيراتها بالشكر عليها، وذلك رحمة بهم، لإقامة أَوَدهم، واستمرار النوع الإنساني المستخلَف في الأرض، وحفظه من الهلاك والبوار، وهذه المائدة الإلَهية التي دعاهم إليها كتاب الله تنحصر أنواعها في (الحلال الطيب) ، ففي أنواع الحلال ما يكفيهم عن كل حرام، وفي أنواع الطيبات ما يغنيهم عن كل خبيث، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَـٰلاً طَيِّباً، وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

وبمناسبة هذه الدعوة الكريمة نبَّه كتاب الله إلى جملة من المحرَّمات والخبائث التي لا يسوغ للإنسان تناولها، لما فيها من ضرر محقق، وأذى بالغ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. وقد سبق نفس هذا الموضوع مفسراً في مثل هذه الآية من سورة البقرة.

وما دام الحديث جارياً عن الحلال والحرام، والطيِّب والخبيث، فقد بيَّن كتاب الله أن السلطة الإلَهية العليا هي وحدها التي لها صلاحية الحكم بتحليل ما هو حلال وتحريم ما هو حرام، وأن القول الأول والأخير في هذا الشأن، مرجعه إلى الله

لَا إلى هوى الإنسان ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الاعراف: ٥٤] فليس للناس أن يُحلُّوا ما حرَّم الله، ولا أن يُحـرِّمـوا ما أحلَّ الله، تبعاً لمجرد أهوائهم وشهواتهم.

وحذَّر كتابُ الله من الحكم على الأشياء بالتحليل والتحريم دون سَنَد شرعي، واعتبر المغامرين بذلك من عند أنفسهم متطاولين على الشرع ومفترين على الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، إِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

ونظراً إلى أن الشهوة الغالبة، والمُتْعَة الزائفة، هما أهم سبب فيما يُقدم عليه بعض الناس من تحليل الحرام جاء التعقيب على ذلك بما يُنفِّر من تلك الشهوة وتلك المتعة، فقال تعالى: ﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

وما دام الحق سبحانه وتعالى يعلم ضعف الإنسان، وما توحي إليه به نفسه الأمَّارة بالسوء، وأنه عرضة للتورط في المعصية والاثم، فقد فتح الله سبحانه لعباده باب التوبة على مصراعيه، حتى يمكنهم أن يستأنفوا الطاعة بعد المعصية، والاستقامة بعد الانحراف، وحتى يمارسوا من جديد عمل الحسنات، تكفيراً عما ارتكبوه من السيئات، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذِينَ عَمِلُواْ السُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ لِلذِينَ عَمِلُواْ السُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ يتضمن

إشارة لطيفة إلى أن مرتكب المعصية عندما يهجُم على ارتكابها يكون في حالة شبيهة بحالة الإغماء والجنون، بحيث يفقِد ـ تحت ضغط الشهوة ـ وَعْيَه الديني تقريباً، فينسى حكم الدين، وينسى يوم الدين، حتى إذا ما استرجع وعيه ندِم على ما فرَط منه، وأخذ يتلمس الأسباب، ويطرق الأبواب، ليريح ضميره من العذاب، فيفتح الحق سبحانه وتعالى في وجهه باب التوبة، وما أوسعه من باب، وبذلك يعود المومن العاصي إلى أحضان الرشد والصواب، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ونظراً إلى المقام الكريم الذي يحتله في تاريخ الخليقة خليل الرحمٰن ونبيه إبراهيم، وادعاءِ الكثير من أتباع المِلَل والنِّحَل أنهم معتمدون عليه، وأن مللهم ونحلهم منه وإليه ـ ومن بين المدعين لهذه الدعوى مشركو العرب وبنو إسرائيل ـ فقد تصدى كتاب الله لإبطال دعواهم، مبيِّناً هنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين، بل كان قانتاً لله حنيفاً، كما بيَّن كتاب الله في موضع آخر أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان حنيفاً مسلماً، وبهذه المناسبة أثنى كتاب الله على خليله إبراهيم، ونوَّه بفضائله ومزاياه في الدنيا والآخرة، ودعا خاتم الأنبياء والمرسلين إلى رفع رايته، واتِّباع ملَّته، وإلى هذه المعاني المتعددة يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ، اجْتَبَيٰهُ وَهَدَيٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَءَاتَيْنَٰهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْاَخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ، ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. وبمقتضى هذا الأمر الإلٓهي المطاع أخذ رسول الله ﷺ يتعبد بكل ما أوحي إليه من ملَّة إبراهيم، وورد قولُه تعالى في سورة الانعام: ﴿ قُلِ انَّنِي هَديٰنِي رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، دِيناً قِيِّماً مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الآية: ١٦١].

وقولُه تعالى في وصف إبراهيم: ﴿ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ ﴾ قال ابن مسعود: «الأمة هو الذي يعلِّم الناس الخير، والقانت هو المطيع». ويطلق لفظ الأمة أيضاً ويراد به الإمام الذي يُقتدى به، وقد كان إبراهيم عليه السلام في آن واحد: مطيعاً لربه، ومعلِّماً للخير، وإماماً لأتباع ملَّة التوحيد على العموم، و (الحنيف) في هذه الآية وما ماثلها معناه المُخلِص، والمنحرِف عن الشرك قصداً إلى التوحيد. قال أبو بكر (ابن العربي): «فعلى كل عبد أن يطيع الله ويُعلِّم الأمة، فيكون في دين إبراهيم على الملَّة».

وبعدما أمر الحقُّ سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء والمرسلين باتِّباع ملَّة إبراهيم خاطبه موجِّهاً ومرشداً، مبيناً له نوع الدعوة الموكولة إليه، وأحسن الطرق التي يلزمه سلوكها لتبليغ تلك الدعوة، فقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾، والدعوة إلى سبيل الله هي جوهر الدعوة وصميمها، ثم قال تعالى: ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَٰدِلْهُم بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. وهذه هي الشروط الأساسية لكل دعوة يكتب لها الِانتشار والِانتصار، إذ متى كانت الدعوة ـ من أي نوع ـ يقود خطواتها داعية غيرُ حكيم ولا متبصر، أو داعية غيرُ مهذب القول ولا مهذب الطبع، أو داعية

حريص على الجدل مولَع بالشَّغَب، إلا وباءت دعوته بـالتقهقر السريع، والفشل الذريع.

وواضح أن الخطاب في قوله تعـالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وإن كان موجهاً في البداية إلى الرسول ﷺ، فهو موجَّه في النهاية إلى جميع أفراد أمته، ومن بينهم العلماء والحكام، والمعلمــون والمعلمات، والآباء والأمهات، فكلهم مطالَب بالدعوة إلى ما دعا إليـه الرسـول بنفس الروح التي دعـا بها، وحضَّ كتاب الله عليها، وقد تجدد هذا المعنى في كتاب الله عدة مرات، ومن ذلك قوله تعالى يأمر مـوسى وهارون عنـدما بعثهمـا إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طـه: ٤٤] وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ الْكِتَـٰبِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله تعالى في ختام هـذا الربـع: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ هذه معيَّة خاصة، كقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الانفال: ١٢]، وكقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] إشارةً إلى حديث النبي ﷺ مع أبي بكر الصديق وهما في الغار.

وأما المعيَّة العامة بمعنى علم الله المطلق الشامل لما ظهر وما بطن، في السر والعلن، فكقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، قال ابن كثير:

«ومعنى ﴿ الذِينَ اتَّقَواْ وَالذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي تركوا المحرَّمات وفعلوا الطاعات، فهؤلاء يكون الله معهم بتأييده ونصره، ومعونته وهديه»، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَواْ وَالذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ
كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ
عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا

فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ
ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧
عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ
لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ
وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا
كَبِيرٗا ٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا
أَلِيمٗا ١٠ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ
عَجُولٗا ١١ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ
ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ
ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ
أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ
مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤
مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥
وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ
عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ

مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾
مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ
ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ
أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ
كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ
عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ
فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ
تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا
مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾

الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ، سُبْحَـٰنَ الذِيٓ أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الاَقْصَا الذِي بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ ـ ايَـٰتِنَآ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً ـ اخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾.

هذه السورة الكريمة التي نفتتح بها حديث اليوم سورة مكية، وهي من سور القرآن «العِتَاق الأُول» كما وصفها عبد الله بن مسعود أحد كبار كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ حسبما روى ذلك البخاري في الصحيح، وسميت «سورة الاسراء» أخذاً من قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ الذِيٓ أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الآية: ١]، وأول جزء منها يتحدث بإيجاز عن انتقال الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بواسطة البُرَاق، وهو ما عبَّر عنه كتابِ الله «بالاسراء»، ثم عن الانتقال من المسجد الأقصى في بيت المقدس إلى السماوات العلى حتى سِدْرة المنتهى، وهو «العروج» الذي تم بواسطة «المعراج».

قال القاضي عبد الجبار في كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن»: (ربما قيل كيف يصح قطع هذه المسافة في هذه الأوقات القصيرة؟ وجوابنا أن ذلك من معجزاته ﷺ، كما جعل الله تعالى معجزة سليمان «الريح» بقوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبإ: ١٢]. وقد وردت في شأن الاسراء والمعراج عدة أحاديث تشتمل على تفاصيل دقيقة لم يتعرض لها كتاب الله، ومن أحسن من جمعها بطرقها المتعددة على اختلاف درجاتها الحافظ ابن كثير، وبعدما أورد نصوصها في عشرين صفحة من تفسيره الشهير أتى بخلاصة وافية نقتطف منها العناصر الأساسية في الموضوع، وفيما يلي خلاصة الخلاصة لما قاله ابن كثير، قال رحمه الله: «وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث - صحيحها وحسنها وضعيفها - يحصل مضمون ما اتفقت عليه، من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه وقع مرة واحدة، والحق أنه عليه السلام أُسرِي به يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البُرَاق، وهو دابة بيضاء برَّاقة لها لمعان. فلما انتهى إلى المسجد الأقصى دخله، فصلَّى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أُتِي بالمِعراج، وهو كالسلَّم، ذو دَرَج يُرقَى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقرَّبوها، وسلَّم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى انتهى إلى مستوى يَسمعُ فيه صَرِيف الأقلام - أي أقلام القَدَر - بما هو كائن، ورأى سِدْرة المنتهى، ورأى البيت المعمور والجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى

خمس، رحمةً منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه لَمَّا حانت الصلاة، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البُرَاق وعاد إلى مكة بغَلَس، وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة». ثم قال ابن كثير: «والأكثرون من العلماء على أنه أُسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى الاسراء قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح». انتهى ما اقتطفناه من كلام ابن كثير، وعلى القول بأن النبي ﷺ رأى الاسراء رؤيا منام، ثم رآه رؤية يقظة يكون الأمر فيه مشابهاً لبدأ نزول الوحي من قبل، فقد كان المَلَك جاءه في المنام أولاً، ثم جاءه بعد ذلك في اليقظة، وشرَح القاضي أبوبكر (ابن العربي) الحكمة في هذا التدرُّج فقال: «وكانت الحكمة في ذلك أن أراه الله في المنام ما أراه، توطيداً وتثبيتاً لنفسه، حتى لا يأتيه الحال فَجأة، فتقاسي نفسُه الكريمة من ذلك شدة، لعجز القُوَى الآدمية عن مباشرة الهيئة المَلَكية».

واقتصر كتاب الله من قصة الاسراء على بيان وقته، وبيان المكان الذي أسرى منه، والمكان الذي أسرى إليه، وبيان الحكمة المقصودة من الاسراء فقال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ ءَايَـٰتِنَآ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ﴾ عَلَم للتسبيح، ومعناه براءة الله

من السُّوء، وتنزيه مقامه عنه. قال ابن كثير: «والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان الاسراء مناماً ـ لا يقظة ـ لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظَماً»، إذ «لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم»، كما قال النَّسَفي، ولَمَا بادر كفارُ قريش إلى تكذيبه، ولَمَا ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، مما يشير إليه قوله تعالى في مكان آخر من هذه السورة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَـٰكَ ﴾ أي رؤيا عين كما قال ابن عباس ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الآية: ٦٠].

ومما يستلفت النظر أن هذا التسبيح الوارد في مطلع السورة يتكرر أثناءها عدة مرات، فمرة يأتي تعقيباً على ما قال به المشركون في حق الله جلَّ وعلا، وذلك قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً، يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، ومرة أخرى يأتي التسبيح تعقيباً على التحدِّيات التي وجَّهها المشركون إلى رسول الله ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَـٰنَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً ﴾، ومرة ثالثة يأتي التسبيح في سياق الحديث عن الذين آمنوا بالله ورسوله ودخلوا في الإسلام من أهل الكتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً، وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾.

ومن لطائف التفسير التي يحسن نقلها في هذا المقام ما ذكره جمال الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

عند تحليله لقوله تعالى: ﴿ الذِيٓ أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ إذ قال: «لمَّا رفعه إلى حضرته السَّنِية، وأرقاه فوق الكواكب العُلْوية، ألزمه اسم العُبودية تواضعاً للألوهية»، وذلك حتى لا يلتبس أحد المقامين بالآخر، كما التبسا في المعتقدات المسيحية.

وقولُه تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنَ ـ ايَـٰتِنآ ﴾ بيـان لحكمة الله في اسرائه بخاتم أنبيائه ورسله، وقد أعاد كتاب الله الحديث عن هذه الحكمة في سورة النجم فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ رأىٰ مِنَ ـ ايَـٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ [الآية: ١٨] وكم في السماوات وحدها من عجائب وآيات. قال زميلنا المرحوم المفسر الشهيد: «والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى، من لدُنْ إبراهيم وإسمـاعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيئين ﷺ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أُريد بهذه الرحلة العجيبة إعلانُ وراثة الرسول الأخيـر، لمقدَّسات الرسل قبلـه، والإشارةُ إلى اشتمال رسالته على هذه المقدسـات، وارتباطِ رسالته بهـا جميعاً، فهـي ترمز إلى أبعدَ من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمـان والمكـان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تنكشف عنها للنظرة الأولى».

وانتقـل كتـاب الله إلى الحـديث عن مـوسى وعن بني إسرائيل. والحديث عن رسالة موسى عليه السلام، وعما تقلَّب فيه بنو إسرائيل من النَّعَم والنِّقَم ـ بعـد ذكر المسجـد الأقصى ـ مناسب لهذا المقام كل المناسبة، فقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَآءِيـلَ ﴾ أي هادياً ومبيناً ﴿ أَلَّا تَتَّخِـذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾، وقـال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَـآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْـرَآءِيلَ فِي الْكِتَـٰبِ لَتُفْسِـدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰـهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَـلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيـراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْاٰخِرَةِ ﴾ أي وعد المرة الآخرة ﴿ لِيَسُـٔوُاْ وُجُـوهَكُـمْ ﴾ أي ليجعـلوا آثـار المسـاءة والكـآبـة بـاديـة على وجوهكم ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَـواْ تَتْبِيـراً ﴾ أي لِيُبيدوا ـ مدة علوهم واستيلائهـم ـ كلَّ ما استولوا عليه، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَـا، وَجَعَلْنَـا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيـراً ﴾ أي سجناً يحاصرون فيه. وهكذا أشار كتاب الله في إيجاز وإعجاز إلى جوهر الرسالة الموسوية التي جاء بها موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، فحرَّفوها وتنكروا لها، وكان من آثار تمردهم عليها ما توالى عليهم من التشتيت والتفتيت، وأنواع البلاء والجلاء في أطراف الأرض شرقاً وغرباً.

ثم نبَّه كتاب الله إلى أن بني إسرائيل كلما عادوا إلى الفساد في الأرض والاستعـلاء على الخَلْق عادت إليهم النِّقَم تَتْـرَى، وأوسعهم الله هزيمة وقهراً، وآتى أعداءهم غلبة ونصراً.

وواضح أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ موجَّه إلى بني إسرائيل، إنذاراً لهم بسوء العاقبة وقبح المصير، كما وجِّه إليهم الخطاب من قبل في قوله تعالى: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي

الأرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر الآية. فهذا هو ما يقتضيه سياق الآيات المتلاحقة، ويقضي به نظامُها العام، وارتباطها التام، قال ابن كثير: «وفيما قصَّ الله علينا في كتابه غنية عما في سواه من بقية الكتب قبله، وقد أخبر الله عن بني إسرائيل أنهم كلما طغوا وبغوا سلَّط الله عليهم عدوَّهم فاستباح بَيْضتهم، جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلَّام للعبيد».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الميزة الخاصة التي امتاز بها القرآن الكريم، وأنه اشتمل على لب الدين الصحيح وجوهره الكامل، وعلى شريعة الله الفاضلة في أسمى أطوارها، وأنه بعد نزوله لم تبقَ هناك طريقة أقوم من طريقته، ولا شريعة أفضل من شريعته، فهو الحَرِيُّ والأحق بالاتِّباع، من جميع الشيع والأتباع، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أي يهدي للعقيدة التي هي أقوم، والشريعة التي هي أقوم، والحياة التي هي أقوم.

وقولُه تعالى: ﴿ وكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰئِرَهُ فِي عُنُقِـهِ ﴾ معناه ألزمنا كل إنسان جزاء عمله، وما يستحقه، بحيث يصبح عملُ الأخيار لازماً لهم لزوم القِلادة للعُنق، وعمل الأشرار لازماً لهم لزوم الغُلِّ للعنق، وواضح أن العنق عضو لا نظير له في جسد الإنسان، فمن أُلزم فيه بشيء لم يُفكّ عنه بحال.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً، وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَـا الْقَوْلُ

فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيراً ﴾ إشارةٌ إلى سنَّة الله التي لا تتخلف، من إرسال الرسل مبشِّرين ومنذرين، وقيامهم بتبليغ أوامر الله ونواهيه إلى كافة الخلق، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، فإذا امتثلوا أوامر الله كيفما كان موضوع تلك الأوامر ـ وفي طليعتها أمره بالعدل والاحسان وأداء الأمانات إلى أهلها ـ أفاض الله عليهم وعلى بلدانهم أصناف النعم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَـٰمُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقاً ﴾ [الجن: ١٦]، وإذا «فسقوا» وعصوا أوامر الله ولم يجتنبوا نواهيَه، وانحرفوا عن الجادة، سلَّط عليهم وعلى بلدانهم ضروب النِّقَم، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيراً ﴾، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾. [هـود: ١٠٢].

الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ
إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا
تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ
لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ
فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾
وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ
قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا
كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ

لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا
تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ
قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ
وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن
قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ
إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ
حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾
وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ
خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ
وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ
طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾
ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ
وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا
فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ

ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ
وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمُۥٓ
إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
الَّذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُۥٓ
أَكِنَّةً اَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ
فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ
الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ
ضَرَبُواْ لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ
أَ۟ذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَقَضىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ، وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰناً ﴾ إلى قوله تعـالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَ.ذَا كُنَّا عِظَـٰماً وَرُفَـٰتاً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾.

في الربع الماضي تولى الحق سبحانه وتعالى التنويه بكتابه الحكيم، وأنه الكتاب الوحيد الذي يهدي إلى أقوم العقائد والملل، وأقوم الشرائع والشعائر، والذي يفصِّل للإنسان كل شيء، فيعرِّفه طريق الخير ليسلكها، وطريق الشر ليتجنبها، وذلك قوله تعالى فيما سبق: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً ﴾.

وكنموذج لِمَا يهدي إليه الذكر الحكيم من الطرق القويمة، والتوجيهات السليمة، ولِمَا يفصِّله بين جَنَباته لفلاح الإنسان ونجاته، تولى الحق سبحانه وتعالى في هذا الربع بيان عدد مهم من الأوامر والنواهي، مما تتوقف عليه سعادة الفرد المسلم وسعادة

المجتمع الإسلامي، فوجَّه خطابه إلى المكلفين، واحداً واحداً، بالنسبة لما يتعلق بِذِمَمِهم كأفراد، من الأوامر والنواهي، ووجَّه خطابه إلى المكلفين، جماعة جماعة، بالنسبة لما يتعلق بهم كجماعات، من الأوامر والنواهي، إذ أن الشريعة تحتوي على تكاليف فردية وتكاليف جماعية، كلٌّ منها يكمل الآخر، ويساند الآخر: مثال النوع الأول قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰناً﴾ ـ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَٰنِي صَغِيراً﴾. ومثال النوع الثاني قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾ ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾.

وأول ما يستلفت النظر في هذا الربع قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الذي أتبعه في الحين ودون أي فاصل بقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰناً﴾ [الآية: ٢٣]، الأمر الذي يوضح أهمية البرور بالوالدين عند الحق سبحانه وتعالى، حتى وصَّى به وجعله مقارناً لتوحيده وعبادته، والاعتراف بربوبيته، بحيث إذا كان الإيمان بالله يعتبر في الدرجة الأولى، فإن الإحسان إلى الوالدين يعتبر في الدرجة التي تليه مباشرة، على غرار قوله تعالى في آية أخرى تؤكد نفس المعنى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] حيث ربط شكر الإنسان لوالديه بشكره لربه. وهكذا يوجه الإسلام معتنقيه إلى

وجوب الارتباط الدائم بالله أولاً، ثم الارتباط الوثيق بالأسرة ثانياً، إذ الأسرة هي الخَلِيَّة الأولى للمجتمع، والأمة الإسلامية يجب أن تتألف من مجموعة أُسَر تتبادل العون والعطف، وتتعاون على البِر والتقوى.

ثم تكفل كتاب الله بالإرشاد إلى وجوه الإحسان والبرور التي يجب على الأولاد أن يقدموها إلى الوالدَيْن في جميع الظروف، ولا سيما عند كبرهما، وضعفهما، فنهَى عن التضجر منهما والتبرم بهما، ودعا إلى حسن الأدب معهما والتواضع لهما، ورعايتهما حق الرعاية بقيةَ حياتهما، كما دعا إلى الترحم عليهما والوفاء لذكراهما بعد انتقالهما إلى رحمة الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ تصويرٌ للحالة الاستثنائية التي يحتاج فيها الوالدان أكثر فأكثر، إلى برور الأولاد، وهي حالة الكِبَر والهرم، التي يرافقها الضعف والعجز، ففي هذا الطور من العمر الذي يصل إليه الأب، أو تصل إليه الأم، أو يصلان إليه معاً، يحتاج الوالدان حاجة ملحة إلى برور أولادهم، ويتطلعان بلهفة وشوق إلى مزيد رعايتهم، إذ تكون الأم ويكون الأب قد استنفد كل منهما طاقات شبابه، وأفنى كل منهما زهرة حياته في تنشئة الأولاد وتربيتهم، وبذل كل منهما النفس والنفيس في سبيل اسعادهم، دون أدنى

تحفظ ولا أدنى حساب، وبذلك يَرُدُّ الأولاد لوالديهم وهم كبار، بعض ما أسداه إليهم والدوهم وهم صغار.

هذا وينبغي لكل ولد ولد أن لا يَغفُل عن الخطاب الإلٓهي الموجَّه إليه من الحق سبحانه وتعالى هنا بشكل مباشر إذ يقول: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ فكلمة (عندك) هنا إنما جاءت لتشير إلى أن الوالدَيْن في حالة شيخوختهما يصبحان غالباً في كَنَف أولادهما، ويقضيان أيامهما الأخيرة في رعايتهم وعلى مسؤوليتهم، فعلى الأولاد أن يقوموا بحقوق الأبوة على الوجه الأكمل، كما قام الآباء بحقوق البنوة على الوجه الأفضل. وتذكيراً بتضحيات الوالدَيْن في سبيل أولادهما عندما كانوا أفقر خلق الله إليهما، طالب الحق سبحانه وتعالى الأولاد بسؤال الرحمة لهما جزاءً وفاقاً، فقال تعالى مرشداً ومعلماً صيغة الدعاء المناسب لهذا المقام: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَنِي صَغِيراً ﴾.

ولم يهمل كتابُ الله الإشارة إلى ما قد يلحق بعض الأولاد من ضَجَر أو مَلَل أو فتور في القيام بحقوق الوالدين، مما قد تثيره بعض تصرفاتهما في حالة الهرم والكِبَر، فنبه الحق سبحانه وتعالى إلى أنه مطَّلع على سرائر النفوس لا يخفى عليه منها شيء، وأنه إذا فَرَط من الأولاد شيء من التقصير في حق الوالدين، في حالة غضب أو ضِيق صدر، وكانت نيتهم نحو الوالدَين لا تزال نية صالحة بريئة من السعي في الأذى والميل إلى العقوق، فإن الله يغفر للأولاد ما فَرَط منهم إذا ما بادروا للتوبة من تقصيرهم، وتداركوا القيام بحقوق الوالدين، وأنه يعفو عما سلف منهم ولا

يؤاخذهم عليه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا مخاطباً الأبناء التائبين من تقصيرهم في حق الآباء: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ، إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّٰبِينَ غَفُوراً﴾.

وبعدما استوفى كتاب الله الحديث عن حقوق الوالدين في البر والاحسان دعا كل فرد من المسلمين إلى أن يعُمَّ بِرّه وإحسانه بعد والدَيْه عشيرتَه الأقربين، ثم كلَّ محتاج ومسكين، فحق الأخوة العامة في الله بين المسلم وأخيه المسلم لا يقل عن حق القرابة في الدم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

ونظراً لأن الرزق لا يستمر على وتيرة واحدة، بل يتسع أحياناً فيبسُط صاحُبه يدَه للبذل والسخاء، ويضيق أحياناً فيقبضُ صاحبُهُ يدَه عن العطاء، نبَّه الحق سبحانه وتعالى عباده إلى الأدب الواجب عليهم في مثل هذا الظرف الدقيق، وأنه ينبغي لهم أن يتجنبوا كل ما يُلحِق الأذى بشعور إخوانهم، أو يحُطُّ من كرامتهم، وبدلاً من أن يُعرِضوا عنهم متسترين ينبغي لهم أن يَعِدوهم وعداً جميلاً بالعون إذا ما أيسروا، ويقولوا لهم قولاً معروفاً إذا أقبلوا أو أدبروا، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى مخاطباً كل فرد من أفراد المسلمين: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾.

وإزالةً لكل التباس يمكن أن يقع فيه الناس اهتم كتاب الله بتوضيح أن الأمر بالبر والإحسان لا يقتضي حتماً انفاق كل ما يملكونه في هذا السبيل، فضلاً عن غيره من السبُل، تاركين

أنفسَهم وأهليهم عالة يتكففون الناس، فالإسلام ملَّة وسط، وأمته أمة وسط، وتكليفه تكليف وسط، وهو يَكرَه الإفراط والتفريط في جميع المجالات، ولذلك ندد بالتبذير، كما ندد بالتقتير، ودعا إلى التزام التوسط بين بسط اليد وقبضها، لأن بسط اليد بالمـرة يُعرِّض الإنسان للوم الغير، ممن لهم عليه حقوق أصبحت ضائعة كالأهل والأولاد، ويعرِّضه للحسرة والندامة والهمِّ المقيم، فيما بينه وبين نفسه، والإسلام كما يريد أن يُقوِّي حاسة البر، ويُشيع عاطفة الإحسان في المجتمع العام، لا يرضَى بإشاعة البؤس والشقاء في المجتمع الخاص، وإنما يحـرص كل الحرص على إقامة مجتمع سعيد متكافل ومتوازن من جميع جوانبه، وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً، اِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ الشَّيَـٰطِينِ ﴾ - ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَـدَكَ مَغْلُولَةً اِلَىٰ عُنُقِـكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾.

ونبَّه كتاب الله في سياق أوامره ونواهيه الموجهة إلى كل فرد من أفراد المسلمين، إلى أن لا يدَّعي أحد منهم علم ما لم يعلم، كأن يقول: رأيتُ، وما رأى، وسمعتُ، ولم يسمع، وكأن يشهد شهادة الزور، ويحكم بغير دليـل ولا مستند في بعض الأمـور، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَـكَ بِهِ عِلْمٌ، اِنَّ السَّمْـعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾.

ونهى كتاب الله كل مسلم عن التكبر والتجبر والتَبَخْتُر، ودعاه إلى أن يُخفِّف وطأه في المشي على الأرض، إذ مهما تمايل الإنسان وتطاول لن يغيِّر من طبيعته وقدرته شيئاً كبيراً،

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾.

وكما اتجه كتاب الله بجملة من الأوامر والنواهي إلى مختلف الأفراد فخاطبهم بها فرداً فرداً، اتجه أيضاً بجملة من الأوامر والنواهي ذات الصبغة الجماعية إلى الأمة الإسلامية في مجموعها، وهذه الأوامر والنواهي تتعلق «بالكليات الضرورية» التي تتوقف حياة المجتمع الإسلامي عليها كل التوقف، وبدونها يتعذر العمران، ويفشو الانحلال، ويضيع الأمن ويفسد النظام، فقال تعالى داعياً إلى «حفظ النسل» والإبقاء عليه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ العرض» وصيانة النسب: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ النفس» وصيانة الأرواح: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَـٰناً فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ المال» وتنميته، والابتعاد في كسبه عن كل غش أو تدليس: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾، وقال تعالى داعياً إلى «حفظ الدين» والتزام ميثاق التوحيد الذي واثق الله به عباده وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا إِيَّـٰهُ﴾ ـ ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً ـ اخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾.

وبعدما عَـرَضَ كتـابُ الله جملةً من النواهي التي يؤدي ارتكابها إلى الشقاء العاجل في الدنيـا قبل الشقـاء الآجل في الآخرة، عقَّب عليها تنفيراً منها وتذكيراً بعواقبها، فقال تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾، بينما عقَّب كتاب الله على الأوامر الإلٰهية والوصايا الربَّانية التي فيهـا صلاح البشـرية أفراداً وجماعات، بما يتضمن التنويه بقدرها، والإعلاء من شأنها، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِـكَ مِمَّآ أَوْحَىٰ إِلَيْـكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَـةِ﴾، مصداقاً لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَكَ مَـا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ، وَكَـانَ فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْـكَ عَظِيماً﴾ [الآية: ١١٣].

الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ
فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾
يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾
وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ
بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ
زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾
وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ
مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾
وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ
وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا
ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ
فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ
ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ
عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ
جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم
بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى
ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ
فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا
نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾
أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ
فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا
كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً اَوْ حَدِيداً، اَوْخَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُّعِيدُنَا، قُلِ الذِي فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ اَمَ اَمِنتُمُ أَنْ يُّعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً اخْرىٰ، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً ﴾.

في نهاية الربع الماضي حكى كتاب الله عن منكري البعث ما يخامرهم من شك وريب في النشأة الآخرة، وكيف يستغربون عودة الحياة إليهم بعد البِلَى والفناء، وفي بداية هذا الربع رد الله على منكري البعث رداً مفحماً قاطعاً، مؤكداً إمكان البعث ووقوعه بأمر الله الذي فطر السماوات والأرض، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم فيما سبق: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَ.ذَا كُنَّا عِظَـٰماً وَرُفَـٰتاً اِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾، وقوله تعالى هنا رداً عليهم: ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً اَوْ حَدِيداً، اَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُّعِيدُنَا، قُلِ الذِي فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، والآية الكريمة تشير إلى أنه حتى على

فرض أن الإنسان مكوَّن تكوين الجمادات كالحديد والحجارة، لا تكوين الأحياء الذين تبقى منهم بعد الموت بقايا العظام والرفات، فإن قدرة الله لا تَعجِز عن نفخ الحياة فيه بعد الموت، كما نَفَخت فيه الحياة وأوجدته من العدم عند نشأته الأولى، فالقدرة الإلٓهية متى اتجهت إلى تكوين أي شيء كان حتماً ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

ونبَّه كتاب الله إلى أن الإنسان مهما تلكأ وتشكك وطال به الأمد فإنه سيُبعث من مَرْقَده لا محالة، وأنه لا مناص له من تلبية النداء الإلٓهي والاستجابة إليه يوم البعث والجمع للحساب، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. وقولُه تعالى (بحمده) بعد قوله (فتستجيبون) إشارةٌ إلى أن أشد الناس إنكاراً للبعث وإلحاداً فيه لا يسعهم إلا أن يستجيبوا لدعوة الله عندما تدُقُّ الساعة، راضين غير ساخطين، مطيعين غير متمرِّدين، على خلاف ما كانوا عليه في الدنيا من شك في البعث، وإنكار للحساب.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن وصية إلٓهية أخرى تندرج في جملة ما أوحاه الله إلى نبيه من «الحكمة»، فقال تعالى مخاطباً رسوله ليبلِّغ خطابه إلى المومنين: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾، وهذا نداء موجه من الحق سبحانه وتعالى إلى كل من يعتز بالعبودية لله ويتمسك بطاعته، (وقل لعبادي) أن يختاروا الكلمة التي هي أحسن على الكلمة التي هي دونها حسناً، في جميع مخاطباتهم وعلاقاتهم مع الناس، ولو كان المخاطَبون

مشركين أو كتابيين، فما بالك بإخوانهم المومنين. وعَرَض كتاب الله في هذا السياق مثالاً من أمثلة الكلمة التي هي أحسن، لتكون نموذجاً للاسوة والاقتداء، وهذا المثال هو قوله تعالى على لسان عباده المومنين لمخالفيهم في العقيدة والدين: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنْ يَّشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوِ اِنْ يَّشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّآ أَوِ اِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى اَوْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبإ: ٢٤].

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ آية معترضة بين قوله «التي هي أحسن» وقوله «ربُّكم أعلمُ بكم» جيء بها مبالغةً في تحذير المومنين من فلَتات اللسان، التي تُعَدُّ من أخطر مصايد الشيطان ،لأنها تُوغِر صدر الإنسان على أخيه الإنسان ﴿ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلِانسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِيناً ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّئِينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ يُشبِهُ قولَه تعالى في سورة البقرة: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ، فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الآية: ٢٥٣]، والمفاضلة بين الأنبياء والرسل لا تمسّ جوهرَ النبوة في حقيقتها، ولا طبيعةَ الرسالة في حد ذاتها، وإنما تتعلق بجوانب زائدة على ذلك، كالأزمنة التي يَظهرون فيها، والأمكنة التي يُبعثون بها، والأقوام الذين يُبعثون إليهم، ونوعِ الدعوة المطالَب كلٌّ منهم بتبليغها، وأسلوبِ الدعوة المستعمل فيها، ومبلغِ النجاح الذي يصادف تلك الدعوة، وعددِ الأتباع الذين يومنون بها ويكيِّفون حياتهم بموجبها. وذكرُ الزبور في قوله تعالى هنا: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ تلميح إلى ما تضمنه

«الزبور» من التبشير بخاتم الأنبياء والمرسلين، والتبشير بأمته التي هي في عِداد الصالحين، مما أشار إليه كتاب الله في آية أخرى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّـٰلِحُونَ ﴾ [الانبياء: ١٠٥].

وانتقل كتاب الله إلى تسفيه رأي كل من يلجأ إلى غير الله، أو يتعلق بغيره في جلب نفع أو دفع ضر، ناسياً أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ولا يُخَيِّب من اعتمد عليه، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿ قُلُ ادْعُواْ الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴾.

ثم مضى كتاب الله يبيِّن أن أهل المقامات العِليَّة الذين تُعقد عليهم الآمال،وتناط بهم الآمال، عند عامة الناس، هم أنفسُهم واقفون بباب الله، يتسابقون فيما بينهم إلى طاعة الله، ويلاحقُ كل منهم الآخرَ في ابتغاء رضاه، ليكون أقرب إلى مولاه، وقلوبُهم جميعاً معلقة بين جَناحي الخوف والرجاء، في حالتي السراء والضراء، وذلك معنى قوله تعالى هنا في هذا السياق: ﴿ اوْلَـٰئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي أولئك الذين يَتوجهُ إليهم الناس بالدعاء هم أنفسهم ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمُ أَقْرَبُ ﴾، و«الوسيلة» هُنا هي «القُربة» كما قال قتادة واختاره ابن جرير الطبري ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾. وإذا كان هذا حالَ المقـرَّبين إلى الله فالأولى والأضمنُ لغيرهم من بقية الناس أن يتجهوا رأساً إلى الله تعالى لكشف غُمتهم، وقضاء حاجتهم، إذ لا حجاب بين الله وبين خلقه ﴿ ادْعُونِيَ أَسْتَجِبْ

لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] - ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الاسراء: ٢٠].

ووصَفَ كتابُ الله في هذا الربع صورة من صُوَر الخلق عندما يركبون البحر ابتغاء التجارة والربح، عن طريق نقل بضائعهم ومحاصيلهم على ظهر الفُلْك، وما يلحقهم من الجزع ويصيبهم من الفزع عند تغير أحواله، ومفاجأة أهواله، فلا يجدون ملجئاً إلا الله، وينسون كل ما سواه، وذلك قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أي يُسيِّرها ويُجريها ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً، وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّيٰكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الاِنسَٰنُ كَفُوراً ﴾ أي بدلاً من أن يشكر الإنسان نعمة الله عليه، إذِ استجاب دعاءه، ولبّى نداءه، يكفُر حيناً بنعمة الله الذي نجَّاه، وينسَى العون الذي قدمه له مولاه، وكان الأولى به والأوفق له أن يقف ببابه، ملازماً لأعتابه، في البر والبحر، في الشدة والرخاء، إذ لا مانع يمنع القدرة الإلٓهية من تسليط العذاب عليه مرة أخرى، براً أو بحراً، ما دام الإنسان قد أمعن في ضلاله وازداد جهلاً وكفراً ﴿ اَفَأَمِنتُمُ أَنْ يَّخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ أي ريحاً ترميكم بالحَصْباء من فوق رؤوسكم ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً، اَمَ اَمِنتُمُ أَنْ يُّعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً اخْرىٰ ﴾ أي أن ترجعوا وتركبوا البحر الذي نجّاكم منه أولاً ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ أي لا تجدوا علينا أدنى حجة ولا متابعة، فمن كان مصراً على

الكفر بالنعمة أصبح أهلاً لكل نقمة.

وأعاد كتاب الله في هذا الربع الحديث عن قصة آدم وإبليس، ووصَفَ أنواع المغريات التي يُغري بها إبليس أتباعه من الناس، تحذيراً للمومنين من إبليس، ومغرياته، وتعريفاً لهم بعداوته ومؤامراته، حتى لا يقعوا في شِباك إبليس، ولا يستسلموا إلى ما يصطنعه من وسائل التزييف والتدليس، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ، إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَآسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً، قَالَ﴾ أي إبليس مخاطباً الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَرَآيْتَكَ هَـٰذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنَ اَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي لأستولين عليهم ولأغوينهم، إلا قليلاً منهم.

وقولُه هنا: ﴿هَـٰذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ يؤكد معرفة إبليس بتفضيل الله لآدم وذريته، ويوضّح السر في حقده عليه وعداوته، لكنه بالرغم من ذلك سيحاول إيقاع الإنسان في شَبَكته، وسيحاول الإستيلاء عليه عن طريق شهوته، ولذلك أعلن كتاب الله حكمه القاطع الرادع لمن رضيَ لنفسه أن يكون من أتباع إبليس ﴿قَالَ﴾ أي الحق سبحانه وتعالى ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً﴾.

وكشف كتاب الله الستار عن بعض الوسائل التي يتوسل بها إبليس إلى إغواء الخلق، فقال تعالى في صيغة الزَّجْر والتهديد: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾، ويصدق هذا على

الأغاني المثيرة والمزامير المهيّجة، التي تَضِجُّ بها أندية الليل وأوكار الفساد، كما يصدق على الخطب والتصريحات، التي تثير الفتن بين الأفراد والجماعات، ثم قال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، ويصدق هذا على الحروب العدوانية، والفتن الداخلية، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، قال الزجاج: «كل معصية في مال وولد فإبليس شريكهم فيها». ويصدق هذا على الأموال والمكاسب المحرمة، والمعاملات الفاسدة، والأموال التي تُنفَق في اللهو والمجون، والفسوق والفجور، كما يصدُق في «الأولاد» على الأولاد الذين يقع إنجابهم بالسبب الحرام، أو يطلبُ آباؤهم الحصولَ عليهم عن طريق النذْر الحرام، أو يقع استعمالهم في العمل الحرام، ويندرج تحت هذه الآية «أولاد الغير» الذين يقع تبنّيهم وإدماجهم في سِجِلّ «الحالة المدنية»، فتختلط بسبب تَبَنّيهم الباطل الأنساب والأرحام. وهذه إنما هي أمثلة لبعض ما تَصدق عليه الآية الكريمة من فنون الاغواء والإغراء التي يتعرض لها أتباع إبليس، من عشاق الشهوات، وأُسَراء اللذات.

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَعِدْهُمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُوراً﴾ يفسره ويؤكده قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]. نعم إن لله عباداً «مُخلَصين» تعهد الحق سبحانه وتعالى بحمايتهم من أغواء إبليس، وبحفظهم من إغرائه، وواضح أنهم لم يستحقوا أن

يضافوا إلى اسمه الأعلى وجنابه الأقدس، إلا بعد أن جاوزوا القنطرة، وفارقوا منطقة الخطر، فقال تعالى في شأنهم وهو أصدق القائلين: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ، وَكَفَىٰ بِرَبِّـكَ وَكِيلاً ﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ
ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا (٧٠) يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ
أُنَاسِۢ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ
كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ
فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا (٧٢) وَإِن كَادُواْ
لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ
وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا (٧٣) وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ
كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا (٧٤) إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ
ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا (٧٥)
وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ
وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خَلۡفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا

قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ
لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ
الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ
عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي
مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ
سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ إِنَّ الْبَٰطِلَ
كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى
الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾
قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ
سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ
أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ
اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ
أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ
لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَاتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ
لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّومِنَ لِرُقِيِّكَ
حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَٰنَ رَبِّي هَلْ كُنتُ
إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُّومِنُوٓا إِذْ
جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾
قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا
عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمُۥٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾
وَمَنْ يَّهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِۦ وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمُۥٓ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا مَّأْوِيٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا أَ۟ذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا إِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾، ونهايته قوله تعالى في شأن منكري البعث والحساب: ﴿ ذَٰلِكَ جَـزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَـرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَ۔ذَا كُنَّا عِظَـماً وَرُفَـٰتاً إِنَّا لَمَبْعُـوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾.

في الربع الماضي أشار كتاب الله إلى ما لإبليس من حقد دفين على الإنسان، وعُقْدة نفسية تجاه ما أكرمه الله به من المزايا والخصائص، وحكَى عن ابليس قوله مخاطباً الذات العلية، وهو يتحرَّق غيظاً وكمداً من أجل تكريم الله للإنسان: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الآية: ٦٢]. وفي بداية هذا الربع تـولى كتاب الله الإعـلان عن حقيقة «تكـريم الإنسان» بـأصرح وأفصح وأقوى بيان، فكان هذا الإعلان الإلٓهي تحدياً صارخاً لإبليس وحزبه من طغاة بني الإنسان، الذين استبدوا به واستعبدوه قروناً طوالاً . قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾.

وتكريم الله للإنسان يتجلّى في الهيئة الحسنة التي خلقه عليها، وفي الاستعدادات والملَكات التي جهَّزه بها، وفي النواميس الطبيعية والقُوَى الكونية التي مكَّنه من استخدامها، وفي المشتهَيات واللذائذ التي وضعها على مائدته ليتناول منها، كما يتجلَّى تكريمُ الله للإنسان في امداده بالرسالات الإلٰهية المتوالية، للاهتداء بها إلى سعادته الدنيوية والأخروية، إذ أن تكريم الله للإنسان يضاعف مسؤوليته أمام الله، ويفرض عليه الاستجابة لدعوة الله، وإسلامَ وجهه إلى الله، وابتغاءَه في حركاته وسكناته مرضاةَ الله، وبذلك يقيم الإنسان الدليل على أنه أهل للتكريم، وجدير بما ادَّخره له الحق سبحانه وتعالى من النعيم المقيم، أما إذا لم يستعمل الإنسان ما أكرمه الله به من الملكات والاستعدادات الاستعمالَ اللائق، فلم يميِّز الخير من الشر، ولا الهدى من الضلال، ولا الحق من الباطل، فإنه لا يستحق تكريماً ولا تفضيلاً، وبعد أن كان في أحسن تقويم يُصبح أسفل سافلين مهاناً ذليلاً، وهذا هو السر في التعقيب على آية التكريم للإنسان بما يفيد اطلاقها، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ، فَمَنْ اوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً، وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.
قال القاضي عبد الجبار في كتابه ـ تنزيه القرآن عن المطاعن ـ «ومن ذَهَل عن تمييز الخير والشر في الدنيا فهو بأن يَذهَل عن

ذلك في الآخرة أولى، وليس المراد اثبات «العَمَى» في الحقيقة، بل هو ترغيب في التمسك بالطاعة».

والمراد «بالإمام» هنا في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ إما كتابُ أعمالهم، بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يسٓ : ١٢] وبه قال ابن عباس ورجحه ابن كثير، وإما كتابُهم الذي أنزل على نبيهم، وبه قال ابن زيد واختاره ابن جرير، ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُواْ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان: ٣٠]. والمراد (بالفَتِيل) هنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ الخيط المستطيل في شَقّ النَّواة من التَّمْر، مبالغةً في معاملتهم بالعدل إلى أقصى الحدود، بحيث لا يُنقَص من ثوابهم ولو أقلُّ القليل.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن عصمة الله لرسوله، والألطاف التي حفَّه بها رغماً عن مساومات المشركين، وتثبيته له على الوقوف في وجه كل المحاولات التي حاولوها لتثبيطه عن النهوض بالدعوة وتبليغ الرسالة، وفي هذا السياق نفسه أشار كتاب الله إلى العقاب الإلٓهي الصارم الذي يُعاقِب به كل من تخلى عن الله، وركَن إلى أعداء الله، تحذيراً للدعاة إلى الله في هذه الأمة المحمدية من التنازل عن دعوتهم والتفريط فيها، عملاً بآراء فائلة، أو مقابل مصالح زائلة، فقال تعالى مخاطباً لنبيه، وعن طريقه خاطب كل وارث من وَرَثته من بعده: ﴿ وَإِن كَادُواْ

لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً، وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً، اِذاً لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ الْحَيَـوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾، والمراد «بِضْعف الحياة» العذابُ المعجل في الدنيا، و «بِضعْف الممات» العذابُ المؤخر إلى الآخـرة، أي لأذقنـاك عذاباً ضِعفاً في الحياة، وعذاباً ضِعفاً في الممات، و «الضِّعف» بمعنى المُضاعَف، ومنه قوله تعالى في آية أخـرى: ﴿ فَـَٔاتِهِـمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ﴾ [الاعراف: ٣٨].

ثم أشـار كتاب الله إلى تبـرُّم المشركين في مكـة بِمُقام رسول الله بين أظهرهم، ولا سيما بعد أن أُسقِط في أيديهم وفشلوا فشلاً ذريعاً في استدراجه إلى مهـادنتهم، الأمر الـذي جعلهم يفكرون جدِّياً في اتخاذ قرار بنفيه من مسقط رأسـه، لكن الله تعـالى عصم رسولـه منهم فأوحى إليـه بالهجـرة من مكة إلى المدينة، وحالت الهجرة دون أن يخرج مشروعُهم من حيِّز التفكير إلى حيِّز التنفيذ، والحكمة في ذلك والله أعلم أن الله تعالى كان قد قدَّر في سابق علمه وأزله أنهم مهما طال عليهم الأمد فهم لَا بُدَّ من الشِّرْك خارجون، وفي دين الله داخلون فصرَفهم الحق سبحانه وتعالى عن إخراج الرسول من أرضه، حفاظاً عليهم إلى اليوم الموعود، يوم فتـح مكة المشهـود، إذ لو أخـرجوه فعـلاً لعاقبهم الله على جريمتهم الشنعاء، بالإبادة والفناء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الاَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً، سُنَّةَ مَن

قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا، وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾.

وفي هذا الخِضَمِّ من الصراع بين الحق والباطل وجَّه الحق سبحانه وتعالى إلى نبيه عدة وصايا وتوجيهات، حتى يمضي في طريقه قُدُماً إلى الأمام، دون أدنى تردد ولا إحجام، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً، وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً، وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰناً نَّصِيراً، وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَـٰطِلُ، إِنَّ الْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾. وفي هذا الخطاب دعوة من الله لنبيه أن يستعين بإقامة الصلاة على تبليغ الرسالة، وأن يستعين بالدعاء الصالح على أداء الأمانة، ملتزماً الصدق في الدعوة إلى الله حيثما حل وارتحل، سائلاً من الله النصرة والتأييد، لدينه الحق الذي هو دين التوحيد. قال قتادة في تفسير قوله تعالى هنا: ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰناً نَّصِيراً ﴾: «إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمةٌ من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضُهم على بعض، فأكل قويُّهم ضعيفهم». وجاء في الأثر ـ أن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لاَ يَزَعُ بالقرآن ـ أي يمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع عنه كثيرٌ من الناس، بمجرد موعظة القرآن.

وذهب الإمام مالك إلى أن هذه الآية الكريمة: ﴿ أَقِمِ

الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ تتضمن الإشارة إلى مواقيت الصلوات الخمس زيادة على ما ثبت في شأنها من السنَّة النبوية المتواترة، الفعلية والقولية، وبناء على هذا التفسير يكون قوله تعالى: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ متناولاً لصلاتي الظهر والعصر، بناء على أن «دلوك الشمس» هو ميلها، وله أول وهو الزوال، وآخِر وهو الغروب، ويكون قوله تعالى: ﴿غَسَقِ الَّيْلِ﴾ متناولاً لصلاتي المغرب والعشاء، بناء على أن «غَسَق الليل» هو ظلمته (ولها ابتداء وانتهاء)، فابتداؤها عند دخول الليل، وانتهاؤها عند غيبوبة الشفق، ويكون قوله تعالى: ﴿قُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ متناولاً لصلاة الصبح. و(الفَجْر) يعني سَيلان الضوء وجَريان النور في الأفق، من فَجَر الماء وفَجَّره إذا أنْبطَه وفتح له طريقاً للسَيلان والجَريان. واكتفى بعض المفسرين في تحديد مواقيت الصلاة بما تواتر في شأنها من السنَّة، من فعل النبي ﷺ وقوله، وقصَر هذه الآية من أولها إلى آخرها على موضوع واحد هو «قيام الليل» الذي فرضه الله على رسوله دون أمته، فكان ﷺ يقوم الليل حتى تَرِمَ قدَماه، وكان ذلك من جملة خصائصه، وفسّر «دلوك الشمس» بغروبها فقط، تبعاً لعبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب وعلي بن أبي طالب، وطبقاً لهذاالتفسير تكون الآية متعلقة بالتهجُّد النبوي لا غير. ومعنى «التهجد» ترك الهُجُود وهو النوم، للقيام بمناجاة الله والخَلْوة بذكره في هدوء الليل ﴿وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي بالقرآن الكريم ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي زيادة لك خاصة بك دون بقية الناس ﴿عَسَىٰ أَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ أي افعل ما أمرك به ربك ليقيمك يوم القيامة مقاماً

محموداً تحمدك فيه الخلائق، «فعسى» في هذا السياق تستوجب وقوع ما بعدها، ولا تحتمل الشك مطلقاً.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الذكر الحكيم، فبيَّن أنه هو مِحْوَر الرسالة وعليه المَدار، وتحدَّى بمعجزته الخالدة جميع المتشككين من ملاحدة ومشركين وكفار:

ووضح أولاً أن القرآن الكريم «شفاء» لمن استشفى به من الشاكين، والقَلِقين المحتارين، و «رحمة» لمن احتمى بحماه من المظلومين، والبؤساء المحرومين، وأنه يَحُدُّ من طغيان الظالمين، ويُعرّضهم في الدنيا قبل الآخرة للخسران المبين، إذ قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾.

وأكد ثانياً أن الإنسان إذا لم تخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان، ولم يشفِ نفسه دواءُ القرآن، فإن مقاييسه تكون معتلة، وموازينه مختلة، بحيث إذا مسَّه الخير أصابه الكِبْر والطغيان، وإذا مسَّه الشر أصابه اليأس والهوان، إذ قال تعالى في نفس السياق: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الانسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَئا بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّكَانَ يَئُوساً﴾. ثم عقب على الحالتين الناشئتين عن سلوك هاتين الطريقتين المختلفتين، فقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ أي كل واحد يعمل حسب الطريقة التي تُشاكِل عقيدته، وتلائم نفسيته، ﴿فَرَبُّكُمُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾.

وكَشَف كتابُ الله الستار ـ ثالثاً ـ عن طبيعة القرآن، المميِّزة له عن كل كلام سواه، وأنه رُوحٌ من أمر الله، أوحاه إلى رسوله

ليحييَ الناس ويزكيَهم، وليعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنَ امْرِ رَبِّي ﴾ أي أن القرآن من وحي الله وكلامه، لَا مِن كلام البشر ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ أي قبل نزول القرآن ﴿ إِلَّا قَلِيلاً، وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً، اِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾.

وتفسير «الرُّوح» في هذه الآية بالقرآن كما أوردناه وارد عن الحسن البصري رضي الله عنه، ويشهد له قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ امْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَٰبُ وَلَا الِايمَٰنُ، وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. على أن التفسير الشائع عند الجمهور أن المراد بالروح هنا الروح السارية في الأحياء، وأنها مما استأثر الله بعلمه، قال أبو بكر (ابن العربي): «الرُّوح خَلْقٌ من خلق الله تعالى إذا أراد العبد إنكارها لم يَقدِر، لظهور آثارها، وإذا أراد معرفتها وهي بين جنبيه لم يستطع، لأنه قَصَر عنها، وقُصِر به دونها»، وقال النَّسفي: «والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، ليدُل على أنه عن إدراك خالقه أعْجز».

وتحدَّى كتاب الله - رابعاً - جميع المتشككين في معجزة القرآن، على تعاقب الأزمان، إذ قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الِانسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَّاتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ - ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾.

الربع الأول من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ
أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ
تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ
هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ
وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا
الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾
وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

وَقُرْءَانٗا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى اَ۬لنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٖ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾
قُلَ ـ امِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُومِنُوٓاْ إِنَّ اَ۬لذِينَ أُوتُواْ اُ۬لْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلَاذْقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلَاذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعٗا ﴿١٠٩﴾ ۞ قُلُ اُدْعُواْ اُ۬للَّهَ أَوُ اُدْعُواْ اُ۬لرَّحْمَٰنَ أَيّٗا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ
اُلَاسْمَآءُ اُ۬لْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ
بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ اِ۬لْحَمْدُ لِلَّهِ اِ۬لذِے لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدٗا وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ شَرِيكٞ فِے اِ۬لْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ اَ۬لذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرَۢا ﴿١١١﴾

بِسْمِ اِ۬للَّهِ اِ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لرَّحِيمِ

اِ۬لْحَمْدُ لِلَّهِ اِ۬لذِےٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ اِ۬لْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾
قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأْسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ اَ۬لْمُومِنِينَ اَ۬لذِينَ يَعْمَلُونَ
اَ۬لصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمُۥٓ أَجْرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾
وَيُنذِرَ اَ۬لذِينَ قَالُواْ اُ۪تَّخَذَ اَ۬للَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٖ
وَلَا لِأٓبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةٗ تَخْرُجُ مِنَ اَفْوَٰهِهِمُۥٓ إِن يَّقُولُونَ
إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمُۥٓ إِن لَّمْ يُومِنُواْ
بِهَٰذَا اَ۬لْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى اَ۬لَارْضِ زِينَةٗ لَّهَا

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا
جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا
مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا
آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا
عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ
أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ
بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ
بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ
يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾

الربع الأول من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الاسراء المكية: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمُ أَجَلاً لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ إلى قوله تعالى في سورة الكهف المكية أيضاً: ﴿ وَإِذِ اعْتَـزَلْتُمُوهُمْ وَمَـا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّىءْ لَكُم مِّنَ اَمْرِكُم مِّرْفِقاً ﴾.

فـي بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الكرَّة على منكري البعث، ليقيم عليهم حجة أخرى لا تَدَع لعنادهم سبيلاً، فقال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ إذ ما هي نسبة الإنسان إلى بقية الأكوان؟

وبديهي أنّ من قدر على خلق «ما هو أكبر» لا يعجز عن خلق «ما هو أصغر»، ومن أنشأ «النشأة الأولى» لا يعجز عن أن ينشىء «النشأة الثانية»، على غرار قوله تعالى في آية أخـرى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله

تعالى في آية ثانية: ﴿ اَوَ لَمْ يَرَوْاْ اَنَّ اللَّهَ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُّحْيِيَ الْمَـوْتَىٰ ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقولِه تعالى في آية ثالثة: ﴿ أَوَ لَيْسَ الذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلىٰ وَهُوَ الْخَلَّـٰقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يسٓ: ٨١].

وانتقل كتاب الله إلى تقرير حقيقة كونيـة، والكشف عن حكمة إلٰهية، في شأن ما احتفظ به من خزائن الأرزاق، وما وضعه بين أيدي الناس من وسائل الإنفاق، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّوَ اَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ، خَشْيَةَ الاِنفَـاقِ ﴾. ثم تحدث كتاب الله عن ميل الإنسان إلى التقتير على أخيه الإنسان، فقال: ﴿ وَكَانَ الاِنسَـٰنُ قَتُوراً ﴾، ومثل هذا المعنى وارد في قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ اَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَّا يُوتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ [النساء: ٥٣] وحتى لا يستبد إنسـان بإنسـان، فيصبح ضحية البؤس والحـرمان، أبقى الحقُّ سبحـانه وتعـالى خزائن رحمته بيده، ولم يَبخل منها على أي إنسان بمدده ﴿ كُلّاً نُّمِدُّ، هَـٰؤُلَآءِ وَهَـٰؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّـكَ، وَمَا كَـانَ عَطَآءُ رَبِّـكَ مَحْظُوراً ﴾.

وبيَّن كتاب الله في ثنايا هذه الآية نفسها أن ما طُبع عليه الإنسانُ من الهَلَع والجَزَع، والخـوف من سوء العـاقبة وهـول المصير، هو الذي يدفعـه إلى الإمساك وعـدم الإنفاق والشـح والتقتير، وأحسنُ ما يفسر قوله تعالى هنا في وصف الإنسان بوجه عام: ﴿ وَكَانَ الاِنسَـٰنُ قَتُوراً ﴾ قولُه تعالى في آيات أخرى: ﴿ إِنَّ

الإنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْـرُ مَنُـوعـاً، إِلَّا الْمُصَلِّينَ، الـذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَـلَاتِهِمْ دَآئِمُـونَ ﴾ [المعارج: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣] فهؤلاء بفضل التربية الدينية التي هـذّبت نفوسهم، ووصَلت بـالله أرواحَهم، يجودون بالنفس والمال، ولا يتأخرون عن وجوه البِر بأي حال.

وتحـدث كتاب الله مـرة أخرى في سـورة الاسراء هـذه ـ والاسراء كما هو معلوم كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ـ عن قصة موسى وفرعون، وعلاقة بني إسرائيل بتلك القصة، وأشار إلى «الآيات التسع» وهي المعجزات والنُّذُر التي شاهدها فرعون وقومه، فضاقوا بها ذرعاً، دون أن يُذعِنوا لها فيعترفوا بنبوة موسى ويستجيبوا لدعوته، وإلى ذلـك يشير قـوله تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ ﴾، وهـذه الآيات التسع الواردة هنا جاءت الإشارة إليها مرة ثانية في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ، فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ اِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ ﴾ [الآية: ١٢]، وفصَّلها كتاب الله في سورة الأعراف، فذكر الأولى والثانية منها في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُـعْبَـانٌ مُّـبِيـنٌ، وَنَـزَعَ يَـدَهُ فَـإِذَا هِيَ بَـيْضَـآءُ لِـلنَّـٰظِرِينَ ﴾ [الآيتان: ١٠٧، ١٠٨]، وذكر الثالثة والـرابعة منهـا في قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَخذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الآية: ١٣٠]، وذكر الخمس البـاقية لتمـام الآيات التسع في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾ [الآية: ١٣٣].

وقولُه تعالى هنا: ﴿ فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ﴾ أي قلنا لموسى: اطلُبْ من فرْعون أن يُرسِل معك بني إسرائيل ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ أي قلنا له ذلك حين جاءهم ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُوراً ﴾ ـ ﴿ قَالَ ﴾ أي قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ يشير إلى الآيات التسع ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ أي أنزلها حججاً دالة على صدق ما جئتك به ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ أي هالكاً، وكأنَّ موسى أراد أن يقول لفرعون: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك مثبوراً ﴿ فَأَرَادَ ﴾ أي فرعون ﴿ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً ﴾ [الآية: ١٠٣].

وقولُه تعالى هنا في هذا السياق خطاباً لبني إسرائيل: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ يظهر أن له ارتباطاً وثيقاً وشَبهاً كبيراً بما سبق في أول هذه السورة نفسها، حيث قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ فِي الْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾، ثم فسر كتابُ الله في نفس السياق المرة الأولى بقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَـٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ ﴾ [الآية: ٥]، وفسر المرة الثانية بعدها في نفس السياق بقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْأَخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [الآية: ٧]. وهكذا يكون لفظ (الآخرة) في الموضعين معاً هنا وهناك بمعنى المرة الثانية، ويكون معنى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْأَخِرَةِ ﴾ أي المرة

الثانية، لا بمعنى القيامة والدار الآخرة كما فسرها البعض هنا بالخصوص. وكلمة (لفيفاً) الواردة في قوله تعالى هنا: ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ يراد بها في اللغة الجماعات المنتمية إلى أصول مختلفة، والأخلاط من الناس، وهذا المعنى أصبح لاصقاً باليهود منذ حَلَّ بهم عهد الجلاء، وتفرقوا في البلاد للابتلاء.

وانتقلت الآيات الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن معجزة القرآن، فتحدثت أولاً عن طابَع القرآن وفحواه، ثم بيَّنت الحكمة في نزوله منجَّماً على دفعات، لا دفعة واحدة، وأخيراً وصفت وقعَه في نفوس المومنين، الذين اطلعوا على البشارة به في كتبهم قبل نزوله، فلما أدركوا نزوله تحققوا بوعد الله، وآمنوا به إيماناً لَا يَرقَى إليه أدنى شك:

فإلى المعنى الأول يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ أي أنزلناه متضمناً لِلْحق، إنشاءً وأخباراً، أمراً ونهياً، بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل، ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ فهو خالص من الشوائب، معصوم من التبديل والتغيير، والزيادة والنقص، ويؤكد هذا المعنى قولُه تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ، لَّا يَاتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [الآيتان: ٤١، ٤٢].

وإلى المعنى الثاني يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَقُرْءَاناً فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ، وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً ﴾، ولفظ (فرقناه) قرىء بتخفيف الراء، فيكون معناه: فَرَقنا فيه الحق من الباطل، وميَّزنا أحدهما عن الآخر، حتى لا يختلط على أحد الهُدى

بالضلال، وقرىء بتشديد الراء، فيكون معناه: أنزلناه متفرقاً آية آية، ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أي على تُؤَدة ومَهْل، وقد استمر نزوله مدة ثلاث وعشرين سنة، تبعاً لطريقة التدرج، بالنسبة لعملية التحول والتطور التي يتوخاها الإسلام، حتى يتمكن الرسول والمومنون شيئاً فشيئاً من حفظ مبانيه، واستيعاب معانيه، وحتى يكيِّفوا حياتهم الخاصة والعامة مرحلة فمرحلة، بمقتضى أوامره ونواهيه، وبمرور الأيام يتعمقون في فهم جزئياته وكلياته، ويلمُّون بأسباب نزوله وملابَساته، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الآية: ٣٢].

وإلى المعنى الثالث يشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ سُجَّداً، وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَـآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً، وَيَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ يَبْكُون وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾، وهذه الآية تصف فئة صالحة من أتباع المسيحية واليهودية عاشت إلى أن أدركت الإسلام، فسارعت إلى الدخول في دين الله، اعتماداً على ما تناقلته من البشارة برسول الله، وحَسُن إسلامُها، فكانت تَخِرُّ على وجهها خاشعة باكية كلما تُلِيَ عليها القرآن، وتسبِّح لله الذي صدقَها وعدَه، وأنعم عليها بنعمة الإيمان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾ خطابٌ من الله تعالى للرسول والمومنين يتضمن وصف الكيفية المستحسنة للقراءة أثناء الصلاة، عندما يكون المصلي في حالة جهر. جاء عن محمد بن سيرين أنه قال: «نُبِّئتُ

أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ يَخفِض صوته، وأن عمر كان إذا صلى فقرأ يرفَع صوته، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنعُ هذا؟ فقال: أناجي ربي عز وجل، وقد علم حاجتي، وأنا أُسمِع من أناجي. وقيل لعمر: لِمَ تصنعُ هذا؟ فقال: أطردُ الشيطان، وأوقظ الوَسْنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقيل لعمر: اخفض قليلاً». وعلى هذا التفسير يكون لفظ (الصلاة) هُنَا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ مقصوداً به القراءة فيها، كما أُطلق لفظ (القرآن) وقُصِد به نفسُ الصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ﴾ أي صلاة الفجر، ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾.

وكما ازدانت فاتحة سورة الاسراء بتسبيح الله وتمجيده، تُوِّجت خاتمتُها بحمد الله وتوحيده، فقال تعالى في ختامها خطاباً لنبيه وتلقيناً للمومنين: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً، وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾، قال النَّسَفي في تفسيره: «كان النبي ﷺ إذا أفصح الغلامُ من بني عبد المطلب علَّمه هذه الآية، وكان يسميها (آية العِزّ)».

والآن فلننتقل بعون الله إلى سورة الكهف المكية أيضاً، وإنما عرفت هذه السورة باسم «سورة الكهف» أخذاً من كلمة (الكهف) الواردة في الآيات التالية: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ - ﴿ إِذ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ - ﴿ فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ - ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ - ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ﴾

[الآيات: ٩، ١٠، ١٦، ١٧، ٢٥].

وأصحاب الكهف الذين وردت قصتهم في مطلع هذه السورة هم مجموعة من الشباب الصالح اعتنقوا الإيمان بالله ديناً، والاستقامة سلوكاً، والثبات طريقاً، وفارقوا الأهل والعشيرة في سبيل الحفاظ على عقيدتهم التي كانت عندهم أعزَّ من كل عزيز، وأحسنُ وصف ورد في شأنهم هو قول الله تعالى في هذه السورة عنهم: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطاً ﴾ [الآيتان: ١٣، ١٤].

وفي بداية هذه السورة امتنان من الله على عباده المومنين، بنزول الكتاب المبين، وتلقين لهم كيف يُثنون عليه ويحمدونه، شكراً له على نعمة إنزال القرآن، الذي هو دستور الإسلام وميثاق الإيمان، فقال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً، قَيِّماً ﴾. وقوله ﴿ قَيِّماً ﴾ أي مستقيماً، راجع إلى الكتاب، فهو في المعنى مقدَّم، وإن كان في اللفظ مؤخراً، والمعنى المقصود من الآية: - الْحَمْدُ لِلهِ الذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ قَيِّماً، وَلَمْ يَجْعَل لَّـهُ عِوَجاً - وتأخير المقدَّم وتقديم المؤخَّر في الذكر أحياناً أمر متعارف في اللسان العربي، والمراد «بنفي العوج» عن القرآن في هذه الآية نفي الاختلاف والتناقض والتعارض عن مبانيه ومعانيه، وإثبات الاستقامة والحكمة والصواب لجميع أحكامه ومراميه.

ويجوز أن يكون قوله تعالى هنا: ﴿ قَيِّماً ﴾ بمعنى أنه

مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة، ومهيمن عليها، على حد قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [الآية: ٤٨]، وطبقاً لهذا التفسير يكون لفظ (قَيِّماً) مشتقاً من (قام) للأمر إذا تولاه، أو (قام) على أهله إذا تولى أمرهم، ومنه (القيِّم) على المحجور، أي الذي يتولى أمره، و(قيِّم القوم) أي الذي يقوم بشأنهم ويسُوسُ أمرهم، ولا شك أن كتاب الله قيِّم على غيره من الكتب السابقة واللاحقة.

وتحدث كتاب الله عن رسالة القرآن، وأنها بِشارة ونِذارة لعموم الإنسان، كما تحدث عن «زينة الأرض» التي هي اختبار لميوله وامتحان، فقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ [الآية: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فمَن أحسن العملَ كانت له الحُسْنى وزيادة، ومن أساء الاستعمال كان من أهل الشقاوة لا من أهل السعادة.

الربع الثاني من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ
وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ
مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن
تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ
وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ
ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ
لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟
لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ
فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ
أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ

وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا
ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا
عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۞ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً
ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا
نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا
رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا
تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ
وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن

كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ
فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ
وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

الربع الثاني من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عبـاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الكهف المكية: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَّوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ، ذَٰلِكَ مِنَ ءَايَٰتِ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَاراً اَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِيسَ الشَّرَابُ، وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً﴾.

في هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن «الفِتْية» الذين اهتدوا وآمنوا واعتزلوا قومهم وما يعبدونه من دون الله، فآووا إلى أحد الكهوف الخالية، فارّين بدينهم من الفتنة والأذى، وبعد أن وصف كتاب الله في الربع الماضي ما كانوا عليه من إيمان راسخ بالله، واستنكار بالغ لمعتقدات الشرك والوثنية التي كان عليها قومهم ﴿هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَاتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ، فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ جاءت آيات هذا الربع توضح عناصر جديدة، من هذه القصة الفريدة:

- العنصر الأول يتعلق بنومهم في الكهف على صورة جعلتهم عبرة للمعتبرين عَبْر القرون والأجيال، فقد شاءت حكمة الله أن تبقى أعينهم مُفتَّحة لا تنطبق أجفانها طيلة نومهم الطويل، وأن تتقلب جنوبهم كما يتقلب الأحياء، حتى لا تبقى جنوبهم على وضع واحد فيصيب أجسامهم البِلَى والتلف، ﴿ وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾. وشاءت حكمة الله أن يستقر كَلْبُهم على مدخل الكهف، باسطاً ذراعيه، على هيئة أيّ كلب حيّ يقوم بالحراسة العادية أمام منزل صاحبه ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي بالفِناء أو بالعَتبة، وشاءت حكمة الله أن تمر الشمس بكهفهم مر الكرام، فلا تسلط أشعتها القوية على جثثهم الهامدة، لا عند الشروق ولا عند الغروب، وذلك حتى لا يلحقها أي تغيير ولا تلف ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَّاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي تتنحى عنه وتميل ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي تمر بشمال الكهف، مائلة عنهم، وشاءت حكمة الله أن يكون نومهم في مكان متسع من الكهف، حتى تبقى جثثهم معرضة للهواء الطلق ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ، ذَٰلِكَ مِنْ ـ ايَـٰتِ اللَّهِ ﴾.

- العنصر الثاني يتعلق ببعثهم من مرقدهم بعد مرور عدة قرون على اعتزالهم في الكهف ونومهم الطويل فيه، فقد شاءت حكمة الله أن يوقظهم ويبعثهم ليروا بأنفسهم غلبة الحق على الباطل، وهزيمة الشرك أمام التوحيد، ولتقوم لهم الحجة على أن الحق الذي آمنوا به هو الذي ظهر وانتصر في مدينتهم وبين

قومهم، وأن العاقبة للمتقين مهما طال الأمر، وبمجرد ما بعثهم الله أخذوا يتساءلون فيما بينهم عن المدة التي قضوها في الكهف، وانقسموا في تقديرها إلى فريقين، وعندما لم يهتدوا إلى جواب حاسم في الموضوع وَكَلوا أمر ذلك إلى علم الله، ونظراً لإحساسهم بالجوع المفرط فقد فكروا في أن يبعثوا أحدهم بما كان قد بقي معهم من النقود إلى المدينة التي اعتزلوها من قبل، ليشتري لهم منها طعاماً طيباً يسدُّون به الرمق، لكنهم أشاروا على مبعوثهم في نفس الوقت أن يَحْذَر ما أمكن من سكان المدينة حتى لا يشعر به أحد، ظناً منهم أن مدينتهم التي اعتزلوها من أجْل الشرك لا تزال على ما فارقوها عليه، وأن أهلها لا يزالون متمسكين بعبادة الأصنام، وخوفاً من أن أهلها إذا عرفوهم قتلوهم رجماً بالحجارة، أو أكرهوهم على العودة إلى معتقداتهم الباطلة بدلاً من عقيدة التوحيد، وفي ذلك الخسران المبين، وإلى هذا العنصر الثاني يشير قوله تعالى هنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي وكما أنمناهم تلك النومة الطويلة أيقظناهم، فأخذ بعضهم يسأل بعضاً عما صنع الله بهم: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالُواْ رَبُّكُمُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرَ اَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَاتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ، وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمُ أَحَداً، اِنَّهُمُ إِنْ يَّظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمُ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذاً اَبَداً﴾. وسبق في الربع الماضي قوله تعالى مشيراً إلى هذا العنصر، وهو بعثهم من مرقدهم، إذ قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي ضربنا على آذانهم حجاباً من النوم

العميق لا يسمعون معه أيَّ صوت ولا صدى لأقل حركة ﴿ سِنِينَ عَدَداً، ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ ﴾ أي أيقظناهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَداً ﴾ أي ليتبين أيُّ الفريقين أعرفُ بالمدة التي قضوها في الكهف وهم نـائمـون، و«التلطف» حسن التخلق، وجميـل الترفق.

- العنصر الثالث يتعلق بعثور الأجيال التالية على أجسادهم محفوظةً من كل تغيير، وذلك بعد مرور مدة طويلة على بعثهم من مَرْقَدهم، فقد شاءت حكمة الله أن يُمكِّن الأجيال التالية من العثور على أجسادهم، ليتأكد الذين عثروا عليهم من أن البعث الذي وعدهم الله به حق وصدق، نظراً لأن حال أهل الكهف في نومهم الطويل، ثم انتباههم منه بعد عدة قرون، شبيه كل الشَّبَه بحال من يموت ثم يبعث. وبمناسبة العثور عليهم افترق الناس في أمـرهم، واقتـرح فـريق أن يُبنَى على بـاب كهفهم مبنى أثـري تذكاري، بينما اقترح فـريق آخر أن يُبنَى على مـدخل كهفهم مسجد خاص لعبادة الله، وهذا الإقتراح الثاني هو الذي رجحت كفته، وإلى هذا العنصر الثالث يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَـرْنَـا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أطلعنـا عليهم مَن بعـدهم من النـاس ﴿ لِيَعْلَمُوٓاْ ﴾ أي ليعلم الذين عثروا عليهم ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ، إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰناً، رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِـمْ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴾.

- العنصـر الرابـع يتعلق بعـدد أصحـاب الكهف، ودون

الإستناد إلى سَنَد صحيح وُجِد من قال: إنهم ثلاثة، وكلبهم الحارس لهم هو الرابع، ووُجِد من قال: إنهم خمسة، وكلبهم هو السادس، ووُجِد من قال: إنهم سبعة، وكلبهم هو الثامن، وكتاب الله يَكِل علم عددهم الحقيقي في النهاية إلى علَّام الغيوب، وإن كان لا يَنفِي أن يُعرِّف بعضَ الأصفياء من خلقه بعددهم على وجه التحقيق، وبهذه المناسبة يحضُّ كتاب الله نبيه الأمين، وعن طريقه كافة المومنين، على الاكتفاء بما ورد عنهم في كتاب الله، وعدم المماراة في شأنهم، وينهاه عن استفتاء أهل الكتاب في أمرهم، وإلى هذا العنصر الرابع يشير قوله تعالى هنا: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ، وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم، مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِراً، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾.

- العنصر الخامس يتعلق بعدد السنين التي مرَّت على أصحاب الكهف وهم رُقود قبل أن يبعثهم الله من مرقدهم، ويتعرَّفوا على ما آل إليه أمر مدينتهم من الصلاح بعد الفساد، والإيمان بعد الشرك، وفي هذا الصدد نجد كتاب الله في الربع الماضي لا يحدد أيّ عدد مخصوص، بل يقول: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾، ونجد كتاب الله في هذا الربع يصف حيرة أصحاب الكهف أنفسِهم بعد أن بعثهم الله من مرقدهم، وعدمَ اتفاقهم على مدة محدودة لبقائهم داخل الكهف، ويتحدثُ عن تسليمهم الأمرَ في تحديدها إلى علم الله فيقول:

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾. ثم نجد كتاب الله في هذا الربع أيضاً يشير إلى مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولعل هذا التحديد مما كانت تتداوله بعض الألسنة، ولا سيما بين أهل الكتاب، لكنّ كتاب الله يعقِّب على هذا العدد نفسه، بعد ذكره مباشرة، بما يفيد أن الله وحده هو الذي يعلم مدة مكثهم بالكهف على وجه التحديد، وأنه سبحانه هو المنفرد بعلم الغيب دون سواه، وفي هذا التعقيب إشارة واضحة إلى أن العدد الوارد من قبل ليس هو العدد الحقيقي الذي يتفق مع الواقع، وإنما أتَى به كتابُ الله على سبيل الحكاية المجردة، لا على سبيل التأكيد والتصديق والإثبات القاطع، وكما رَدَّ كتاب الله العلم بعدة أصحاب الكهف أنفسهم إلى الله وحده رَدَّ العلم بعدة السنين التي قضوها في الكهف إلى الله وحده دون سواه، وإلى العدد المذكور يشير قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعاً﴾، ثم يستدرك عليه قائلاً: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ، لَهُ غَيْبُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ، مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ، وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾. ويؤيد هذا التفسير الذي اخترناه ما ذهب إليه قتادة ومطرف بن عبد الله من أن العدد المشار إليه هنا هو قول أهل الكتاب، وأن الله تعالى رد قولهم بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ [الآية: ٢٦].

ـ العنصر السادس يتعلق بما ألقَى اللَّهُ على أجسادهم من المهابة والجلال، حتى يَحُولَ بينهم وبين كل متطفل يحاول أن

يمُدَّ اليد إليهم، بما لا يتفق مع حكمة الله ومراده، وحتى يبقَوْا بمَنْجَاة من عبث العابثين، إلى أن يبلغ الكتاب أجله، وتتحقق العبرة من قصة نومهم ويقظتهم، التي لها شبَه قوي بموت الموتى وبعثهم، وإلى هذا العنصر السادس يشير قوله تعالى، مخاطباً لكل من يتخيل نفسه واقفاً أمامهم في كهفهم، فيحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِّئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾.

وتخللت قصةَ أهل الكهف التي هي مِحْوَر التدبر والاعتبار في هذا الربع جملةٌ من الآيات الكريمة، تؤكد عدداً من مبادىء الإسلام القويمة، وتوجيهاته السليمة.

ـ منها أن من انتفع بالهَدْى الإلٓهي كالهَدْى الذي تضمنه كتاب الله دخل في زمرة المهتدين، ومن أعرض عنه ولم ينتفع به بقي في عداد الضالين، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَّهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾، ويندرج تحت هذه الآية أصحاب الكهف أنفسهم، الذين سبق أن وصفهم كتاب الله قائلاً: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ـ امَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾.

ـ ومنها أنّ مَن عزم على فعل أمر من الأمور لا بد أن يربط قوله ويعلق فعله على مشيئة الله، لأنه لا يستغني في أية لحظة من اللحظات عن استمداد العون والتوفيق من الله، وهذا الموقف يجعله في أمن مِن أن يكون كاذباً، لأن تعليق كلامه بالمشيئة يخرجه عن أن يكون خبراً قاطعاً، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ اِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غداً، اِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ﴾.

ـ ومنها أن من تعرض للخطأ والنسيان فأخطأه التوفيق والتسديد، عليه أن يتدارك ما فاته بالتماس الهداية من ربه من جديد، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ، وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَّهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً ﴾، أي عسى أن يهديني لشيء آخر أنفع وأقوم من الأول.

ـ ومنها أن من تحمَّل مسؤولية الدعوة إلى الله يجب عليه أن لا يتخلى عنها، وأن يواصلها دون انقطاع، وأن يُؤثِر بها من عندهم حرصٌ كبير على تلقيها، واستعدادٌ خاص لقبولها، وأن يُسقِط من حسابه في هذا المجال الاعتبارات الجانبية والمظاهر المادية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ، وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي ملجأ آخر تلجأ إليه ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَـٰكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَـٰوةِ الدُّنْيا ﴾.

وخُتِمت آيات هذا الربع بالدعوة إلى وجوب الثبات على الحق والتمسك به دون هَوادة ولا لين، في وجه الغافلين والمتنطعين، وأتْباع الأهواء الظالمين، فقال تعالى خطاباً لنبيه، وعن طريقه لجميع وَرَثته وحَمَلة الدعوة الإسلامية من بعده: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنَ اَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوِيٰـهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ أي مجاوزاً للحق ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُومِنْ وَّمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرِ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَاراً اَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِيسَ الشَّرَابُ، وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ
ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا
خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ
جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ
شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ

خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ
بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ
عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ
مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ
يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ
خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ
هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾
ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ
عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ
بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ

رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ
لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا
فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ
رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

الربع الثالث من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

حصة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُـواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنَ اَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾.

في الربع الماضي أوصى كتاب الله رسولَه وورثتَه من حَمَلة الدعوة الإسلامية بأن يُؤْثِروا بعنايتهم مَن عندهم حرص على تلقي الدعوة، واستعداد لقبولها، وأن لا يُعِيروا أي اهتمام للاعتبارات الجانبية والمظاهر المادية، إذ قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَـدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْـدُ عَيْنَـٰكَ عَنْهُمْ تُـرِيدُ زِينَـةَ الْحَيَـوٰةِ الدُّنْيـا ﴾، وانسياقاً مع نفس المبدأ، وسيراً في نفس الاتجاه جاء في حصة هذا اليوم قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾ [الآيات: ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَـوٰةِ الدُّنْيا ﴾ [الآية: ٤٥].

ـ أما المَثَل الأول الذي جاء في هذا الربع فقد تضمنت

آيـاته البيِّنـات محاورة بين رجلين، أحدهما مومن بالله وباليوم الآخر، شاكرٌ لأنعمه، قانع بمـا أعطاه مـولاه، وثانيهمـا متمرد على الله، كافرٌ بأنعمه وباليوم الآخر، لا حد لمطامعه وما يتمناه، وكل منهما ينطق لسانه في هذه المحاورة بما يُوضِّح اتجـاهه ومنحاه.

والظاهر من سياق هذه الآيات وما بين السطور أن الرجلين كان يملك كل منهما مزرعـة منسقة من المـزارع الفيحاء، ذات الحدائق الغنَّاء، التي يُضرَب بها المثـل، في المياه الجـارية، والأشجار الباسقة، والثمار الشهية، ثم اضطر أحدهما للتخلي عن مزرعته، فباعها للآخر، بُغْية الوفاء بالتزامات كـانت في ذمته، وهكذا آلت إحدى المزرعتين إلى الثاني، فأصبحت المزرعتان معاً «جنـة واحدة» في مِلكـه، بينما الآخـر أصبـح لا يملك شيئـاً ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَـا جَنَّتَيْنِ مِنَ اَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتُ اكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً، وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَراً، وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ ﴾، غير أن الثاني الذي اتسعت دائرة ملكه زاده ذلك طغياناً وعدوانـاً، فأخذ يتبجح على رفيقه بسعة المال وكثرة الولد، واطمأن إلى أن مزرعته الكبرى أصبحت في مأمن من جميع الجوائـح، وأعلن شكَّه في قيام الساعة نفسها، ثم عقَّب على شكه بأنه حتى على فرض قيام الساعة سيكون محظوظاً في الآخرة كما هو محظوظ في الدنيا، كأنه مفروض على الله أن يُملي له باستمرار، ناسياً قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمُ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾، وإلى هذا الموقف يشير

قوله تعالى حكاية عنه: ﴿ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَداً، وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهُمَا مُنقَلَباً ﴾، وحيث إن هذا الشخص وأمثاله من الكافرين بنعمة الله، والمكذبين بلقائه، لا يُنتظرُ أن يكون له نصيب في «جنة الخلد» قال كتاب الله في شأنه «ودخل جنته»، أي دخل جنته التي في دنياه، إشارةً إلى أن المزرعة الكبرى التي يتبجح بها ويتكبر هي جنته الأولى والأخيرة ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُوتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

لكنَّ صاحبه لم يلبث أن رد عليه قوله، مستنكراً ما فاه به من عبارات كلُّها كفر بالله، وتطاول على الله، واعتماد كليّ على المال والولد، مذكّراً إياه بقدرة الله التي يسَّرت له أسباب الرخاء والازدهار، وبقوة الله التي بيدها تصريف مَجاري الأقدار، بحيث لا يصعب عليها تحويل الموقع الخصب إلى موقع جدب، ولا تحويل مجرى الماء عن المكان الذي فيه الزرع، إلى مكان سحيق لا زرع فيه ولا نبات، فتنقلب المزرعة الفيحاء إلى أرض بَلْقَع هي عبارة عن خلاء وعَراء، وإلى هذا الجواب الذي يعتبر في مثل هذا الباب، هو فصل الخطاب، يشير قوله تعالى هنا: ﴿ قَالَ لَهُ صَـٰحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيـٰكَ رَجُلاً، لَّـٰكِنَّاْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف بأنه هو الله ربي ﴿ وَلآَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً، وَلَوْلآَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، إِن

تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً، فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ، وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ أي صاعقة أو عذاباً من السماء ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ أي أرضاً ملساء لا ينبت فيها نبات، ولا يثبُت عليها قدَم ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً﴾ أي غائراً وغائباً في أعماق الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ أي لن تستطيع الحصول عليه ولا على غيره بدلاً منه، لأن الماء «الغائر» يَطلُب أسفلَ الأرض، على عكس الماء «المَعين» الذي يطلبُ وجهَ الأرض.

وقوله تعالى هنا ﴿لَّـٰكِنَّاْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ قال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف، فالتقت نونان، فجاء التشديد لذلك، وفي قراءة أُبيّ ﴿لَّـٰكِن أَنَاْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾.

ومضت الآيات الكريمة في استعراض ما آل إليه أمر المزرعتين، مبيِّنةً أن ما توقعه الرجل المومن لهما، وما تنبأ به لصاحبهما عن مصيرهما ـ نظراً لكفره وعدم شكره، وغروره وكِبْره ـ لم يلبث أن أصبح هو الأمر الواقع، الذي ليس له من دافع، إذ المومن ينظر بنور الله، وحينئذٍ نَدِم صاحبُهما على كفره دون أن ينفعه الندم، وذاق من مرارة الخيبة والإفلاس أشد الألم، وإلى هذه الحالة يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿وَأُحِيطَ بِثُمُرِهِ﴾ أي هَلَك كل ما كان في مزرعته من الثمار، يقال: أحاط به العدو إذا أهلكه ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي يضرب إحداهما على الأخرى ندماً وتحسُّراً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي من مال وجُهد ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي

أَحَداً، وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي لم يجد من يدفع عنه عذاب الله، ولم ينفعه ما كان يفتخر به على صاحبه من المال والولد ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴾.

وفي أعقاب هذه المحاورة وما تضمنته من مواقف تدعو إلى التأمل والاعتبار أكد كتاب الله أن الملجأ الوحيد الذي ينبغي الإلتجاء إليه، والركن الركين الذي ينبغي الإعتماد عليه، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والدنيا والآخرة، هو الحق سبحانه وتعالى، فهو ولي من والاه، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، فقال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَـٰيَةُ لِلهِ الْحَقِّ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقُباً ﴾ فعاقبة من آمن به وتوكل عليه عاقبة خير ونصر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ الْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١]. و «الولاية» بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر الحكم والملك، وقال أبو عبيد: «الولاية بفتح الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق» وكلمة (الحق) هنا بخفض القاف نعت لله عز وجل، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى اللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الانعام: ٦٢].

ـ وأما المَثَل الثاني الذي ورد في هذا الربع فهو يتضمن تشبيه حال الدنيا في نضارتها وبهجتها وما يعتورها من هلاك وفناء ـ بالنسبة لحياة كل فرد في حد ذاته، وبالنسبة لحياة النوع البشري على العموم ـ بحال النبات الذي يستمد غذاءه من الماء، فينمو ويترعرع، ويصبح أخضر يانعاً تعلوه الأزهار، وتزيِّنه الثمار، ثم يميل نجمُه إلى الأفول، ويحُلُّ به اليبس والذبول، وهذا

المعنى هو الذي يتضمنه قوله تعالى هنا: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا كَمَآءٍ انزلْنَـهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً ﴾ أي يابساً ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَـحُ ﴾ أي تنسفه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ أي مقتدراً على الخلق والإنشاء، كما هو مقتدر على الإبادة والإفناء، والقصدُ من ضرب هذا المثل هو الحض على العمل الصالح الذي ينفع في الدارين معاً.

وإزالةً لكل لبس فيما يخص موقف الإسلام من الاستمتاع بالطيِّبات، وتناول ما هو مشروع من الملذَّات، عقَّب كتاب الله على هذا المثل مباشرة، فقال تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبُنُونَ زِينَـةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، وَالْبَـٰقِيَـٰتُ الصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ اَمَلاً ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة ءال عمران: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالاَنْعَـٰمِ وَالْحَرْثِ، ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا، وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَئَـابِ ﴾ [الآية: ١٤]. وبذلك أكد الإسلام قيمة المال والولد بالنسبة لحياة الأفراد، وما ينال حياتَهم من كمال بوجودهما، ومن نقص بفقدهما، منبِّهاً في نفس الوقت إلى أن اهتمام الأفراد يجب أن يتجه إلى الجانب الأنفع والأدْوَم والأبقى من الاثنين، كإيقاف الصدقة الجارية التي لا ينقطع نفعها بعد الموت، وكتربية الولد الصالح الذي يواصل سيرة والده الصالحة، فيجلب له الدعاء والثناء، بحيث لا يقتصر من آتاه الله المال والولد على الانتفاع بهما انتفاعاً أنانياً وشخصياً

محدوداً، خالياً من نفع الغير، ناسياً حقوق الله وحقوق الخلق، وقد قال عليه السلام: «نِعْم المال الصالح للرجل الصالح». فالمذموم إذن ليس هو كسب المال ولا إنجاب الولد، وإنما هو تسخيرهما لما ليس فيه رضا الله، ولما لا منفعة فيه لعيال الله، قال القرطبي في تفسيره: «وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا، لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا».

أما ﴿الْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ﴾ فمن جملة ما روى في تفسيرها قول ابن عباس رضي الله عنه: «أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة»، وإلى مثل هذا القول ذهب عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إذ قال: «هي الأعمال الصالحة كلها»، واختاره ابن جرير الطبري، وقال القرطبي: «إنه هو الصحيح إن شاء الله، لأن كل ما بقي ثوابه جاز أن يقال له هذا». وهكذا تندرج في «الباقيات الصالحات» وتُكَوِّن جزءاً منها نفس الصلوات الخمس، والأذكار المأثور فضلها، وهي «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» مما خرجه مالك في الموطأ والنسائي والترمذي وابن ماجة في السنن. ويشهد لتفسير (الباقيات الصالحات) بالمعنى العام الذي أوردناه قوله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية»، فهذه الأمور الثلاثة كلها بمقتضى الحديث الشريف «صالحات باقيات»، لأنها أعمال خير تبقى ثمرتها

للإنسان، ولا تنقطع بالموت، ويصدق عليها أنها (خير ثواباً وخير أملاً ﴾، وقد أعاد كتاب الله الحديث عن الباقيات الصالحات في سورة مريم، فقال تعالى: ﴿ وَالْبَـٰقِيَـٰتُ الصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [الآية: ٧٦].

وكما أنهى كتاب الله الربع الماضي بوصف الجزاء الذي يلقاه الكافرون في جهنم إذ قال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَاراً اَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ وختمه بقوله: ﴿ بِيسَ الشَّرَابُ، وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ خصص بداية هذا الربع لوصف الجزاء الذي يلقاه المومنون في الجنة، فقال: ﴿ اِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنَ اَحْسَنَ عَمَلاً ﴾، وختم وصف جزائهم بقوله: ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ، وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾.

وفي نهاية هذا الربع ركّز كتاب الله الحديث حول قيام الساعة وما يرافقها من أهوال وأحوال، بما فيها النشر والحشر والعرض والحساب، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الَارْضَ بَارِزَةً ﴾ أي قاعاً صفصفاً وسطحاً مستوياً، فلا بنيان ولا شجر، ولا جبل ولا وادي، وإنما هو الانقلاب الشامل، ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ ﴾ أي قبل تسيير الجبال، ليشاهدوا تلك الأهوال ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمُ أَحَداً، وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّاً ﴾ أي يعرضون صفاً وراء صف، دون اختلاط ولا اختلال، أمة تتلوها أمة، وزمرة تتلوها زمرة، كما فسر ذلك مقاتل، فمن أُعلِن أنه من أهل الخير كان سروره بمعرفة الناس بحاله أعظم، لوقوف الخلائق على حقيقة أمره، ومن أعلن أنه من أهل الشر كان غمُّه بمعرفة الناس

بحاله أعظم، لوقوف الخلائق على جَلِيّة سره، ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ أي قلنا لهم ذلك ﴿ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي فرادى عُراة حُفاة لا مال معكم ولا ولد، على غرار قوله تعالى في سورة الانعام: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الآية: ٩٤]، وقولِه تعالى في سورة مريم: ﴿ لَّقَدَ أَحْصَيـٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً، وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَرْداً ﴾ [الآية: ٩٥]. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ قال: «يُحشَر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلًا» أي غير مختونين.

وقولُه تعالى: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً ﴾ هذا خطاب لمنكري البعث من المشركين والملحدين ومن على شاكلتهم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَـٰبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ المراد «بالكتاب» كتاب الأعمال وسِجِلّ الحساب الخاص بها، والمراد «بالإشفاق» الفزَع والجزَع الذي يصيب المجرمين من جرَّاء الجرائم المسجلة عليهم ﴿ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَا لِـ هَـٰذَا الْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أي من المعاصي ﴿ إِلَّآ أَحْصَيـٰهَا ﴾، وهذه الآية دليل على أن المرء يؤاخذ بالصغائر والكبائر، الصغائر إذا أصر عليها، والكبائر إذا لم يتب منها.

وقولُه تعالى: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ أي وجدوا احصاء ما عملوا وجزاءه حاضراً، على غرار قوله تعالى في سورة

ءال عمران: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً، وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوَ انَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ أي لا يعذب أحداً بغير جُرم، ولا يؤاخذ أحداً بجُرم آخر، كما أنه سبحانه لا ينقُص طائعاً من ثوابه، ولا يزيد عاصياً في عقابه، وبمثل هذا المعنى ورد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فُصِّلت: ٤٦].

الربع الأخير من الحزب الثلاثين
في المصحف الكريم

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ
وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ
بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا
خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾
وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟
إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ

سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ
ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟
هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا
وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن
يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ
لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ
لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟
وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ
حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ
بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا
نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ
وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى
ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا

قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ
أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾
فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ
أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى
عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ
أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

الربع الأخير من الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثلاثين في المصحف الكـريم، ابتداءً من قـولـه تعـالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰئِكَـةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ، إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةًۢ بِغَيْـرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكُراً ﴾.

في بداية هذا الربع أعاد كتاب الله الحديث عن تتويج آدم وبنيه بتاج الخلافة عن الله في الأرض، للقيام بعمارتها، وتنظيم شؤونها، طبقاً للتوجيهات الإلٓهية، والنواميس الأخلاقية، وأشـار إلى تكبـر إبليس وعناده، وتمـرده على أمر الله وانتقـاده، فقال تعالى: ﴿ وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰئِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ، إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِ ﴾، وبذلك كشف كتاب الله النقاب عن طبيعة إبليس، وأنه على خلاف ما يتوهمه المتوهمون لا يدخل في عداد الملائكة المقربين، الذين ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، وإنما هو من فصيلة «الجن» التي يوجد فيها المومن والكافر، والبَرُّ والفاجر، وكون إبليس من الجن لا من المـلائكـة هـو الـذي يـوضـح مغزى

المفاضلة، التي عقدها إبليس نفسُه بين شخصه وبين آدم أبي البشر، إذ قال فيما حكى عنه كتاب الله في سورة الأعراف وسورة صٓ: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [١٢، ٧٦].

والمعروف أن الملائكة خلقوا من نور، بينما الجن خلقوا من نار، والإنس خلقوا من طين، وبهذا البيان يتضح لجميع الأذهان أن الآيات الأخرى التي ورد فيها ذكر (إبليس) مستثنى من (الملائكة) إنما ورد ذكره فيها على معنى «الاستثناء المنقطع» الذي يعتبر فيه «ما بعد إلا» خارجاً عما ورد قبلها لا داخلاً فيه، وأنه لا سبيل إلى حمله على «الاستثناء المتصل» لتخالف الأصلين، وتباين الطبيعتين، قال تعالى في سورة الحِجْر: ﴿ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ [الآية: ٢٧]، وقال تعالى في سورة الرحمن: ﴿ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الآية: ١٥].

ثم لفت كتاب الله أنظار بني آدم إلى العداوة المتأصلة بينهم وبين إبليس وذريته، وأن هذه العداوة الراسخة والدائمة التي يُكِنُّها إبليس لآدم وذريته كافية لأن تجعلهم على حذَر من موالاته ومتابعته، فكيف يعادون ربهم، ويوالون عدوهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ، بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾. وقد حذر كتاب الله في غير ما سورة وغير ما آية بني الإنسان، من مطاوعة الشيطان، ومواجهة خالقهم ورازقهم بالتمرد والعصيان، لِمَا في ذلك من سوء العاقبة ومنتهى الخسران،

فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ [الآية: ٦]، وقال تعالى في سورة الانعام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الآية: ١٤٢].

وأشار كتاب الله إلى عناصر السوء التي أضلَّت الناس عَبْر القرون والأجيال، وفي طليعتها إبليس وجنوده من شياطين الإنس والجن، وطواغيت الشرك والكفر، بما فيهم سَدَنة الأصنام، وعَبَدة الأوثان، وأدعياء العلم والقوة، المتطاولون على الله في مختلف العصور والأزمان، مؤكداً أن هذه العناصر كلها لا تتوفر على علم صحيح تَكْتَنِه به حقائق الأشياء، حتى ينخدع بها الأغرار، ولا على قوة ذاتية تتصرف بها في الكون، حتى ينخدع بها الأغمار، فالله تعالى قد تفرَّد بخلق المخلوقات وتكوين الأكوان بفضل حكمته، وبمحض مشيئته، دون أن يُشرِك معه أحداً في تصميمها وخلقها، ولا أن يستعين بأحد في تدبير أمورها وتسييرها، وبذلك انفرد سبحانه بإيجادها وإمدادها، كما انفرد سبحانه بعلم حقيقتها والإحاطة بكنهها، فهو وحده الذي بيده مقالِيدُ التصرف في الكون، وهو وحده مصدر العلم الحق، ومنبع الحقيقة المطلقة، عن الكون والمكوّن، وعن الخلق والخالق: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْاَرْضَ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهذه المعاني المفصَّلة هي التي تضمنها بصفة مجملة قوله تعالى هنا: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾. ووصف «المضلين» الوارد في هذه الآية، والمعبَّر به عن العناصر التي

تقوم بتضليل الخلق والتغرير بهم يناسبه ما حكاه كتاب الله على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

ثم وصف كتاب الله موقف المشركين الحرج يوم القيامة، ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله، عندما يأمر الله أَتْباع أولئك الشركاء أن ينادوهم ليشفعوا فيهم، ثم يدعونهم فعلاً فلا يستجيبون لهم، بل يتجاهلونهم بالمرة، كأنهم لا يعرفونهم، أو كأن بينهم عداوة متأصلة من قديم ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَاءِيَ الذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾، قال الحسن البصري: «موبقاً أي عداوة» وقال ابن الأعرابي: «كل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق».

ومضى كتاب الله يصف الخيبة التي يُمنَى بها الأتباع الضالون عندما تنتهي أحلامهم، ويتبرأ منهم سادتهم الذين أضلُّوهم، وكما وصفهم كتاب الله في الربع الماضي بوصف «المجرمين» إذ قال في حقهم: ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ وصفهم في هذا الربع أيضاً بوصف «المجرمين» بعد أن وصفهم في الآية السابقة بوصف «المضلِّين»، فقال تعالى: ﴿ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي أنهم بعدما رأوا النار التي كانوا في شك من وجودها أصبحوا يتوقعون دخولها، فانتقلوا من درجة الشك إلى درجة الظن، غير أن الظن، أمام الأمر الواقع، الذي ليس له من دافع، لم يلبث أن انقلب إلى يقين، إذ

لا سبيل لنجاتهم من النار، بعدما سبق أن وجهه إليهم الحقُّ سبحانه وتعالى من انذار واعذار: ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾. وبما يقرب من المعنى الوارد في هذا السياق جاء قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاَسْبَـٰبُ ﴾ [الآية: ١٦٦]، وقولُه تعالى في سورة الانعام: ﴿ وَمَا نَرىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الـذِينَ زَعَمْتُمُ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُـرَكَـٰؤُاْ، لَقَد تَّقَـطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّـا كُنتُمْ تَـزْعُمُـونَ ﴾ [الآية: ٩٤].

وانتقل كتاب الله إلى بيان أن الحق سبحانه وتعالى لم يترك وسيلة من وسـائل إقنـاع الإنسان وهـدايته إلى الحق والخيـر، ومسـاعدتـه على الاختيار المحمـود، إلا وضمَّنها آيـات الذكـر الحكيم، وبالرغم من كل ذلك لا يزال يوجد من بين الناس من يُصرّ على إنكار الحق والتمسك بالباطل، إما عناداً وجحوداً، وإما تقليداً وجموداً، منبِّهاً في نفس الوقت إلى جهل هذا الفريق من الناس بحكمة الله، وعدم شكرهم لرحمة الله، إذ لا يَعجِز الحقُّ سبحانه وتعالى أن يسلط عليهم عذاباً يستأصلهم من الوجود، أو يعاقبَهم بعذاب عاجل سريع، بدلاً من أن يؤجل عقابهم إلى اليوم الموعود، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، وَكَانَ الاِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً، وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُومِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمُ إِلَّآ أَن تَاتِيَهُمْ سُنَّةُ الاَوَّلِينَ أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلاً ﴾ أي أنهم علَّقوا تصديقهم بالرسالة على برهان مادي محسوس يؤكد عقاب من لم يومن بها في الحين،

كأن يحُل بساحتهم ما حل بمن قبلهم من الأقوام البائدة، مثل عاد وثمود، من إبادة واستئصال، أو يحُل بساحتهم عذاب سريع على وجه الاستعجال، لكن الله تعالى رد عليهم تحديهم المحموم فقال: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي أن رسالة الرسل لا تتجاوز البشارة للمصدقين المومنين، والنذارة للمكذبين الكافرين، وليس من اختصاص الرسل أن يقرروا بمحض إرادتهم عذاباً معيّناً، أو يستعجلوا العذاب قبل وقته، لمن لم يومن بالله، فأمر العقاب والثواب موكول تقريره وتحديد نوعه إلى الله، دون سواه.

وتوضيحاً لحكمة الله ورحمته في الانفراد بهذا التدبير، وما يؤول إليه المصير، قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ، لَوْ يُوَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَّجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ أي لا مَحِيصَ عنه ولا مفر.

ثم عقّب كتاب الله على ذلك بما يفيد أن أظلم الظالمين لأنفسهم وللحقيقة، هم أولئك المتعنتون الذين أتيحت لهم فرص الِاهتداء إلى الحق، لكنهم فضّلوا الإعراض عنها، وبدلاً من أن يعيدوا النظر في أحوالهم وتصرفاتهم ومعتقداتهم على ضوء الهدْى الإلّهي أصروا على ضلالهم، ولم يغيِّروا من حالهم، فأقفلوا على أنفسهم جميع الأبواب، ولم يبقَ أيّ أمل ولا رجاء في هدايتهم بآيات ربهم المنزلة في الكتاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ أَكِنَّةً اَنْ يَّفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْراً، وَإِن تَدْعُهُمْ

إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذاً أَبَداً ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن رحلة موسى من مقر إقامته إلى مَجْمَع البحرين، وبرفقته فتاه، للقاء عبد من عباد الله آتاه الله من لَدُنْه علماً لم يُوتَه موسى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَيٰهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ - ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾.

واستغرق وصف هذه القصة القسم الثاني من هذا الربع، والقسم الأول من الربع الآتي، وهذه القصة توحي بعدة أمور:

- الأمر الأول - أن الله رفع العلماء بعضهم فوق بعض درجات ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فلا ينبغي لأيِّ عالم أن يعتقد أن عنده منتهى العلم، أو جميع أنواع العلم، وكما أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، فإنه يفيض من علمه على شخص ما لا يفيضه على آخر، ولا ينبغي لأي عالم أن يَقنَع بما عنده من العلم دون أن يطلب المزيد دائماً: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾، بل عليه أن ينتهز جميع الفرص والمناسبات، لتلقي أطيب النفحات ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾.

- الأمر الثاني - أن العالِم بالرغم من كونه عالماً لا بد له من أن يلتزم منتهى الأدب مع من هو أعلم منه، وأن لا يعترض على الطريقة التي يختارها معلمه لتعليمه: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِراً، وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْراً، قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْئَلْنِي

عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾.

ـ الأمر الثالث ـ أن العالم ينبغي له أن يتخطَّى بنظره حدود المظاهر والظواهر، ويتطلع قبل كل شيء إلى حِكَم الأشياء وأسرارها، ويتعرف على مقاصدها وأهدافها، ويُلِمّ بظروف النوازل وملاَبساتها، وبذلك يتحاشى إصدار الأحكام، التي لا تناسب المقام، وإلا أدّى به الحال إلى الوقوع في الغلط، وارتكاب الشطط ﴿ قَالَ أَلَمْ اَقُل اِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً، قَالَ لَا تُوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنَ اَمْرِي عُسْراً ﴾.

ـ الأمر الرابع ـ أن المستزيد من العلم ينبغي له أن يتأنَّى ولا يستعجل من هو أعلم منه، فلا يلحّ عليه بكثرة السؤال، لأن ذلك يؤدي به إلى المضايقة والإملال، ﴿ قَالَ أَلَمْ اَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً، قَالَ إن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍم بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ ـ ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَاوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾. روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله موسى لَوَددنا أنه صبر، حتى يقُصّ الله علينا من خبرهما». وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عَجَّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذَمامة، ولو صبَر لرأى العجب». و«الذَّمَامة» بفتح الذال هي الحياء والإشفاق من الذم واللوم، وبهذه التوجيهات والإشارات يربينا الذكر الحكيم على السلوك القويم.

محتويات الجزء الثالث
من
(التيسير في أحاديث التفسير)

تفسير الحزب الواحد والعشرين في المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الواحد والعشرين ٥
الربع الثاني من الحزب الواحد والعشرين ١٨
الربع الثالث من الحزب الواحد والعشرين ٣٢
(وفيه نهاية سورة التوبة وبداية سورة يونس)
الربع الأخير من الحزب الواحد والعشرين ٤٣

تفسير الحزب الثاني والعشرين في المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثاني والعشرين ٥٣
الربع الثاني من الحزب الثاني والعشرين ٦١
الربع الثالث من الحزب الثاني والعشرين ٧٠
الربع الأخير من الحزب الثاني والعشرين ٨١
(وفيه نهاية سورة يونس وبداية سورة هود).

تفسير الحزب الثالث والعشرين في المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثالث والعشرين ٩٢

الربع الثاني من الحزب الثالث والعشرين ١٠٥
الربع الثالث من الحزب الثالث والعشرين ١١٥
الربع الأخير من الحزب الثالث والعشرين ١٢٦

تفسير الحزب الرابع والعشرين في المصحف الكريم
الربع الأول من الحزب الرابع والعشرين ١٣٥
الربع الثاني من الحزب الرابع والعشرين ١٤٥
(وفيه نهاية سورة هود وبداية سورة يوسف).
الربع الثالث من الحزب الرابع والعشرين ١٥٨
الربع الأخير من الحزب الرابع والعشرين ١٧١

تفسير الحزب الخامس والعشرين في المصحف الكريم
الربع الأول من الحزب الخامس والعشرين ١٨٢
الربع الثاني من الحزب الخامس والعشرين ١٩٣
الربع الثالث من الحزب الخامس والعشرين ٢٠٦
(وفيه نهاية سورة يوسف وبداية سورة الرعد).
الربع الأخير من الحزب الخامس والعشرين ٢١٧

تفسير الحزب السادس والعشرين في المصحف الكريم
الربع الأول من الحزب السادس والعشرين ٢٣٠
الربع الثاني من الحزب السادس والعشرين ٢٤١
(وفيه نهاية سورة الرعد وبداية سورة ابراهيم).
الربع الثالث من الحزب السادس والعشرين ٢٥٣

الربع الأخير من الحزب السادس والعشرين ٢٦٣
(وفيه نهاية سورة إبراهيم).

تفسير الحزب السابع والعشرين في المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب السابع والعشرين ٢٧٦
(وفيه بداية سورة الحجر).
الربع الثاني من الحديث السابع والعشرين ٢٨٨
(وفيه نهاية سورة الحجر).
الربع الثالث من الحزب السابع والعشرين........... ٣٠٣
(وفيه بداية سورة النحل)
الربع الأخير من الحزب السابع والعشرين........... ٣١٥

تفسير الحزب الثامن والعشرين في المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثامن والعشرين ٣٢٦
الربع الثاني من الحزب الثامن والعشرين ٣٣٧
الربع الثالث من الحزب الثامن والعشرين ٣٤٩
الربع الأخير من الحزب الثامن والعشرين ٣٥٩
(وفيه نهاية سورة النحل).

تفسير الحزب التاسع والعشرين في المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب التاسع والعشرين ٣٧٠
(وفيه بداية سورة الاسراء).

الربع الثاني من الحزب التاسع والعشرين ٣٨١
الربع الثالث من الحزب التاسع والعشرين............. ٣٩٢
الربع الأخير من الحزب التاسع والعشرين............. ٤٠٣

تفسير الحزب الثلاثين في المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثلاثين ٤١٤
(وفيه نهاية سورة الاسراء وبداية سورة الكهف).
الربع الثاني من الحزب الثلاثين.................. ٤٢٦
الربع الثالث من الحزب الثلاثين ٤٣٧
الربع الأخير من الحزب الثلاثين ٤٥٠

دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ــ ص.ب. 5787-113 بيروت ــ لبنان

رقم الإيداع القانوني
١٩٨٣ - ٤٢٧
الرباط

الرقم 85/4/3000/49

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ــ بيروت